



النسب العظيم



نظرات جديدة في القرآن

الدكتور محمد عبد السلام دراز



الدكتور محمد عبد الله دراز

النَّبَأُ الْعَظِيمُ

نظراتٌ جديدة في القرآن



دار القلم / الكويت - شارع السور - بجانب وزارة الخارجية - عمارة السور
ص.ب. ٢٠١٤٦ - هاتف ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - بريدًا، توزيعًا

فهرس

ص

والخداع إذ كلها صدق دقيق صارم ، وظهر كامل شامل ،	
وخضوع تام لسلطان القرآن .	٢٣
طرف من سيرته بإزاء القرآن	٢٤
فترة الوحي في حادث الإفك .	٢٤
مخالفة القرآن لطبع الرسول ، وعتابه الشديد له في المسائل المباحة .	٢٥
استدلال من علم النفس على انفصال شخصية الوحي عن شخصية الرسول .	٢٦
موقف الرسول من النص القرآني موقف المفسر الذي يتلمس	٢٨
الدلالات من العبارات ، ويأخذ بأرفق احتمالاتها .	٢٨
توقف الرسول أحياناً في فهم مغزى النص حتى يأتيه البيان .	٢٨
أمثلة من ذلك : موقفه في قضية المحاسبة على النيات .	٢٩
سر حرف التراخي في قوله تعالى : « ثم إن علينا بيانه » .	٢٩
مسلكه في قضية الحديبية .	٣١
منهجه في كيفية تلقي النص ، أول عهده بالوحي .	٣٢
طرف من سيرته العامة :	٣٣
يتبرأ من علم الغيب .	٣٣
لا يظهر خلاف ما يبطن .	٣٣
لا يدري ماذا سيكون حظه عند الله .	٣٣
دراسة طبائع النفوس في سيرة أصحابها .	٣٤
المرحلة الأولى من البحث	٣٦
بيان أن القرآن لا يمكن أن يكون إحياء ذاتياً من نفس محمد .	٣٦
طبيعة المعاني القرآنية ليست مما يدرك بالذكاء وصدق الفراسة :	٤٠
أنباء الماضي لا سبيل إليها إلا بالتلقي والدراسة .	٤١
الحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها .	٤١
أنباء المستقبل قد تستنبط بالمقايضة الظنية ولكنها لا سبيل فيها للبعين	٤١
إلا بالوحي الصادق .	
أمثلة من النبوءات القرآنية :	

ص

تقديم النشر .	٥
لمحة عن حياة المؤلف .	٦
مقدمة التأليف .	١٠ - ٧
البحث الأول في تحديد القرآن	
المعنى اللغوي والاشتقائي لكلمتي : « قرآن » و « كتاب » .	١٢
سر التسمية بالإسمين جميعاً .	١٣
سر اختصاص القرآن بالخلود وعدم التحريف ، دون الكتب السابقة .	١٣
هل يمكن تحديد القرآن تحديداً منطقياً ؟	١٤
عناصر التعريف المشهور للقرآن .	١٤
التفرقة بين القرآن وبين الأحاديث النبوية والأحاديث القدسية :	١٥
الوحي والاجتهاد ، وحي النص ووحي المعنى .	١٩
البحث الثاني في بيان مصدر القرآن	
تمهيد	
تحديد الدعوى أخذاً من النصوص القرآنية .	٢٠
كان من حق هذه النصوص ألا يعوزها برهان وراءها ، لأن تبرؤ	٢١
محمد من نسبة القرآن إليه ليس ادعاء حتى يحتاج إلى بيته بل هو	
اقرار يؤخذ به صاحبه .	
كما أن نسبة محمد القرآن إلى الله لا يمكن أن تكون احتيالياً لبسط	٢٢
نفوذه على العالم ، وإلا فلماذا لم ينسب أقواله كلها إلى الله .	
على أن سيرته المطهرة قبل النبوة وبعدها تأبى عليه نقيصة الخلل	٢٣

ص	ص
٤٢	(١) فيما يتعلق بمستقبل الإسلام وكتابه ورسوله .
٤٧	(٢) فيما يتصل بمستقبل المؤمنين .
٤٩	(٣) فيما يتصل بمستقبل المعاندين .
٥٣	فذلكة .
٥٦	المرحلة الثانية من البحث
٥٦	بيان أن محمداً لا بد أن يكون أخذ القرآن عن معلم ، والبحث في
٥٦	الأوساط البشرية عن ذلك المعلم .
٥٦	البحث عنه بين الأئمة : لا يكون الجهل مصدراً للعلم .
٥٧	البحث عنه بين أهل العلم
٥٩	موقف محمد من العلماء موقف المصحح لما حرفوا ، الكاشف لما كتموا .
٦٣	من زعم أن له معلماً من البشر فليسمه .
٦٤	من ضاقت به دائرة الجدل لم يسعه الإفضاء الهزل ، وكان المي
٦٧	أسر له من النطق .
٦٧	حيرة المعاندين واضطرابهم في الجدل قديماً وحديثاً .
٦٩	نظرية الوحي النفسي ليست جديدة .
٦٩	المرحلة الثالثة من البحث
٦٩	البحث في ظروف الوحي وملابساته الخاصة عن مصدر القرآن .
٧٠	ظاهرة الوحي وتحليل عوارضها .
٧٥	استثناس بما كشفه العلم في العصور الحاضرة .
٧٦	المرحلة الرابعة من البحث
٧٦	البحث في جوهر القرآن نفسه عن حقيقة مصدره .
٧٧	طبيعة القرآن حجة على سماويته : حدود القدرة البشرية ، وحدة الإعجاز .
٧٩	النواحي الثلاث للإعجاز :
٧٩	(١) الإعجاز اللغوي (٢) الإعجاز العلمي (٣) الإعجاز التشريعي
٨٠	القرآن معجزة لغوية .
٨٠	استقصاء الشبه الممكنة حول هذه القضية ، تمهيداً لمحوها واحدة واحدة .
٨٠	(الشبهة الأولى) شبهة غر ناشيء يتوهم القدرة على محاكاة القرآن
٨٣	(الشبهة الثانية) شبهة أديب متواضع ينسب هذه القدرة إلى غيره
٨٥	من القحول .
٨٩	(الشبهة الثالثة) شبهة القائل بأن عدم معارضة العرب لأسلوب
٩٤	القرآن ربما كان بسبب انصراف همهم لا بسبب عجزهم .
٩٤	(الشبهة الرابعة) شبهة من قد يظن أن القرآن إن كان معجزاً فليس
١٠٠	إعجازه من ناحيته اللغوية لأنه لم يخرج من لغة العرب في مفرداته
١٠٠	ولا في قواعد تركيبه .
١٠٠	(الشبهة الخامسة) شبهة من يزعم أن عدم قدرة الناس على مجازاة
١٠١	أسلوب القرآن ليس خصوصية للقرآن ، لأن أسلوب كل قائل
١٠٢	صورة نفسه ومزاجه فلا يستطيع غيره أن يحل محله .
١٠٦	الانتقال من جلاء الشبهة إلى شفاء الغلة ، بكشف جوانب من
١٠٦	أسرار الإعجاز .
١٠٦	نظرتان في القشرة السطحية للفظ القرآن :
١٠٦	(١) الجمال التوقيعي في توزيع حركاته وسكناته ، ومداته وبغياته .
١٠٦	(٢) الجمال التنسيقي في رصف حروفه وتأليفها من مجموعات
١٠٦	مؤتلفة مختلفة .
١٠٦	نظرات في لب البيان القرآني وخصائصه التي امتاز بها عن سائر
١٠٦	الكلام . سواء في الفقرة التي تتناول شأناً واحداً . أو في السورة
١٠٦	التي تتناول شؤوناً شتى ، أو فيما بين سورة وسورة ، أو في القرآن
١٠٦	جملة .
١٠٨	(١) القرآن في فقرة فقرة منه .
١٠٨	أسلوب القرآن هو ملتقى نهايات الفضيلة البيانية ، على تباعد ما
١٠٨	بين أطرافها :
١٠٩	« القصد في اللفظ » و « الوفاء بحق المعنى » .

ص	
١١٣	« خطاب العامة » و « خطاب الخاصة » .
١١٣	« إقناع العقل » و « امتناع الوجدان » .
١١٧	« البيان » و « الإجمال »
١١٩	تطبيق على آية كريمة .
١٢٧	القرآن إيجاز كله ، سواء مواضع إجماله ومواضع تفصيله .
١٢٨	تقسيم جديد لمقاييس الكلام .
١٣٠	ليس في القرآن كلمة مقحمة . ولا حرف زائد زيادة معنوية .
١٣٢	سر زيادة الكاف في قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » .
١٣٦	الإيجاز بالحذف مع الوضوح والطلاوة .
١٣٧	مثال .
١٤١	مثال آخر .
١٤٢	(٢) القرآن في سورة سورة منه : « الوحدة في الكثرة » .
١٤٣	صنعة البيان في الانتقال من معنى إلى معنى أشق منها في التنقل بين أجزاء المعنى الواحد .
١٤٥	جمع الأحاديث المختلفة المعاني ، المتباعدة الأزمنة ، المتنوعة الملابسات ، في حديث واحد مسترسل ، هو منظمة التفكك والاقتضاب ، ومنظمة المفارقة والتفاوت .
١٤٦	المعضلة الإنسانية الكبرى في الاهتداء إلى تحديد وضع كل جزء من أجزاء المركب قبل تمام أجزائه بل قبل معرفة طبيعة تلك الأجزاء أمثلة في مختلف الصناعات .
١٤٧	اجتماع هذه الأسباب كلها في كل سورة متفرقة النجوم ، دون أن تغض من إحكام وحدتها ، ولا من استقامة نظمها ، هو بالتحقيق معجزة المعجزات .
١٥٨	السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني .
١٦٣	نموذج من هذه الدراسة في أطول سورة من القرآن : نظام عقد المعاني في سورة البقرة ، إجمالاً وتفصيلاً .

« تقديم الناشر »

يسعد دار القلم بالكويت أن تقوم بنشر جميع مؤلفات الدكتور محمد عبد الله دراز والدكتور دراز - رحمه الله - علم من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث آناه الله الحظ الأوفر في علوم الإسلام ، كما نهل من علوم أوروبا الشيء الكثير واتصل بحضورها الصالاً وثيقاً دام سنوات طويلة .

وقد امتازت كتاباته - رحمه الله - بعمق وأصالة ، وأفكار نابضة بالحياة ، جمعت في توازن عجيب بين علوم الدين ومعارف الدنيا ، كل ذلك في أسلوب سلس رصين وتشتمل أعمال الدكتور دراز على مجموعة قيمة من الكتب والبحوث .

أولاً - الكتب :

١ - التعريف بالقرآن (باللغة الفرنسية ويترجم إلى اللغة العربية)

٢ - الأخلاق في القرآن (باللغة الفرنسية ويترجم إلى اللغة العربية)

٣ - الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)

٤ - النبا العظيم (دراسات في القرآن)

ثانياً - البحوث :

١ - أصل الإسلام

٢ - الربا في نظر القانون الإسلامي

٣ - مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام

٤ - رأى الإسلام في القتال

٥ - العبادات : الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج

٦ - بين المثالية والواقعية

٧ - المسؤولية في الإسلام

٨ - الأزهر الجامعة القديمة والحديثة

٩ - كلمات في مبادئ الفلسفة والأخلاق

١٠ - مجموعة أحاديث إذاعية في الدين والأخلاق

ودار القلم إذ تنشر اليوم الكتاب الثاني « النبا العظيم » (١) نرجو أن تصدر

بقية المؤلفات تباعاً بحون الله وتوفيقه ، ونأمل بهذا أن تكون قد أضافت إلى المكتبة

الإسلامية رصيلاً نفيساً .

« دار القلم »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) كان الكتاب الأول من مجموعة الدكتور دراز هو كتاب « الدين » .

لمحة عن حياة المؤلف

ولد عليه رحمة الله في قرية «محلة دباي» بمحافظة كفر الشيخ في عام ١٨٩٤ . وانتسب إلى معهد الاسكندرية الديني في عام ١٩٠٥ وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية في عام ١٩١٢ ، وعلى شهادة العالمية في عام ١٩١٦ . ثم تعلم اللغة الفرنسية بمجهوده الخاص ، ولم يكن إقباله على تعلم هذه اللغة حياً في المظهر ، بل ليستخدمها فيما يعود على قضية بلاده ودينه بالنفع ، فكان إبان ثورة ١٩١٩ يطوف مع الشباب على السفارات الأجنبية ليعرض قضية بلاده ودينه كما كان يدافع عن الإسلام ضد مهاجميه في جريدة «الطان» الفرنسية . وفي عام ١٩٢٨ اختير للتدريس بالقسم العالي بالأزهر ، ثم بقسم التخصص عام ١٩٢٩ ، ثم بكلية أصول الدين عام ١٩٣٠ .

وفي عام ١٩٣٦ سافر إلى فرنسا في بعثة أزهرية ، واشتغل للتحضير للدرجة الدكتوراه ، فكتب رسالتين عن «التعريف بالقرآن» وعن «الأخلاق في القرآن» نال بهما دكتوراه الدولة من السربون بمرتبة الشرف الممتازة في عام ١٩٤٧ .

وعلى أثر عودته إلى الوطن انتدب لتدريس تاريخ الأديان بجامعة القاهرة ، وحصل على عضوية جماعة كبار العلماء في عام ١٩٤٩ ، ثم نذب لتدريس التفسير بكلية دار العلوم ، واللغة العربية بالأزهر ، وتدرّس فلسفة الأخلاق في كلية اللغة العربية .

وفي عام ١٩٥٣ اختير عضواً في اللجنة العليا لسياسة التعليم كما اختير عضواً في المجلس الأعلى للاذاعة ، إلى جانب اختياره في المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلاً لمصر والأزهر وفي اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر .

وكانت آخر رحلة له رحلته إلى باكستان لحضور المؤتمر الإسلامي في مدينة «لاهور» في يناير عام ١٩٥٨ ، وقد ألقى هناك بحثاً عن «موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها» . ثم وافاه الأجل المحتوم في أثناء انعقاد المؤتمر ، ففقد العالم الإسلامي بوفاته مثلاً فاضلاً للعالم الأزهرى ، الغيور على دينه المحافظ على كرامته ، المتصون في مظهره وسمعته ، الداعي إلى صراط ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء الأول من كتاب «النبأ العظيم» مولود جديد ... قديم ... جديد في مقطعه ونهايته ، قديم في مطلعته وبدايته ...

كان مسقط رأسه في الحرم الجامعي ، منذ نيف وعشرين عاماً ، ولكنه لم يبرز منه يومئذ إلا عتقه وصدرة ... أما أطرافه فلم تنشأ ، وأما خلقه فلم يكتمل ، إلا اليوم .

لقد شهد طلاب الأمل بداية أمره ، حين كان يملي عليهم نجوماً متفرقة ، في فترات متلاحقة أو غير متلاحقة ، وكانوا كلما اجتمعت منه صفحات معدودة لا تزيد عن عقد وبعض عقد ، استعجلوا طبعها ، وجعلوا يستحثون همة المؤلف لوضع لاحقتها ...

ثم أتت بعد ذلك شؤون^(١) حالت دون إتمام وضعه ، بله لإكمال طبعه ...

(١) أمضى المؤلف في خارج القطر اثني عشر عاماً : من غرة ربيع الأول ١٣٥٥ إلى سلخ ربيع الثاني ١٣٦٧ (مايو ١٩٣٦ - مارس ١٩٤٨) مبعوثاً من الجامعة الأزهرية إلى الجامعات الأوروبية . فدرس هناك بضعة أسن من لغة أهل الغرب ، وألم بمناهج علمائهم في البحث ، ووضع هناك باللغة الفرنسية رسالتين جامعتين : عن القرآن ، وعن دستور الأخلاق في القرآن ... =

فبقي القدر الذي طبع منه حبساً في دار الطبع ، أو مقصوراً على الرعيل الأول من طلاب هذا البحث ... حتى أذن العلي القدير - وكل شيء عنده بمقدار - أن يضيف المؤلف إليه اليوم خليّات آخر ، اكتمل بها قوامه ، وأخذ بها أهفته للخروج من نطاق الثقافة الجامعية ، إلى فضاء الثقافة العالمية ، لكي يتحدث إلى كل عقل واع ناقد ، لا يأخذ ما يأخذ إلا على بصيرة وبينة ، ولا يدر ما يدر إلا على بصيرة وبينة ؛ وإلى كل وجدان تجريبي ذائق ، لا يكتفي بالخبر عن المعاينة ، ولا يستغنى بالوزن عن الموازنة .

إنه حديث يبدأ من نقطة البدء ...

فلا يتطلب من قارئه انضواء تحت راية معينة ؛ ولا اعتناقاً لمذهب معين ، ولا يفترض فيه تخصصاً في ثقافة معينة ؛ ولا حصولاً على مؤهل معين ، بل إنه يناشده أن يعود بنفسه صحيفة بيضاء ؛ إلا من فطرة سليمة ؛ وحاسة مرهفة ؛ ورغبة صادقة في الوصول إلى الحق في شأن هذا القرآن ... وإنه إذا لواصل إن شاء الله .

في شعبان سنة ١٣٧٦ (مارس ١٩٥٧) .

محمد عبد السلام دواز

ثم أمضى تسعة أعوام آخر بعد عودته إلى مصر مشغولاً بشؤون علمية نبطت به على عجل من أهمها :

- ١ - محاضرات في علم تاريخ الأديان بكلية الآداب بجامعة القاهرة .
- ٢ - محاضرات في فلسفة الأخلاق بقسم التخصص بالجامعة الأزهرية .
- ٣ - تدوين محاضراته هذه وتلك وإخراجها في رسالتين باللغة العربية .. عل أن المؤلف ما زال في أثناء هذه المشاغل كلها يعاوده الحنين إلى إكمال هذا الجزء ، وما يرح في تلك الأثناء يتلقى من أبنائه وزملائه الرسائل تلوح الرسائل المتابعة هذا البحث ، ولكنه لم يسر له تحقيق بعض هذه الأمنية إلا الآن . وسبحان من لا يشغله شأن عن شأن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الحمد لله) الذي فضلنا بالقرآن على الأمم أجمعين ، وآتانا به ما لم يأت أحداً من العالمين : أنزله هداية عالمية دائمة ، وجعله للشرائع السماوية خاتمة ، ثم جعل له من نفسه حجة على الدهر قائمة . والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن ، ووصيته القرآن ، وميراثه القرآن ، القائل «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» .

اللهم كما أعطيتنا حفظاً من وراثته هذا الذكر الحكيم ، فيسر علينا حفظه وتذكره ، وحببت إلينا تلاوته وتدبره ، نسألك أن تجعلنا من خيار وراثته ، الذين هم بهديته مستمسكون ، والذين هم على حراسته قائمون ، والذين هم تحت رايته يوم القيامة يبعثون ، في جند إمامنا الأعظم ، ورسولنا الأكرم ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه .

• • •

(أما بعد) فهذه بحوث في القرآن الكريم ، قدمتها بين يدي دروس التفسير لطلبة كلية أصول الدين بالجامع الأزهر المعمور ، أردت بها أن أنعت كتاب الله بحليته وخصائصه ، وأن أرفع النقاب عن جانب من الحقائق المتصلة

به ، وأن أرسم الخطة التي ينبغي سلوكها في دراسته .

وقد راعيت في أكثر هذه البحوث شيئاً من التفصيل والتحليل ، وشيئاً من التطبيق والتمثيل ، فلم أكتف بالإشارة حيث تمكن العبارة ، ولا بالبرهان إذا أمكن العيان ، راجياً بذلك أن تنفتح لها عيون الغافلين فيجدوا نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، وأن تنشرح بها صدور المؤمنين ، فيزدادوا إيماناً إلى إيمانهم .

ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م

محمد عبد العزيز دَرَّاز

البحث الأول

« في تجديد معنى القرآن »

« والفرق بينه وبين الحديث القدسي والنبوي »

وفي تسميته بهذين الإسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد ، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى . فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة . ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظاً في حرز حرز ، إنجازاً لوعده الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ سورة الحجر^(١)) ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، وبلى وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى : (وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ - سورة المائدة^(٢)) أي بما طلب إليهم حفظه - والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت

= في النطق ، واستعمال الكتابة في خصوص الرسم ، وهو ضم بعضها إلى بعض في الخط . فإذا رجعنا إلى أصلها الأصل في اللغة وجدنا مادق « ك ت ب » و « ق ر أ » تدوران على معنى الجمع والضم مطلقاً . ويلحق هذا الأصل الأول يكون كل واحد من اللقيين ملاحظاً فيه وصف الجمع ، إما على معنى اسم الفاعل أو اسم المفعول ، فيكون معناه « الجامع » أو « المجموع » وهذا اللقب لا يعني فقط أن هذا المسمى جامع للسور والآيات ، أو أنه مجموع تلك السور والآيات ، من حيث هي نصوص مؤلفة على صفحات القلوب ، أو من حيث هي نقوش مصفوفة في الصحف والألواح ، أو من حيث هي أصوات مرتلة منظومة على الألسنة ، بل يعني شيئاً أدق من ذلك كله ، وهو أن هذا الكلام قد جمع فنون المعاني والحقائق ، وأنه قد حشدت فيه كتائب الحكم والأحكام فإذا قلت الكتاب أو القرآن ، كنت كأنما قلت « الكلام الجامع للعلوم » أو « العلوم المبهوجة في كتاب » . وهكذا وصفه الله تعالى إذ أخبر بأنه نزل (تبياناً لكل شيء - سورة النحل ١٦ : ٨٩) وكذلك وصفه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حيث قال « فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . رواه الترمذي » .

(١) السورة ١٥ الآية ٩

(٢) السورة ٥ الآية ٤٤

القرآن في الأصل مصدر على وزن فعلان بالضم ، كالغفران والشكران والتكلمان . تقول : قرأته قرماً وقرأته وقرأناً بمعنى واحد ، أي تلوته تلاوة . وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدر في قوله تعالى : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه - سورة القيامة^(١)) أي قراءته .

ثم صار علماً شخصياً^(٢) لذلك الكتاب الكريم . وهذا هو الاستعمال الأغلب ومنه قوله تعالى : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ) سورة الإسراء^(٣) .

روعي في تسميته قرآنًا كونه متلوًا^(٤) بالألسن ، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدونًا^(٥) بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه .

(١) السورة ٧٥ الآية ١٧ وما بعدها .

(٢) يطلق بالاشتراك اللغوي على مجموع الكتاب ، وعلى كل قطعة منه ، فإذا سمعت من يقرأ آية من القرآن صبح أن تقول إنه يقرأ القرآن (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) سورة الأعراف ٧ : ٢٠١ .

(٣) السورة ١٧ الآية ٩ .

(٤) هذا بيان لوجه الصلة فيها بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه ، وهو مبني على ما اشتهر من استعمال القراءة في خصوص التلاوة ، وهي ضم الألفاظ بعضها إلى بعض =

لا التأييد ، وأن هذا القرآن جيء به مصداقاً لما بين يديه من الكتب ومهيئاً عليها ، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائداً عليها بما شاء الله زيادته ، وكان ساداً مسدداً ولم يكن شيء منها ليسد مسده ، ففضى الله أن يبقى حجة الى قيام الساعة وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه ، وهو الحكيم العليم .

ولما كان القرآن بهذا المعنى الأسمى جزئياً حقيقياً كان من المتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص . وذلك شأن كل الجزئيات الحقيقية لا يمكن تحديدها بهذا الوجه ، لأن أجزاء التعاريف المنطقية كليات ، والكلي لا يطابق الجزئي مفهوماً ، لأنه يقبل الانطباق على كل ما يفرض مماثلاً له في ذلك الوصف ذهنياً وإن لم يوجد في الواقع فلا يكون مميزاً له عن جميع ماعداه ، فلا يكون حداً صحيحاً .

ولما يحدد الجزئي بالإشارة اليه حاضراً في الحس ، أو معهوداً في الذهن . فإذا أردت تعريف القرآن تعريفاً تحديدياً فلا سبيل لذلك إلا بأن تشير اليه مكتوباً في المصحف أو مقروءاً باللسان فتقول : هو ما بين هاتين الدفتين . أو تقول : هو (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين إلى : من الجنة والناس) .

أما ما ذكره العلماء من تعريفه بالأجناس والفصول كما تعرف الحقائق الكلية فلنما أرادوا به تقريب معناه وتمييزه عن بعض ما عده مما قد يشاركه في الاسم ولو توهموا ذلك أن سائر كتب الله تعالى والأحاديث القدسية وبعض الأحاديث النبوية تشارك القرآن في كونها وحياً إلهياً فربما ظن ظان أنها تشاركه في اسم القرآن أيضاً ، فأرادوا بيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التي امتاز بها عن تلك الأنواع . فقالوا :

« القرآن هو كلام الله تعالى ، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته » .

« فالكلام » جنس شامل لكل كلام ، وإضافته إلى « الله » تميزه عن كلام

من سواه من الإنس والجن والملائكة .

و « المنزل » مخرج للكلام الإلهي الذي استأثر الله به في نفسه ، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر ، إذ ليس كل كلامه تعالى منزلاً ، بل الذي أنزل منه قليل من كثير (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) سورة الكهف (١) (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله - سورة لقمان (٢)) .

وتقيد المنزل بكونه « على محمد » لإخراج ما أنزل على الأنبياء من قبله ، كالتوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والزبور المنزل على داود ، والصحف المنزلة على إبراهيم ، عليهم السلام .

وقيد « المتعبد بتلاوته » - أي المأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة - لإخراج ما لم تؤمر بتلاوته من ذلك ، كالقراءات المنقولة إلينا بطريق الآحاد ، وكالأحاديث القدسية وهي المسندة إلى الله عز وجل إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها .

أما الأحاديث النبوية فلإنها بحسب ما حوته من المعاني تنقسم الى قسمين « قسم توقيفي » استنبطه النبي بفهمه في كلام الله أو بتأمله في حقائق الكون وهذا القسم ليس كلام الله قطعاً . و « قسم توقيفي » تلقي الرسول مضمونه من الوحي فينبه للناس بكلامه . وهذا القسم وإن كان ما فيه من العلوم منسوباً إلى معلمه وملهمه سبحانه ، لكنه - من حيث هو كلام - حرى بأن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، لأن الكلام إنما ينسب إلى واضعه وقائله الذي ألقاه على نحو خاص ولو كان ما فيه من المعنى قد تواردت عليه

(١) السورة ١٨ الآية ١٠٩ .

(٢) السورة ٣١ الآية ٢٧ .

المواطر وتلقاه الآخر عن الأول . فالحديث النبوي إذا خرج بقسميه من القيد الأول^(١) في هذا التعريف .

وكذلك الحديث القدسي إن قلنا إنه منزل بمعناه فقط .

وهذا هو أظهر القولين فيه عندنا ، لأنه لو كان منزلاً بلفظه لكان له من الحرمه والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني ، إذ لا وجه للفرقة بين لفظين منزلين من عند الله . فكان من لوازم ذلك وجوب المحافظة على نصوصه ، وعدم جواز روايته بالمعنى إجماعاً : وحرمه مس المحدث لصحيفته . ولا قائل بذلك كله . وأيضاً فإن القرآن لما كان مقصوداً منه مع العمل بمضمونه شيء آخر وهو التحدي بأسلوبه والتعبد بتلاوته احتيج لإنزال لفظه ، والحديث القدسي لم ينزل للتحدي ولا للتعبد بل لمجرد العمل بما فيه وهذه الفائدة تحصل بإنزال معناه . فالقول بإنزال لفظه قول بشيء لا داعي في النظر إليه ، ولا دليل في الشرع عليه ، اللهم إلا ما قد يلوح من إسناد الحديث القدسي إلى الله بصيغة « يقول الله تبارك وتعالى كذا » لكن القرائن التي ذكرناها آنفاً كافية في إفساح المجال لتأويله بأن المقصود نسبة مضمونه لا نسبة ألفاظه . وهذا تأويل شائع في العربية ، فلنك تقول حينما تنثر بيتاً من الشعر « يقول الشاعر كذا » وتقول حينما تفسر آية من كتاب الله بكلام من عندك : « يقول الله تعالى كذا » وعلى هذه القاعدة حكى الله تعالى عن موسى وفرعون وغيرهما مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم وأسلوب غير أسلوبهم ونسب ذلك إليهم .

فإن زعمت أنه لو لم يكن في الحديث القدسي شيء آخر مقدس وراء المعنى لصح لنا أن نسمي بعض الحديث النبوي قدسياً أيضاً ، لوجود هذا المعنى فيه ، فجوابه أننا لما قطعنا في الحديث القدسي بزول معناه لورود النص الشرعي على نسبته إلى الله ، بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « قال

الله تعالى كذا » سميناه قدسياً لذلك بخلاف الأحاديث النبوية فلإنها لما لم يرد فيها مثل هذا النص جاز في كل واحد منها أن يكون مضمونه معلماً بالوحي وأن يكون مستنبطاً بالاجتهاد والرأي ، فسمى الكل نبوياً وقوفاً بالتسمية عند الحد المقطوع به ، ولو كانت لدينا علامة تميز لنا قسم الوحي لسميناه قدسياً كذلك .

على أن هذا الامتياز لا يؤدي إلى نتيجة عملية ، فسواء علينا عند العمل بالحديث أن يكون من هذا القسم أو من ذلك ، إذ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في تبليغه صادق مأمون ، وفي اجتهاده فطن موفق ، وروح القدس يؤيده فلا يقره على خطأ إن أخطأ في أمر من أمور الشريعة . فكان مرد الأمر في الحقيقة إلى الوحي في كلتا الحالتين ، إما بالتعليم ابتداء وإما بالإقرار أو النسخ انتهاء . ولذلك وجب أن نتلقى كل سته بالقبول (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا - سورة الحشر^(١)) (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) سورة الأحزاب^(٢) .

(١) السورة ٥٩ الآية ٧ .

(٢) السورة ٣٣ الآية ٣٦ .

(١) وهو كون الكلام كلام الله .

الْبَحْثُ الشَّانِي

« في بيان مصدر القرآن »

« وإثبات أنه من عند الله بلفظه ومعناه »

لقد علم الناس أجمعون علماً لا يخالفه شك أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي ولد بمكة في القرن السادس الميلادي ، اسمه محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.. هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد ، لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض .

أما بعد ، فمن أين جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟ أمن عند نفسه ومن وحي ضميره ، أم من عند معلم ؟ ومن هو ذلك المعلم ؟

نقرأ في هذا الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه ، وإنما هو قول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين : ذلکم هو جبریل علیه السلام ، للقاء من لدن حکیم عليم ، ثم نزل به بلسان عربي مبين على قلب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فتلقته محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أساتذته نصاً من النصوص ، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا : « ١ » الوحي والحفظ ثم « ٢ » الحكاية والتبليغ ، ثم « ٣ » البيان والتفسير ، ثم « ٤ » التطبيق والتنفيذ .

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل ، وليس له من أمرهما شيء ، إن هو إلا وحي يوحى .

هكذا سماه القرآن حيث يقول : (وإذا لم تأتكم بآية قالوا لولا اجتبتيتها . قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي . سورة الأعراف^(١)) ويقول (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي) سورة يونس^(٢) وأمثال هذه النصوص كثير في شأن إحياء المعاني ثم يقول في شأن الإحياء اللفظي : (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) - سورة يوسف^(٣) (ستقرئك فلا تنسى) سورة الأعلى^(٤) (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه) - سورة القيامة^(٥) (اقرأ - أول سورة العلق^(٦)) (واتل - سورة الكهف^(٧)) (ورتل - سورة المزمل^(٨)) فالنظر كيف عبر بالقراءة والإلقاء . والتلاوة والترتيل ، وتحريك اللسان ، وكون الكلام عربياً ، وكل أولئك من عوارض الألفاظ لا المعاني البحتة .

القرآن إذاً صريح في أنه « لا صنعة فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا لأحد من الخلق ، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه » .

والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة ، وهو أنه ليس من عند محمد .

في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضياً يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه ، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل ، ذلك أنها ليست من جنس « الدعاوى »

(١) السورة ٧ الآية ٢٠٣

(٢) السورة ١٠ الآية ١٥

(٣) السورة ١٢ الآية ٢

(٤) السورة ٨٧ الآية ٦

(٥) السورة ٧٥ الآية ١٦ وما بعدها

(٦) السورة ٩٦

(٧) السورة ١٨ الآية ٢٧

(٨) السورة ٧٣ الآية ٤

فتحتاج إلى بيعة ، وإنما هي من نوع « الإقرار » الذي يؤخذ به صاحبه ، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه ، إن أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة ، نقول أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره ، وينسلخ منها انسلاخاً ؟ على حين أنه كان يستطيع أن يتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن ، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحداً يعارضه ويزعمها لنفسه .

الذي نعرفه أن كثيراً من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمة ، حتى أن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأنواب المستعارة . أما أن أحداً ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلد الدهر بعد .

ولو أننا افترضناه افتراضاً لما عرفنا له تعليلاً معقولاً ولا شبه معقول اللهم إلا شيئاً واحداً قد يحيك في صدر الجاهل ، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأى أن في « نسبه القرآن إلى الوحي الإلهي » ما يعينه على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم ونفاذ أمره فيهم ، لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه .

وهذا قياس فاسد في ذاته ، فاسد في أساسه .

أما أنه فاسد في ذاته فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه والكلام المنسوب إلى الله تعالى فلم تكن نسبته ما نسبه إلى نفسه بالخاصة من لزوم طاعته شيئاً ، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزايدة فيها شيئاً ، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء فكانت حرمتها في النفوس على سواء ، وكانت طاعته من طاعة الله ، ومعصيته من معصية الله فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما بهجس به ذلك الوهم .

وأما فساد هذا القياس من أساسه فلأنه مبني على افتراض باطل ، وهو التمييز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء ، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته ، وعباراته وإشاراته ، في رضاه وغضبه ، في خلوته وجلوته لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المدحاجة والمواربة ، وأن سره وعلايته كانا سواء في دقة الصدق وصرامة الحق في جليل الشؤون وحقيقتها ، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه^(١) إلى يومنا هذا (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ، أفلا تعقلون) . سورة يونس^(٢) .

• • •

وكأنني بك ها هنا تحب أن أقدم لك من سيرته المطهرة مثلاً واضحة الدلالة على مبلغ صدقه وأمانته في دعوى الوحي الذي نحن بصددده ، وأنه لم يكن ليأتي بشيء من القرآن من تلقاء نفسه ، فأليك طرفاً من ذلك :

— ١ —

لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفره إلى القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له

(١) اقرأ مثلاً ما كتبه توماس كارليل الإنجليزي في كتاب الأبطال ، وما كتبه الكونت هنري دي كاستري الفرنسي في خواطره وسوانحه عن الإسلام ثم اقرأ شهادة قريش التي سجلها أبو سفيان وهو في الجاهلية بسين يدي هرقل عظيم الروم لما سأله هرقل هل كنتم تنهونوه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . وسأله هل يفتر قال : لا . أخرجه الشيخان .
(٢) السورة ١٠ الآية ١٦ وما بعدها .

مقالاً وجمالاً ، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس .

ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة رضي الله عنها وأبطأ الوحي ، وطال الأمر والناس يخوضون ، حتى بلغت القلوب الحناجر وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس «إني لا أعلم عنها إلا خيراً» ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب ، ومضى شهر بأكمله والكل يقولون ما علمنا عليها من سوء ، لم يزد على أن قال لما آخر الأمر «يا عائشة ، أما إنه بلغني كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت أملت بذنب فاستغفري الله»

هذا كلامه بوحى ضميره ، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب ، وكلام الصديق المثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم . على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلناً برأيتها ، ومصدراً للحكم المبرم بشرقها وطهارتها . الحديث أخرجه الشيخان وغيرهما .

فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه - أن يقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها إلى الوحي السماوي لتقطع ألسنة المتخرصين ؟ ولكنه ما كان لينزل الكذب على الناس ويكذب على الله (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين - سورة الحاقة^(١)).

- ٣ -

وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه . فيخطئه في

(١) السورة ٦٩ الآية ٤٤ وما بعدها .

الرأي يراه . ويأذن له في الشيء لا يعجل إليه . فإذا تلبث فيه يسيراً تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد ، والعتاب القاسي ، والتقد المرم ، حتى في أقل الأشياء خطراً : (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك) أول سورة التحريم^(١) (وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) سورة الأحزاب^(٢) (عفا الله عنك ، لم أفلت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟) سورة التوبة^(٣) (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) سورة التوبة أيضاً^(٤) (ما كان للنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فبما أخذتم عذاب عظيم) سورة الأنفال^(٥) (أما من استغنى فآنت له نصيب وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى) سورة عبس^(٦) .

أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه ، معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه . أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع ؟ ألم يكن له في السكوت عنها سر على نفسه ، واستبقاء لحرمة آرائه ؟ بلى إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك الوجدان . ولو كان كائناً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات . ولكنه الوحي لا يستطيع كتمان

(١) السورة ٦٦ .

(٢) السورة ٣٣ الآية ٢٧ .

(٣) السورة ٩ الآية ٤٣ .

(٤) السورة ٩ الآية ١١٣ .

(٥) السورة ٨ الآية ٦٧ وما بعدها .

(٦) السورة ٨٠ الآية ٥ وما بعدها .

(وما هو على الغيب بضنين) سورة التكوين^(١).

وتأمل آية الأنفال المذكورة ، تجد فيها ظاهرة عجيبة ، فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أسارى بدر وقبول الفداء منهم ، وقد بدئت بالخطئة والاستنكار لهذه الفعلة ، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها وتطبيب النفوس بها ، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها . فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام — لو كان عن النفس مصدره — يمكن أن يصدر عنها آخره ولما تمخض بينهما فترة تفصل بين زجاجة الغضب والندم وبين ابتسامة الرضى والاستحسان ؟ كلا ، وإن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضراباً عن الأول ماحياً له ، ولرجع آخر الفكر وفقاً لما جرى به العمل . فأي داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر المحو وتسجيله ، على ما فيه من تفرغ عليّ بغير حق ، وتنقيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالاً طيبة ؟ إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن ها هنا ألبنة شخصيتين منفصلتين ، وأن هذا صوت سيد يقول لعبده : لقد أسأت ولكنني عفوت عنك وأذنت لك .

وأنت لو نظرت في هذه الذنوب التي وقع العتاب عليها لوجدتها تنحصر في شيء واحد ، وهو أنه عليه السلام كان إذا ترجع بين أمرين ولم يجد فيهما إلماً اختار أقربهما إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصمه ، وأبعدهما عن الغلظة والجفاء ، وعن إثارة الشبه في دين الله . لم يكن بين يديه نص فخالفه كضاحاً ، أو جاوزه خطأ ونسياناً ، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسعه في النظر ، ورأى نفسه غيراً فتخير . هه مجتهداً أخطأ باختيار خلاف الأفضل . أليس معذوراً ومأجوراً ؟ على أن الذي اختاره كان

(١) السورة ٨١ الآية ٢٤ .

هو غير ما يختاره ذو حكمة بشرية^(١) وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية . هل ترى في ذلك ذنباً يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب ؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية ، وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب ؟

توفي عبد الله بن أبي كبير المناقذين . فكفنه النبي في ثوبه وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه ، فقال عمر رضي الله عنه : أتصلي عليه وقد نهأك ربك ؟ فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « إنما خيرني ربي فقال (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم . إن تستغفر لهم سبعين مرة) وسأزيده على السبعين » وصلى عليه ، فأنزل الله تعالى (ولا تُصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) سورة التوبة^(٢) فترك الصلاة عليهم — اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين وانظر ماذا ترى ؟ — لأنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع وقد اتخذ من القرآن دستوراً يستملي أحكامه من لموصفه الحرفية ، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم وقد آتس من ظاهره^(٣) النص الأول تخيراً له بين طريقين فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة ، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النص الصريح بالمنع . وهكذا كلما درست مواقف الرسول من القرآن في هذه المواطن أو غيرها تجلي لك فيه معنى العبودية الخاضعة ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة ، وتجلى

(١) وما كان اختيار عمر رضي الله عنه في مسألة الأسرى ونحوها الا مظهرًا من مظاهر الشدة التي كانت أغلب على طبعه . وإن كادت هذه الشدة لتفتت عن أمر الله يوم الحديبية كما سيجيء . فكانت موافقته للوحي في تلك المسائل مصادفة للحكم من غير مقدماته الحقيقية التي انفرد بها علام النبوة .

(٢) السورة ٩ الآية ٨٠ والآية ٨٤ .

(٣) نقول : ظاهر النص ، لأن العطف يلوّ احتمل أن يكون للتسوية لا للتخيير كما أن صيغة المبدئ تحمل أن تكون للبالغة لا لتحديد وكلامها احتمال قوي . إلا أن معنى التخيير والتحديد آت على أصل الوضع ، وعلى مقتضى كرم الطبع . فلم يعدل عنه الرسول الكريم إلا بنص آخر .

لك في مقابل ذلك من جانب القرآن . معنى القوة التي لا تتحكم فيها البواعث والأغراض بل تصدع بالبيان فرقاناً بين الحق والباطل ، وميزاناً للخبيث والطيب ، أحب الناس أم كرهوا ، رضوا أم سخطوا . آمنوا أم كفروا إذ لا تريد طاعة الطائعين ولا تنقصها معصية العاصين . فترى بين المقامين ما بينهما . وشتان ما بين سيد ومسود ، وعابد ومعبود .

- ٣ -

ولقد كان يجيئه الأمر أحياناً بالقول المجمل أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد . قلى لي بربك : أي عاقل توحى اليه نفسه كلاماً لا يفهم هو معناه ، وتأمره أمراً لا يعقل هو حكمته ؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل ، وأنه مأمور لا آمر ؟

نزل قوله تعالى (وإن تُبَدُّوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله - سورة البقرة ^(١)) فأزعجت الصحابة إزعاجاً شديداً ، ودخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها - فقالوا : يا رسول الله أنزلت علينا هذه الآية ولا نطبقها . - فقال لهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . إلى آخر السورة المذكورة) وهنالك علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب وهو ما كان من النيات المكسوبة والعزائم

المستقرة ، لا من الخواطر والأمانى الجارية على النفس بغير اختيار . الحديث في مسلم وغيره وأشار اليه البخاري في التفسير مختصراً . وموضع الشاهد منه أن النبي لو كان يعلم تأويلها من أول الأمر لبين لهم خطأهم ولأزال اشتباههم من فوره ؛ لأنه لم يكن ليكن عنهم هذا العلم وهم في أشد الحاجة إليه ، ولم يكن ليتركهم في هذا الهلع الذي كاد يخلع قلوبهم وهو بهم رموف رحيم . ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها . ولأمر ما أخر الله عنهم هذا البيان . ولأمر ما وضع حرف التراخي في قوله تعالى (ثم إن علينا بيانه - سورة القيامة ^(١)) .

واقراً في صحيح البخاري وسنن أبي داود وغيرهما قضية الحديبية ، ففيها آية بيّنة : أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من يعتدي عليهم أينما وجدوه ، غير ألا يقاتلوا في الحرم من لم يقاتلهم فيه نفسه ، فقال تعالى (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم - الآيات من سورة البقرة ^(٢)) فلما أجمعوا زيارة البيت الحرام في ذلك العام وهو العام السادس من الهجرة أخذوا أسلحتهم حذراً أن يقاتلهم أحد فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع . ولما أشرفوا على حدود الحرم علموا أن قريشاً قد جمعت جموعها على مقربة منهم فلم يثن ذلك من عزمهم ؛ لأنهم كانوا على تمام الأهبة ، بل زادهم ذلك استبسلاً وصمموا على المضي إلى البيت فمن صدهم عنه قاتلوه ، وكانت قريش قد نهكتها الحروب فكانت البواعث كلها متضافرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يتمكن فيها الحق من الباطل فيدمغه . وإنهم لسائرون عند الحديبية إذ بركت راحلة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ، أي حرنت الناقة . فقال النبي صلى

(١) السورة ٧٥ الآية ١٩

(٢) السورة ٢ الآية ١٩٠ وما بعدها .

(١) السورة ٢ الآية ٢٨٤ .

الله عليه وعلى آله وسلم « ما خلأت القصواء . وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس القيل » يعني أن الله الذي اعتقل القيل ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين هو الذي اعتقل هذه الناقة ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عنوة . وهكذا أيقن أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين ، لا بادئين ولا مكافئين . وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية ، وعدل بهم عن متابعة السير امتثالاً لهذه الإشارة الإلهية التي لا يعلم حكمتها ، وأخذ يسعى لدخول مكة من طريق الصلح مع قريش قائلًا « والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهم إياها » ولكن قريشاً أبت أن يدخلها في هذا العام لا محارباً ولا مسالماً . وأملت عليه شروطاً فاسية بأن يرجع من عامه ، وأن يرد كل رجل يحيته من مكة مسلماً . وألا ترد هي أحداً يحيثها من المدينة تاركاً لدينه ، فقبل تلك الشروط التي لم يكن ليمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم ، وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم وبالعودة من حيث جاءوا . فلا تسل عما كان لهذا الصلح من الوقع السيء في نفوس المسلمين ، حتى إنهم لما جعلوا يخلقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضهم بعضاً ذهولاً وغماً ، وكادت تزيع قلوب فريق من كبار الصحابة فأخلوا يتساءلون فيما بينهم ويراجعون هو نفسه قائلين : لِم نعطي الدنيا في ديننا؟ - وهكذا كاد الجيش يتمرّد على أمر قائده وبغلت حبله من يده . أفلم يكن من الطبيعي إذ ذاك لو كان هذا القائد هو الذي وضع هذه الخطة بنفسه أو اشترك في وضعها أو وقف على أسرارها أن يبين لكبار أصحابه حكمة هذه التصرفات التي فوق العقول ، حتى يطفئ نار الفتنة قبل أن يتطايّر شررها؟ ولكن انظر كيف كان جوابه حين راجعه عمر : « إني رسول الله . ولست أعصيه ، وهو ناصري » يقول : إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن أنفذ أمر مولاي واثقاً بنصره قريباً أو بعيداً . وهكذا ساروا راجعين وهم لا يدرون تأويل

هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح فبينت لهم الحكم الباهرة والبشارات الصادقة فإذا الذي ظنوه ضيماً وإجحافاً في بادئ الرأي كان هو النصر المبين والفتح الأكبر^(١) وأين تدبير البشر من تدبير القدر ، (وهو الذي كلف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بيطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً . هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرفة بغير علم ، لهدّى الله في رحمته من يشاء ، لو تزيّلوا لعدّ بنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية الحميّة الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحقّ بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليماً . لقد صدّق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رموسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) سورة الفتح^(٢) .

ولقد كان حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحي يتلقفه متعجلاً

(١) قال ابن إسحاق قال الزهري : فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية . إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً التفتوا وتفاوضوا في الحديث فلم يكلم أحد بالإسلام بمقل شيئاً في تلك المدة إلا دخل فيه . وفسر ذلك صاحب الفتح فقال : ان الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اخلط بعضهم ببعض من غير تكبر ، وظهر من كان يخفي إسلامه ، وأصبح المسلمون المشركين القرآن ، وناظروهم بهجة آمنين . وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية . فدل المشركون من حيث أرادوا العزة ، وأظهروا من حيث أرادوا الغلبة .

(٢) السورة ٤٨ الآية ٢٥ وما بعدها .

- ١ -

جلست جوهريات يضربن بالدف في صبيحة عرس الربيع بنت معوذ
الأنصارية ، وجعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر حتى قالت جارية
ملهن : وفينا نبي يعلم ما في غد . فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم :
« لا تقولي هكذا ، وقولي ما كنت تقولين » رواه البخاري . ومصادقه
في كتاب الله تعالى (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب)
سورة الأنعام^(١) (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير)
الأعراف^(٢)

- ٢ -

وكان عبد الله بن أبي السرح أحد النفر الذين استثناهم النبي من الإيمان
يوم الفتح لفرط إيمانهم للمسلمين وصددهم عن الإسلام ، فلما جاء إلى
النبي لم يبايعه إلا بعد أن شفع له عثمان رضي الله عنه ثلاثاً . ثم أقبل على
أصحابه فقال : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت
يدي عن بيعته فيقتله ؟ » فقالوا : ما ندري ما في نفسك . ألا أومأت إلينا
بعملك ! فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « إنه لا ينبغي لنبي أن تكون
له خائنة الأعين » رواه أبو داود والنسائي .

- ٣ -

وجيء بصبي من الأنصار يصلّي عليه ، فقالت عائشة رضي الله عنها :
طوبى لهذا ، لم يعمل شراً . فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم « أو غير
ذلك يا عائشة ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب

(١) السورة ٦ الآية ٥٠

(٢) السورة ٧ الآية ١٨٨

فيحرك به لسانه وشفتيه طلباً لحفظه ، وخشية ضياعه من صدره . ولم يكن
ذلك معروفاً من عاداته في تحضير كلامه ، لا قبل دعواه النبوة ولا بعدها ،
ولا كان ذلك من عادة العرب ، إنما كانوا يزورون كلامهم في أنفسهم .
فلو كان القرآن منبجساً من معين نفسه لجرى على سنة كلامه وكلامهم ،
ولكان له من الروية والأناة الصامته ما يكفل له حاجته من انضاج الرأي
وتمحيص الفكرة . ولكنه كان يرى نفسه أمام تعليم يفاجئه وقتياً ويلم به
سريعاً . بحيث لا تجدي الروية شيئاً في اجتلابه لو طلب ، ولا في تداركه
واستدكاره لو ضاع منه شيء وكان عليه أن يعيد كل ما يلقى إليه حرفياً .
فكان لا بد له في أول عهده بتلك الحال الجديدة التي لم يألفها من نفسه
أن يكون شديد الحرص على المتابعة الحرفية ، حتى ضمن الله له حفظه
وبيانه بقوله (لا تحرك به لسانك لتعجل به) الآيات من سورة القيامة
وقوله (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقرئ إليك وحيه ، وقل
رب زدني علماً) سورة طه^(١) .

• • •

هذا طرف من سيرته بإزاء القرآن . وكلها شواهد ناطقة بصدقه في
أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه ، وأنه لم يقض عن قلبه بل أفيض عليه
فإذا أنت صعدت بنظرك إلى سيرته العامة لقيت من جوانبها مجموعة
رائعة من الأخلاق العظيمة . وحسبك الآن منها أمثلة يسيرة إذا ما تأملت
صورتك لك إنساناً الطهر ملء ثيابه ، والجد حشو إهابه ، يأبى لسانه أن
يخوض فيما لا يعلمه ، وتأبى عيناه أن تخفيا خلاف ما يعلنه ، ويأبى سمعه
أن يصغي إلى غلو المادحين له : تواضع هو حلية العظماء ، وصراحة نادرة
في الزعماء ، وثبت قلما تجده عند العلماء . فأنسى من مثله الختل أو التزوير ،
أو الغرور أو التفرير ؟ حاش لله !

(١) السورة ٢٠ الآية ١١٤

آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم^(١)»
رواه مسلم وأصحاب السنن .

- ٤ -

ولما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه قالت أم العلاء - امرأة من الأنصار - : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله . فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « وما يدريك أن الله أكرمك ؟ » فقالت : بأبي أنت يا رسول الله ، فمن يكرمه الله ؟ قال : « أما هو فقد جاءه اليقين ، والله إنني لأرجو له الخير . والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي » قالت فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً . رواه البخاري والنسائي . ومصادقه في كتاب الله تعالى (قل ما كنت يدعياً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) سورة الأحقاف^(٢)

أتراه لو كان حين يتحامي الكذب يتحاماه دهاء وسياسة ، خشية أن يكشف الغيب قريباً أو بعيداً عن خلاف ما يقول ، ما الذي كان يمنعه أن يتقول ما يشاء في شأن ما بعد الموت وهو لا يخشى من يراجع فيه ، ولا يهاب حكم التاريخ عليه ؟ بل منعه الخلق العظيم ، وتقدير المسؤولية الكبرى أمام حاكم آخر أعلى من التاريخ وأهله (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) سورة الأعراف^(٣) .

واعلم أنك مهما أزحت عن نفسك راحة اليقين وأرخيت لها عنان

الشك وتركبتها تفترض أسوأ الفروض في الواقعة الواحدة والحادثة الفذة من هذه السيرة المكرمة فإنك متى وقفت منها على مجموعة صالحة لا تملك أن تدفع هذا اليقين عن نفسك إلا بعد أن تتهم وجدانك وتشك في سلامة عقلك . فنحن قد نرى الناس يدرسون حياة الشعراء في أشعارهم فيأخذون عن الشاعر من كلامه صورة كاملة تتمثل فيها عقائده وعوائده وأخلاقه ويمرر تفكيره وأسلوب معيشته ، ولا يمنعونهم زخرف الشعر وطلاؤه عن استنباط خيلته ، وكشف رغوته عن صريحه ؛ ذلك أن للحقيقة قوة غالبة تلغى من حجب الكتمان فتقرأ بين السطور وتعرف في لحن القول ، والإنسان مهما أمعن في تصنعه ومداهنته لا يخلو من فلتات في قوله وفعله تنم على طبيعه إذا أحفظ أو أخرج أو احتاج أو ظفر أو خلا بمن يطمئن إليه .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فما ظنك بهذه الحياة النبوية التي تعطيك في كل حلقة من حلقاتها مرآة صافية لنفس صاحبها فتريك باطنه من ظاهره وتريك الصدق والإخلاص ماثلاً في كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله . بل كان الناظر إليه إذا قويت فطنته وحسنت فراسته يرى أخلاقه العالية تلوح في بحياه ولو لم يتكلم أو يعمل . ومن هنا كان كثير ممن شرح الله صدورهم للإسلام لا يسألون رسول الله على ما قال برهاناً ، فمنهم العشير الذي عرفه بعظمة سيرته ؛ ومنهم الغريب الذي عرفه بسيماء في وجهه . قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه وقيل « قدم رسول الله ! قدم رسول الله ! » فجئت في الناس لأنظر إليه ، فلما استبش وجه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب » . رواه الترمذي بسند صحيح

والآن وقد وفينا لك الوعد بعرض هذه النماذج من السيرة النبوية . نعود إلى تقرير ما قصدناه من هذا العرض فنقول : إن صاحب هذا الخلق

(١) قال العلماء إن هذا التوقف كان قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة

(٢) السورة ٤٥ الآية ٩ - قال العلماء وكان هذا قبل أن يوحى إليه صدر سورة الفتح (ليفخر

لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)

(٣) السورة ٧ الآية ٦ وما بعدها .

العظيم وصاحب تلك المواقف المتواضعة بإزاء القرآن ، ما كان ينبغي لأحد أن يمتري في صدقه حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هو واضع ذلك الكتاب وأن منزلته منه منزلة المتعلم المستفيد ، بل كان يجب أن نسجل من هذا الاعتراف البريء دليلاً آخر على صراحته وتواضعه

• • •

على أن الأمر أمامنا أوضح من أن يحتاج إلى سماع هذا الاعتراف القولي منه . أو يتوقف على دراسة تلك الناحية الخلقية من تاريخه .

أليس يكفي للحكم ببراءة الإنسان من عمل من الأعمال أن يقوم من طبيعته شاهدٌ بعجزه المادي عن إنتاج ذلك العمل ؟

فلينظر العاقل : هل كان هذا النبي الأُمِّي صلوات الله عليه أهلاً بمقتضى وسائله العلمية لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية ؟

سيقول الجاهل من الملحدین : نعم ؛ فقد كان له من ذكائه الفطري وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء . والحسن والقبيح من الأخلاق . والخير والشر من الأفعال . حتى لو أن شيئاً في السماء تناله الفراسة أو تلهيمه الفطرة أو توحى به الفكرة لتناوله محمد بفطرته السليمة ، وعقله الكامل وتأملاته الصادقة .

ونحن قد نوّمن بأكثر مما وصفوا من شمائله . ولكننا نسأل : هل كل ما في القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير ، ومما يدركه الوجدان والشعور ؟

اللهم كلا ، ففي القرآن جانب كبير من المعاني الثقيلة البهتة التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط . ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقي والتعلم . ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق وما فصله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقّع ؟ أيقولون إن التاريخ يمكن وضعه أيضاً بإعمال الفكر ودقة الفراسة ؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون إن محمداً قد عاصر تلك الأمم الخالية ، وتنقل

فيها قرناً فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان ، أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها ؟ إنهم لا يسمعون أن يقولوا هذا ولا ذاك ، لأنهم معترفون مع العالم كله بأنه عليه السلام لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) سورة آل عمران^(١) (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) سورة يوسف^(٢) (وما كنت بمبالغ الغرني إذ قضينا إلى موسى) الأمر الآيات من سورة القصص^(٣) . (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك . إذا لارتاب المفلولون) سورة العنكبوت^(٤) (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) سورة هود^(٥) (نحن لله من قبلك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن . وإن كنت من قبله لمن الغافلين) سورة يوسف^(٦) .

لا نقول ان العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجموع ما جرى من حوادث التدبير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين ؛ فإن هذه التفت البسيرة قلما تعزب عن أحد من أهل البدو أو الحضار . لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأمثال . وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين . وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محرراً في القرآن .

(١) السورة ٣ الآية ٤٤

(٢) السورة ١٢ الآية ١٠٢

(٣) السورة ٢٨ الآية ٤٤ وما بعدها .

(٤) السورة ٢٩ الآية ٤٨

(٥) السورة ١١ الآية ٤٩

(٦) السورة ١٢ الآية ٣

حتى الأرقام طبق الأرقام : فترى مثلاً في قصة نوح عليه السلام في القرآن أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً . وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة . وترى في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية . وفي القرآن أنهم لبثوا في كهفهم (ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) وهذه السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية . قاله الزجاج يعني بتكميل الكسر . فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب .

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليم

نعم إنها لعجبية حقاً : رجل أمي بين أظهر قوم أميين . يخضر مشاهدهم - في غير الباطل والفجور - ويعيش معيشتهم مشغولاً برزق نفسه وزوجه وأولاده . راعياً بالأجر . أو تاجراً بالأجر . لا صلة له بالعلم والعلماء ؛ يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره . ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك . ويبيدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطهم . أي مثل هذا يقول الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره ؟ أي منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية ؟ إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سر آخر يلتبس خارجاً عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة . وإن ملاحظة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلاً لهذه الظاهرة وأقرب فهماً لهذا السر من ملاحظة هذا العصر ، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه ، بل قالوا إنه لا بد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة ، فدرس منها ما لم يكن قد درس ، وتعلم ما لم يكن يعلم (وكذلك نُصِرَف الآيات

وليقولوا درست) سورة الأنعام^(١) (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها لهمي تملئ عليه بكرة وأصيلاً) سورة الفرقان^(٢) .

ولقد صدقوا ؛ فإنه درسها ، ولكن على أستاذ الروح الأمين . واكتتبها ، ولكن من صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله . أفلا تعقلون ؟) سورة يونس^(٣) .

ذلك شأن ما في القرآن من الأنباء التاريخية ، لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل ، وأنها تحيء من خارج النفس لا من داخلها .

فأما سائر العلوم القرآنية فقد يقال إنها من نوع ما يدرك بالعقل ، فيمكن أن ينالها الذكي بالفراسة أو بالروية . وهذا كلام قد يلوح حقاً في بادئ الرأي ، ولكنه لا يلبث أن ينهار أمام الاختبار .

ذلك أن العقول البشرية لها في إدراك الأشياء طريق معين تسلكه ، وحدود محدود تقف عنده ولا تتجاوزه . فكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة ، ولم يكن مركزاً في غريزة النفس ، إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذلك المجهول ، إما بسرعة كما في الحدس وإما ببطء كما في الاستدلال والاستنباط والمقايسة . وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات لا يمكن أن تناله يد العقل بحال . وإنما سبيله الإلهام ، أو النقل عن جاءه ذلك الإلهام .

فهل ما في القرآن من المعاني غير التاريخية كانت حاضرة للوسائل والمقدمات في نظر العقل ؟

(١) السورة ٦ الآية ١٠٥

(٢) السورة ٢٥ الآية ٥

(٣) السورة ١٠ الآية ١٦

ذلك ما سيأتيك نبؤه بعد حين . ولكننا نَعَجَلُ لك الآن بمثالين من تلك المعاني نكتفي بذكرهما هنا عن إعادتهما بعد : « أحدهما » قسم العقائد الدينية « والثاني » قسم النبوءات الغيبية .

فأما أمر الدين فإن غاية ما يجتنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه ، بعد معاونة الفطرة السليمة له ، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلهاً قاهراً دبره وأنه لم يخلقه باطلاً ، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة . فلا بد أن يعيده كرة أخرى لينال كل عامل جزاء عمله إن خيراً وإن شراً . هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين . ولكن القرآن لا يقف في جانبه عند هذه المرحلة ، بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة . ويصف لنا بدء الخلق ونهايته ، ويصف الجنة وأنواع نعيمها ، والنار وألوان عذابها ، كأنهما رأى عين ، حتى إنه ليحصى عدة الأبواب ، وعدة الملائكة الموكلة بتلك الأبواب . فعلى أي نظرية عقلية بنيت هذه المعلومات الحسابية ، وتلك الأوصاف التحديدية ؟ إن ذلك ما لا يوحى به العقل ألبتة ، بل هو إما باطل فيكون من وحي الخيال والتخمين ، وإما حق ، فلا ينال إلا بالتعليم والتلقين . لكنه الحق الذي شهدت به الكتب واستيقنته أهلها (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً - سورة المدثر^(١)) وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) سورة الشورى^(٢) (ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون) سورة - ص^(٣) (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب ، لا ريب فيه من رب العالمين) سورة يونس^(٤) .

وأما النبوءات الغيبية فهل تعرف كيف يحكم فيها ذو العقل الكامل ؟ إنه يتخذ من تجاربه الماضية مصباحاً يكشف على ضوئه بضع خطوات من مرمى الحوادث المقبلة ، جاعلاً الشاهد من هذه مقياساً للغائب من تلك ثم يصدر فيها حكمه محاطاً بكل تحفظ وحذر ، قائلاً : « ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث لو سارت الأمور على طبيعتها ولم يقع ما ليس في الحساب » . أما أن يبت الحكم بتأ ويحدده تحديداً حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية ، ولا تلوح منه أمارة من الأمارات الظنية العادية ، فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين : إما رجل مجازف لا يبالي أن يقول الناس فيه صدق أو كذب ، وذلك هو ذأب جهلاء المتنبيين من العرافين والمنجمين ، وإما رجل اتخذ عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ، وتلك هي سنة الأنبياء والمرسلين ، ولا ثالث لهما إلا رجلاً روي أخباره عن واحد منهما . فأَي الرجلين تراه في صاحب هذا القرآن حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع في أعوام ، وما سيكون أبد الدهر ، وما لن يكون أبد الدهر ؟ ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجم ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم تمثل الدعوى والتفحم ، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطاً من الصدق والكذب ، والصواب والخطأ . بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه ، يجيئه عفواً ما تعجز صروف الدهر وتقلباته في الأحقاب المتطاولة أن تنقض حرفاً واحداً مما ينبيء به (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) سورة فصلت^(١) .

ولنسرده لك ها هنا بعض النبوءات القرآنية مع بيان شيء من ملاسباتها التاريخية ، لترى هل كانت مقدماتها القريبة أو البعيدة حاضرة فتكون تلك النبوءات من جنس ما توحى به الفراسة والألمعية ؟ وسنحصر الكلام

(٣) السورة ٣٨ الآية ٦٩

(٤) السورة ١٠ الآية ٣٧

(١) السورة ٧٤ الآية ٣١

(٢) السورة ٤٢ الآية ٥٢

(١) سورة ٤١ الآية ٤١ وما بعدها

في ثلاثة أنواع : ١ - ما يتعلق بمستقبل الإسلام في نفسه أو في شخص كتابه ونبيه - ٢ و ٣ - ما يتعلق بمستقبل الحزبين : حزب الله وحزب الشيطان .

(مثال النوع الأول) ما جاء في بيان أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود ، وأن هذا القرآن قد ضمن الله حفظه وصيانته (كذلك يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ : فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) سورة الرعد^(١) (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) سورة إبراهيم^(٢) (إنا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون) سورة الحجر^(٣) أنعلم متى وأين صدرت هذه البشارات المؤكدة ، بل العهود الوثيقة ؟

إنها آيات مكية من سور مكية . وأنت قد تعرف ما أمر الدعوة المحمدية في مكة ؟ ... عشر سنوات كلها إغراض من قومه عن الاستماع لقرآنه ، وصدد لغيرهم عن الإصغاء له ، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت به ، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرته مدة غير يسيرة في شعب من شعاب مكة ، ثم مؤامرات سرية أو علنية على قتله أو نفيه . فهل للمرء أن يلمح في ثنايا هذا الليل الخالك الذي طوله عشرة أعوام ، شعاعاً ولو ضئيلاً من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين برفع صوته وإعلان دعوتهم ؟ ولو شام المصلح تلك البارقة من الأمل في جوانب نفسه من طبيعة دعوته ، لا في أفق الحوادث ، فهل يتفق له في مثل هذه الظروف أن يربو في نفسه الأمل حتى يصير حكماً قاطعاً ؟ وهبه امتلاً

(١) السورة ١٣ الآية ١٧

(٢) السورة ١٤ الآية ٢٤

(٣) السورة ١٥ الآية ٩

رجاء بظهور دعوته في حياته ما دام يتعهدا بنفسه ، فمن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة وحمايتها وسطاً أمواج المستقبل العاتية ؟ وكيف يهتبه اليقين في ذلك وهو يعلم من عبر الزمان ما يفت في عضد هذا اليقين ؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح فما لبثت أصواته أن ذهبت أهراج الرياح . وكم من مدينة قامت في التاريخ ثم عفت ودرست آثارها . وكم من نبي قتل . وكم من كتاب فقد أو انتقص أو بُدِّل .

وهل كان محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ممن تستخفه الآمال فهجرى مع الخيال ؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع في أن يكون نبياً يوحي إليه (وما كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) سورة القصص^(١) ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظاً لديه (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به لهاثاً ولا كيلاً . إلا رحمة من ربك ، إن فضلنا عليك كبيراً - سورة الإسراء^(٢))

فلا بد إذاً من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفسه . ومن ذا الذي يملك هذا الضمان على الدهر المتقلب المملوء بالمفاجآت ؟ إلا رب الدهر الذي زاده زمام الحوادث كلها ، والذي قدر مبدأها ومنتهاها ، وأحاط علماً بمجرها ومرساها . فلولا فضل الله ورحمته الموعود بهما في الآية الآتية لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التي أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن .

سل التاريخ : كم مرة تنكر الدهر لدول الإسلام وتسلط الفجار على المسلمين فأنخنوا فيهم القتل ، وأكروها أئماً منهم على الكفر ، وأحرقوا الكتب ، وهدموا المساجد ؛ وصنعوا ما كان يكفي القليل منه لضياح هذا

(١) السورة ٢٨ الآية ٨٦ .

(٢) السورة ١٧ الآية ٨٦ وما بعدها

القرآن كلاً أو بعضاً كما فعل بالكتب قبله ؛ لولا أن يد العناية تحرسه فبقي في وسط هذه المعامع رافعاً راياته وأعلامه . حافظاً آياته وأحكامه . بل اسأل صحف الأخبار اليومية : كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق في كل عام لمحو هذا القرآن وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . فيستنفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون) سورة الأنفال^(١) . ذلك بأن الذي يمسكه أن يزول هو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا .

ذلك بأن الله (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) سورة الصف^(٢) وسورة التوبة^(٣) والله بالغ أمره ، ومتم نوره ، فظهر وسيبقى ظاهراً لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله .

(ومثال آخر) ما جاء في التحدي بهذا القرآن وتعجيز العالم كله عن الإتيان بمثله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) سورة الإسراء^(٤) (فإن لم تفعلوا) سورة البقرة^(٥) .

فانظر هذا النفي المؤكد ، بل الحكم المؤبد ! هل يستطيع عربي يدري ما يقول أن يصدر هذا الحكم وهو يعلم أن مجال المساجلات بين العرب

مفتوح على مصراعيه ، وأن الناقد المتأخر متى أعمل الروية في تعقب قول القائل المتقدم لا يعبه أن يجد فيه فائتاً ليستدرك ؛ أو ناقصاً ليكمل ، أو كاملاً ليزداد كمالاً ؟ ألم يكن يخشى بهذا التحدي أن يثير حميتهم الأدبية فيهبوا لمنافسته وهم جميع حذرون ؟ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقبوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة ، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر ، فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم ، وهكذا ، حتى يخرجوا كلاماً إن لم يزه فلا أقل من أن يساميه ولو في بعض نواحيه ؟ ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة ، بل على الإنس والجن ؟ إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها رجل يعرف قدر نفسه إلا وهو مالى يديه من تصاريق القضاء ، وخبر السماء . وهكذا رماها بين أظهر العالم ، فكانت هي القضاء المبرم سُلط على العقول والأفواه ، فلم يهم بمعارضته إلا بلاء بالعجز الواضح ، والفشل الفاضح . على مرّ العصور والدهور .

(ومثال ثالث) تلك الآية التي يضمن الله بها لنبيه حماية شخصه والأمن على حياته حتى يبلغ رسالات ربه : (بأيتها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس) سورة المائدة^(١) .

إن هذا وأيم الله ضمان لا يملكه بشر ، ولو كان ملكاً عجيباً تسير الحفظة من بين يديه ومن خلفه . فكم رأينا ورأى الناس من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد الغيلة وهم في مواكبهم تحيط بهم الجنود والأعوان . ولكن انظر مبلغ ثقة الرسول بهذا الوعد الحق : روى الترمذي والحاكم عن عائشة ، وروى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال : كان النبي يُحرس

(١) السورة ٨ الآية ٣٦

(٢) السورة ٦١ الآية ٩

(٣) السورة ٩ الآية ٣٣

(٤) السورة ١٧ الآية ٨٨

(٥) السورة ٢ الآية ٢٤

بالليل ، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : « يأيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله » .

وحقاً لقد عصمه الله منهم في مواطن كثيرة كان خطر الموت فيها أقرب إليه من شراك نعله ، ولم يكن له فيها عاصم إلا الله وحده .

من ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة ، ورواه مسلم في صحيحه عن جابر قال : كنا اذا أتينا في سفرنا على شجرة ظلييلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم . فلما كنا بذات الرقاع نزل نبي الله تحت شجرة وعلّق سيفه فيها . فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أتخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : « الله يمنعني منك . ضع السيف » فوضعه . وحسبك أن تعلم أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف .

ومن أعظم الوقائع تصديقاً لهذا النبأ الحق ذلك الموقف المدهش الذي وقفه النبي في غزوة حنين ، منفرداً بين الأعداء ، وقد انكشف المسلمون وولوا مدبرين ، فطفق هو يركض بغلته إلى جهة العدو ، والعباس ابن عبد المطلب آخذ بلجامها يكفّها ارادة ألا تسرع فأقبل المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فلما غشوه لم يفر ولم ينكص بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه ، وجعل يقول : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه . فوالله ما نالوا منه نبلاً ، بل أيده الله بجنده ، وكف عنه أيديهم بيده . الحديث رواه الشيخان عن البراء ابن عازب . ورواه مسلم عن العباس وسلمة بن الأكوع ، ورواه أحمد وأصحاب السنن عن غيرهم هم أيضاً .

وهكذا أمتع الله به أمته فلم يقبضه إليه حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وحتى أنزل عليه قوله (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ،

ورضيت لكم الإسلام ديناً) سورة المائدة (١) .

(وإليك مثلاً من النوع الثاني)

كان القرآن في مكة يقص على المسلمين من أنباء الرسل ما يثبت فؤادهم ، ويعدّهم الأمن والنظر الذي كان لمن قبلهم (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) سورة الصافات (٢) (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) سورة غافر (٣) فلما هاجروا إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتن ظنوا أنهم قد وجدوا مأمنهم في مهاجرهم ، ولكنهم ما لبثوا أن هاجمتهم الحروب المسلحة من كل جانب ، فانتقلوا من خوف إلى خوف أشد . وأصبحت كل أمنيتههم أن يجيء يوم يضعون فيه أسلحتهم . وفي هذه الأوقات العصبية ينيبهم القرآن بما سيكون لهم من الخلافة والملك ، علاوة على الأمن والاطمئنان ، فما هذا ؟ أحلام وأماني ؟ لا ، بل وعد مؤكد بالقسم : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكننهم دينهم الذي ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) سورة النور (٤) . روى الحاكم وصححه عن أبي بن كعب قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة . وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا . أثرون أنّا نعيش حيث نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ فنزلت الآية . وروى ابن أبي حاتم عن البراء قال : نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد .

(١) السورة ٥ الآية ٣

(٢) السورة ٣٧ الآية ١٧١

(٣) السورة ٤٠ الآية ٥١

(٤) السورة ٢٤ الآية ٥٥

فانظر كيف جاء تأويلها على أوسع معانيها في عصر الصحابة أنفسهم الذين وقع لهم خطاب المشافهة في قوله (منكم) فبدّلوا من بعد خوفهم أمناً لا خوف فيه : واستخلفوا في أقطار الأرض فورثوا مشارقها ومغاربها . وتأمل قوله في هذه الآية (وعملوا الصالحات) وقوله في الآية الأخرى (وليتصرنّ الله من ينصره) - إن الله لقويّ عزيز الذين إن مكنتّاهم في الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) سورة الحج (١) تجد فيها نبأ آخر عن سر ما يبثي به المؤمنون أحياناً من انقاص أرضهم وتسلط أعدائهم عليهم (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليتها قلم أتى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم سورة آل عمران (٢) ذلك بأنّ الله لم يكُ مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) سورة الأنفال (٣) .

(ومثالاً آخر) :

منع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية . واشترطت عليهم قريش إذا جاءوها في العام المقبل أن يدخلوها عزلاً من كل سلاح إلا السيوف في القرب . فهل كان لهم أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بطلوا منهم نكث العهود وقطع الأرحام وانتهاك شعائر الله؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله؟ فماذا هم صانعون غداً؟ على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم ، ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ؟ وآية ذلك اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيوف في القرب ،

- (١) السورة ٢٢ الآية ٤٠ وما بعدها
(٢) السورة ٣ الآية ١٦٥
(٣) السورة ٨ الآية ٥٣

وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى أنهم لن ينالوهم بأيديهم ورماحهم ، ولكنه لا يأمنون معه أن ينالوهم بسهامهم ونبالهم - في هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة الدخول ، والأمن ، وقضاء الشعيرة (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) لتتدخلن المسجد الحرام إذا شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون (سورة الفتح (١) فدخلوها في عمرة القضاء آمنين ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم وقضوا مناسكهم .. الحديث أخرجه الشيخان .

(ومثالاً ثالثاً) : كان المشركون يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة ، يقولون لهم إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد غلبتهم المجوس . وأنتم ترعون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآية (ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) أول سورة الروم (٢)

لقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن في وقت معين إخباراً بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون . ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفي من دلائله أنها غرّبت في عقر دارها وهزمت في بلادها كما قال تعالى (في أدنى الأرض) ، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لما بعد ذلك قائمة ، فضلاً عن أن يحدّد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر . ولذلك كذّب به المشركين وتراهنوا على تكذيبه على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين ، بل عززهما بثالث ، حيث يقول (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه هاهنا نصر للمسلمين على المشركين . وإذا كان كل واحد من النصرين في حد ذاته مستبعداً عند الناس أشد الاستبعاد فكيف الظن بوقوعهما مقترنين

- (١) السورة ٤٨ الآية ٢٧
(٢) السورة ٣٠

في يوم؟ لذلك أكدّه أعظم التأكيد بقوله : (وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْتَلِفُ اللَّهُ وَعَدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

ولقد صدق الله وعده ، فتمت للروم الغلبة على الفرس ، بإجماع المؤرخين في أقلّ من تسع سنين^(١) . وكان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى ، كما رواه الترمذي عن أبي سعيد ، ورواه الطبري عن ابن عباس وغيره .

وهذه أمثلة من النوع الثالث :

استعصى أهل مكة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فدعا عليهم بسنين كسني يوسف . فانظر ما قاله القرآن في جواب هذا الدعاء (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ : هذا عذاب أليم) سورة الدخان^(٢) فماذا جرى؟ أصابهم القحط حتى أكلوا العظام ، وحتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . رواه البخاري عن ابن مسعود . ثم انظر قوله بعد ذلك (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ، إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ) تر فيها ثلاث نبوءات أخرى : كشف البؤس عنهم ، ثم عودتهم إلى مكرهم السيئ ، ثم الانتقام منهم بعد ذلك . وقد كان ذلك كله ما بينه الحديث الصحيح المذكور ، فإنهم لما جاءوا إلى رسول الله يستسقون وتضرعوا إلى الله : (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) سقاهم الله فأخصبوا ، ولكنهم سرعان

(١) رب قائل يقول : هلا حدد القرآن عدد السنين بلفظ أصرح من لفظ البضع المتراوح بين الثلاث والتسع ، أليس الله بأعلم بيوم النصر وساعته ، بله سنته ؟ فنقول : بلى ، ولكن الناس في اصطلاحهم الحساب لا يحرون على طريقة واحدة ، فمنهم من يحسب بالشمس ومنهم من يحسب بالقمر ، ومنهم من يكمل الكسور ومنهم من يلفيها . فكان مقتضى الحكمة التعبير باللفظ الصادق على كل تقدير ليكون أقطع لكل شبهة ، وأبعد عن كل جدل ومكابرة . ثم انه ربما تراخى الأمر بين بشائر النصر ووقائمه الفاصلة فيقع اختلاف الحاسبين في تعيين الوقت الذي يضاف إليه النصر والغلبة . ولذا حسن التعبير بلفظ (في بضع) دون أن يقال بعد بضع .

(٢) السورة ٤٤ الآية ١٠ وما بعدها .

ما عادوا إلى عتوهم واستكبارهم ، فبطش الله بهم البطشة الكبرى يوم بدر ، حيث قتل من صناديدهم سبعون ، وأسر سبعون .

وقد تكرر في القرآن المكي إنبأهم بهذا الانتقام على صور شتى :

فتارة يأتي مجملًا كما في قوله (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ) سورة الرعد^(١) وقوله (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ ، فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) سورة الصافات^(٢) .

وتارة يعين نوع العذاب بأنه الهزيمة الخربية كما في قوله (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) سورة القمر^(٣) . وهذا كما ترى من عجيب الأنباء في مكة . حيث لا مجال لأصل فكرة الحرب والتقاء الجموع ، فضلاً عن توقع فرارها وهزيمتها ، حتى إن عمر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية جعل يقول : أي جمع هذا؟ قال فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقولها . رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه . وعجزه في الصحيحين .

وتارة ينص على حوادث جزئية محددة منه — وهذا أعجب وأغرب — كما في قوله في شأن الرجل الزنيم^(٤) الذي كان يقول في القرآن إنه أساطير الأولين (سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرُطُومِ) سورة ن^(٥) فأصيب بالسيف في أنفه يوم بدر . وكان ذلك علامة له يعبّر بها ما عاش . رواه الطبري وغيره عن ابن عباس .

(١) السورة ١٣ الآية ٣١ (٢) السورة ٢٧ الآية ١٧٤ وما بعدها
(٣) السورة ٥٤ الآية ٤٥ ونحوها ما ورد في سورة المزمل وهي من أوائل ما نزل في مكة (علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله) ١٣ : ٢٠ .
(٤) المشهور أنه هو الوليد بن المغيرة الخزومي الذي نزل فيه (ذرتي ومن خلقت وحيداً) الآيات من سورة المدثر ٧٤ : ١١ .
(٥) السورة ٦٨ الآية ١٦

ونظير هذه الأنباء في كفّار قريش ما ورد في كفّار اليهود . انظر كيف يقول فيهم (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُكْثِرْكُمْ أَتُدْبِرُونَ لَأَنْتُمْ يَضُرُّوهُمْ) سورة آل عمران (١) وقد فعل . ثم يقول (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أُنْمَاقُهَا مِنَ اللَّهِ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَحِبَّ اللَّهَ وَالَّذِي يَحِبَّ اللَّهَ يَأْخُذْ بِالْأُذُنِ رَبِّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) سورة الأعراف (٢) .

فيا عجباً لهذه الآيات ! هل كانت مؤلفة من حروف وكلمات ؟ أم كانت أغلالاً وضعت في أعناقهم إلى الأبد ، وأصفاداً شددت بها أيديهم فلا فكاك ؟ ألا تراهم منذ صدرت عليهم هذه الأحكام أشتاتاً في كل واد ، أذلاء في كل ناد ، لم تقم لهم في عصر من العصور دولة ، ولم تجمعهم قط بلدة . وهم اليوم على الرغم من تضخم ثروتهم المالية إلى ما يقرب من نصف الثروة العالمية لا يزالون مشرّدين ممزّقين عاجزين عن أن يقيموا لأنفسهم دولة كأصغر الدويلات . بل تراهم في بلاد الغرب المسيحية يسامون أنواع الخسف والنكال ، ثم تكون عاقبتهم الجلاء عنها مطرودين . وبلاد الإسلام التي هي أرحب أرض الله صدرأ - إنما تقبلهم رعية محكومين لا سادة حاكمين .

وهل أذاك آخر أنبأهم ؟

لقد زينت الآن لهم أحلامهم أن يتخذوا من « الأرض المقدسة » وطناً قومياً تأوي اليه جالياتهم من أقطار الأرض ، حتى إذا ما تألف منهم هنالك شعب ملتئم الشمل وطال عليهم الأمد فلم يزعجهم أحد ، سعوا إلى رفع هذا العار التاريخي عنهم بإعادة ملكهم القديم في تلك البلاد . وعلى برق هذا الأمل أخذ أفواج منهم يهاجرون إليها زرافات ووحداناً ، وينزلون بها خفافاً أو

(١) السورة ٣ الآية ١١١ وما بعدها

(٢) السورة ٧ الآية ١٦٧

ثقلاً .. فهل استطاعوا أن يتقدموا هذه الخطوة الأولى - أو لعلها الأولى والأخيرة - مستندين إلى قوتهم الذاتية ؟ كلا . ولكن مستندين إلى (حبل من الناس ١١) فماذا تقول ؟ قل : صدق الله ، ومن أصدق من الله حديثاً . أما ظنهم الذي يظنون وهو أنهم بمزاحمتهم للسكان في أرضهم وديارهم يمهّدون لما يحلمون به من مزاحمتهم بعد في ملكهم وسلطانهم فذلك ما دونه خسر القناد . يريدون أن يبدلوا كلام الله ، ولا مبدل لكلماته (أم لهم نصيب من الملك ؟ فإذا لا يئوتون الناس نصيراً) سورة النساء (١) والله من ورائهم محيط .

فانظر إلى عجب شأن النبوءات القرآنية كيف تقتحم حجب المستقبل قريباً وبعيداً ، وتتحكم في طبيعة الحوادث توقيتاً وتأيداً ، وكيف يكون الدهر مصداقاً لما فيما قل وكثر ، وفيما قرب وبعد ؟

بل انظر إلى جملة ما في القرآن من النواحي الإخبارية كيف يتناول بها محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما وراء حسه وعقله من أنباء ما كان وما سيكون وما هو كائن ، وكيف أنه كلما حدثنا فيها عن الماضي صدقته شواهد التاريخ ، وكلما حدثنا عن المستقبل صدقته الليالي والأيام ، وكلما حدثنا عن الله وملائكته وشؤون غيبه صدقته الأنبياء والكتب .

ثم اسأل نفسك بعد ذلك « أترين هذا الرجل الأمي جاء بهذا الحديث كله من عند نفسه ؟ » .

تسمع منها جواب البديهة الذي لا تردد فيه « إنه لا بد أن يكون قد استقى هذه الأنباء من مصدر علمي وثيق واعتمد فيها على اطلاع واسع ودرس دقيق . ولا يمكن أن تكون تلك الأنباء كلها وليدة عقله وثمره ذكائه وعبقريته » وإلا فأين هذا الذكي أو العبقري الذي أعطاه الدهر عهداً بأن

يكون عاصماً لظنونهم كلها من الخطأ في كشف وقائع الماضي مهما قدّم ،
وأنبأ المستقبل مهما بعد ؟

إن الأنبياء أنفسهم - وهم في الطبقة العليا من الذكاء والفطنة بشهادة الكافة - لم يظفروا من الدهر بهذا العهد في أقرب الحوادث إليهم فقد كانوا فيما عدا تبليغ الوحي إذا اجتهدوا رأيهم فيما غاب عن مجلسهم أصابت فراستهم حيناً وأخطأت حيناً. هذا يعقوب عليه السلام نراه يتهم بنيه حين جاءوا على قميصه بدم كذب ، ثم يعود فيتهمهم حين قالوا له إن ابنك سرق ، فيقول لهم في كل مرة (بل سَوَّلْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً . فصبرٌ جميل) سورة يوسف^(١) وقد أصاب في الأولى ولكنه في الثانية اتهمهم وهم برّاء وهذا موسى عليه السلام نراه يقول للعبد الصالح (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً) سورة الكهف^(٢) ثم ينسى فلا يطيق معه صبراً ولا يطيع له أمراً .

وهذا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان ربما همّ الناس أن يضلّوه في الأحكام ، فيدافع عن المجرم ظناً أنه بريء ، حتى ينبتة العليم الخبير .
فلن كنت في شك من ذلك فافقرأ قوله تعالى (وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِثِينَ خَصِيماً ، واستغفر الله ، إِنْ اللَّهَ كَانَ غَفوراً رحيماً) الآيات من سورة النساء^(٣) وقد صح في سبب نزولها أن لصاً عدا ذات ليلة على مشربة لرجل من الأنصار يقال له رفاعه ، فنقب مشربته وسرق ما فيها من طعام وسلاح . فلما أصبح لأنصاري افتقد متاعه حتى أيقن أنه في بيت بني أبيرق وكان فيهم منافقون ، افبعث ابن أخيه إلى النبي يشكو إليه . فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « سَأَنْظُرُ فِي ذَلِكَ » . فلما سمع بذلك بنو أبيرق جاؤوا إلى النبي فقالوا :

يا رسول الله ، إن قتادة بن النعمان وعمّه رفاعه عمداً إلى أهل بيت منا أهل لإسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبوت . فجاء قتادة فقلل له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : يا قتادة « عَمَدْتُ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلَحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرْقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَبَيْنَةٍ ! » فراجع قتادة إلى عمه فأخبره ، فقال عمه : الله المستعان . ثم لم تلبث أن نزلت الآية تبين للنبي خيانة بني أبيرق ، وتأمره بالاستغفار مما قال لقتادة . الحديث رواه الترمذي ، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم .

بل اسمع قوله صلى الله عليه وآله وسلم عن نفسه فيما يرويه أحمد وابن ماجه : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَإِنِ الظَّنُّ يَظُنُّهُ وَيَصِيبُ . وَلَكِنْ مَا قُلْتُ لَكُمْ (قَالَ اللَّهُ) فَلَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ » وقوله « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ . وَإِنْكُمْ تُخْتَصِمُونَ إِلَيَّ » . ففعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار . فليأخذها أو ليتركها » رواه مالك والشيخان وأصحاب السنن . فمن كان هكذا عاجزاً بنفسه عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين في زمنه وفي بلده وقد رأى أشخاصهما وسمع أقوالهما هو بلا شك أشدّ عاجزاً عن إدراك ما فات وما هو آت .

تلك هي شقة الغيب تنطفئ عندها مصابيح الفراسة والذكاء ، فلا يدنو العقل منها إلا وهو حاطب ليل وخابط عشواء : إن أصاب الحق مرة أخطأه مرات ، وإن أصابه مرات أخطأه عشرات . على أن الذي يصادفه من الصواب لا يمكن الوثوق ببقائه معصوماً من التغير والتبدل بل عسى أن تذهب به ريح المصادفة كما جاءت به ريح المصادفة (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) سورة النساء^(٤) .

• • •

(١) السورة ٤ الآية ٨٢

(١) السورة ١٢ الآية ١٨ والآية ٨٣

(٢) السورة ١٨ الآية ٦٩

(٣) السورة ٤ الآيات من ١٠٥ إلى ١١٣

لا مناص إذاً للباحث عن مصدر القرآن من توسيع دائرة بحثه فإذا لم يظفر بمطلبه عند صاحب القرآن في ناحية عقله وفراسته ، وجب أن يلتزمه - وأن يظفر به حتماً - في ناحية تعليمه ودراسته ؛ لأن المتكلم بكلام ما لا يعدو أن يكون قائلًا له أو ناقلًا . ولا ثالث لهما .

نعم إن صاحب هذا القرآن لم يكن ممن يرجع بنفسه إلى كتب العلم ودواوينه ، لأنه باعتراف الخصوم كما ولد أمياً نشأ أمياً وعاش أمياً فما كان يوماً من الأيام يتلو كتاباً في قرطاس ولا يخطه يمينه . فلا بد له من معلم يكون قد وقفه على هذه المعاني لا بطريق الكتابة والتدوين بل بطريق الإملاء والتلقين . هذا هو حكم المنطق .

ستقول : فمن هو ذلك المعلم ؟

نقول : هذا هو الشطر الثاني من مسألة القرآن .

وأنت إذا تأملت فيما سقناه لك من البراهين على الشطر الأول وجدت بجانب كل منها برهاناً آخر على هذا الشطر الثاني وعرفت من هو ذلك المعلم ؟ غير أننا نحب أن نزيدك به معرفة حتى تقول معنا فيه : « ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ، مبلغ عن رب العالمين » .

• • •

أما أن محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يكن له معلم من قومه الأميين فذلك ما لا شبهة فيه لأحد ، ولا نحسب أحداً في حاجة إلى الاستدلال عليه بأكثر من اسم « الأمية » الذي يشهد عليهم بأنهم كانوا خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون من أمر الدين شيئاً . وكذلك اسم « الجاهلية » الذي كان أخص الألقاب بعصر العرب قبل الإسلام . فهؤلاء الذين فقدوا أساس هذا العلم في أنفسهم حتى اشتق لهم من الجهل اسم ، كيف يحملون وسام التعليم فيه لغيرهم ، بله التعليم لمعلمهم الذي وسهم بالجهل غير مرة في كتابه ، وسرد جهالاتهم في غير سورة من هذا الكتاب ، حتى قيل : إذا

سرتك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما بعد المائة من سورة الأنعام .

وأما أنه لم يكن له معلم من غيرهم فحسب الباحث فيه أن نخيله على التاريخ وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث . والإسلامي منه والعالمي ، ثم نسأله هل قرأ فيه سطرأ واحداً يقول إن محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب لقي قبل إعلان نبوته فلاناً من العلماء فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين ، ومن قصصه عن الأولين والآخرين ؟

ليس علينا نحن أن نقيم برهاناً أكبر من هذا التحدي لإثبات أن ذلك لم يكن ، وإنما على الذين يزعمون غير ذلك أن يثبتوا أن ذلك قد كان . فإن كان عندهم علم فليخرجوه لنا إن كانوا صادقين

لا نقول إنه عليه السلام لم يلق ولم ير بعينه أحداً من علماء هذا الشأن لا قبل دعوى النبوة ولا بعدها . فنحن قد نعرف أنه رأى في طفولته راهباً اسمه بَحِيرَاء في سوق بُصْرَى بالشام ، وأنه لقي في مكة نفسها عالماً اسمه ورقة بن نوفل ، وكان هذا على إثر مجيء الوحي العلي له وقبل إعلان نبوته بثلاثين شهراً . كما نعرف أنه لقي بعد إعلان نبوته كثيراً من علماء اليهود والنصارى في المدينة . ولكننا ندعى دعوى محدودة ، نقول : إنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء العلماء لا قبل ولا بعد ، وإنه قبل نبوته لم يسمع منهم شيئاً من هذه الأحاديث ألبتة .

أما الذين لقوه بعد النبوة فقد سمع منهم وسمعوا منه . ولكنهم كانوا له سائلين وعنه آخذين ، وكان هو لهم معلماً وواعظاً ومنظراً ومبشراً .

وأما الذين رأهم قبل فإن أمر لقائه إياهم لم يكن سرّاً مستوراً ، بل كان معه في كل مرة شاهد : فكان عمه أبو طالب رفيقاً له حين رأى راهب الشام ، وكانت زوجته خديجة رفيقة له حين لقي ورقة . فماذا سمعه هذان الرفيقان من علوم الأستاذين ؟ هلا حدثنا التاريخ بخبر ما جرى ؟ وما له لا يحدثنا هذا

الحديث العَجَب الذي جمع في تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن وتفاصيل أخباره فيما بين بداية العالم ونهايته ! ولماذا لم يتخذ خصومه من هذه الحجة الواضحة سلاحاً قاطعاً لحجته مع شدة سعيهم في هدم دعواه ، والتجأهم لأوهن الشبهات في تكذيبه ، وقد كان هذا السلاح أقرب إليهم ، وكان وحده أمضى في إبطال أمره من كل ما لجئوا إليه من مهاترة ومكابرة .

إن سكوت التاريخ عن ذلك كله حجة كافية على عدم وجوده ؛ لأنه ليس من المهتات الهيئات التي يتغاضى عنها الناس الواقفون لهذا الأمر بالمرصاد .

على أن التاريخ لم يسكت ، بل نبأنا بما كان من أمر الرجلين : فقد حدثنا عن راهب الشام أنه لما رأى هذا الغلام رأى فيه من سيما النبوة الأخيرة وحليتها في الكتب الماضية ما أنطقه بتبشير عمه قائلاً : إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم . وحدثنا عن ورقة أنه لما سمع ما قصه عليه النبي من صفة الوحي وجد فيها من خصائص الناموس الذي نزل على موسى ما جعله يعترف بنبوته ويتمنى أن يعيش حتى يكون من أنصاره .

فمن عرف للتاريخ حرمة وآمن بوقائعه كما هي كانت هذه الوقائع حجة لنا عليه . ومن لم يستحي أن يزيد في التاريخ حرفاً من عنده فيقول إن محمداً ضم السماع إلى اللقاء فليتنقوله ما يشاء ، وليعلم أنه سوف يُخرج لنا بهذه الزيادة تاريخاً متناقضاً يكذب أوله وآخره ، وآخره أوله ؛ إذ كيف يعقل أن رجلاً رأى علامات النبوة في امرئ فبشره بها قبل وقوعها ، أو آمن بها بعد وقوعها ، تطاوعه نفسه أن يقف من صاحب هذه النبوة موقف المرشد المعلم ! فأين يذهبون ؟ !

على أننا نعود فنسأل : هل كان في العلماء يومئذ من يصلح أن تكون له على محمد وقرآنه تلك اليد العلمية ؟

يقول الملحدون أنفسهم : « إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي

يمثل روح عصره أصدق تمثيل » . وهذه كلمة حق في حدود معناها الصحيح^(١) فنحن نأخذهم باعترافهم وندعوهم إلى استجلاء تلك الصورة التي حفظها القرآن في مرآته الناصعة مثلاً واضحاً لعلماء عصره . فليقرعوا الزهراوين البقرة وآل عمران وما فيهما من المحاوراة لعلماء اليهود والنصارى في العقائد والتواريخ والأحكام . أو ليقرعوا ما شاعوا من السور المدنية أو المكية التي فيها ذكر أهل الكتاب ، ولينظروا بأي لسان يتكلم عنهم القرآن ، وكيف يصور لنا علومهم بأنها الجهالات ، وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات .

فإن أنت أحببت زيادة البيان فإليك نموذجاً من وصفه وتفنيد لأغلاطهم ومغالطاتهم التاريخية (يأهل الكتاب لم تُحاجّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ أفلا تعقلون ؟) الآيات من سورة آل عمران^(٢) (أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟) سورة البقرة^(٣) (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) سورة آل عمران^(٤) (كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم لإسرائيل على نفسه) سورة آل عمران^(٥) .

وهذا طرف من وصفه وتفنيد لخرافاتهم الدينية (وما مسنا من لغوب) سورة ق^(٦) (وما كفر سليمان) سورة البقرة^(٧) (لقد سمع

(١) وهو أنه يمثلها ولا يمثلها. وإن شئت فقل إنه يمثلها أصدق تمثيل، ثم يمثل بها أنكى تمثيل

(٢) السورة ٣ الآية ٦٥ وما بعدها .

(٣) السورة ٢ الآية ١٤٠

(٤) السورة ٣ الآية ٩٦ وهي جواب عن قولهم قبلتنا قبل قبلكم

(٥) السورة ٣ الآية ٩٣ وهي رد لدعواهم إن الإبل كانت محرمة على إبراهيم

(٦) السورة ٥٠ الآية ٣٨ وهي تكذيب لقولهم إن الله بعد أن خلق الخلق في ستة أيام

استراح في اليوم السابع

(٧) السورة ٢ الآية ١٠٢ وهي تبرئة له من زعمهم أنه لم يكن نبياً بل كان ساحراً يركب الريح .

اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالَ إِنْ أَلَّهِ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) سورة آل عمران^(١) (وقالت اليهودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) سورة المائدة^(٢) (وقالت اليهودُ عِزِّيْرُ ابْنِ اللَّهِ . وقالت النصارى المسيحُ ابنُ اللَّهِ) سورة التوبة^(٣) (وقالت اليهودُ والنصارى نحنُ أبناءُ اللَّهِ وأحبَّاءُهُ - لقد كَفَرَ الَّذِينَ قالوا إِنْ أَلَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالوا إِنْ أَلَّهُ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ) سورة المائدة^(٤) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) سورة آل عمران^(٥) فانظر كيف صور القرآن عقيدة علماء الدين في زمنه ولا سيما علماء النصارى فقد كان طابع الشرك في ديانتهم لا يخفى على أحد ، حتى إن الأميين فطنوا له فاتخذوا منه عزاءً لهم في شركهم (ولما ضُربَ ابنُ مَرْيَمَ مثلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وقالوا أَأَلْهَيْنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟) سورة الزخرف^(٦) بل اتخذوا منه حجة على أن التوحيد الذي دعاهم اليه القرآن بدع في الدين لم يسبق إليه فقالوا (ما سَمِعْنَا بهذا في الْمِلَّةِ الْأَخْرَى) سورة ص^(٧) يعنون ملة النصارى . وهذه سلسلة أخرى من جرائمهم يسردها القرآن متواصلة الحلقات (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ . إِنْ أَنْ قَالَ : وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ، وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ - إِنْ أَنْ قَالَ : - وَبَصَدَّاهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا

(١) السورة ٣ الآية ١٨١

(٢) السورة ٥ الآية ٦٤

(٣) السورة ٩ الآية ٣٠

(٤) السورة ٥ الآيات ١٨ و ٧٢ و ٧٣

(٥) السورة ٣ الآية ٦٤

(٦) السورة ٤٣ الآية ٥٧

(٧) السورة ٣٨ الآية ٧

وقد تُهَوِّا عنه ، وأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطِيلِ) سورة النساء^(٨)

فهل ترى في هذا كله صورة أساتذة يتلقى عنهم صاحب القرآن علومه ؟ أم بالعكس ترى منه معلماً يصحح لهم أغلاطهم وينعَى عليهم سوء حالهم .

لا ننكر أنه كان في أهل الكتاب قليل من العلماء الراسخين . لكن الراسخون في العلم منهم آمنوا بالقرآن وبني القرآن (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) آخر سورة الرعد^(٩) فلو كانوا له معلمين لآمنوا بأنفسهم بدل أن يؤمنوا به .

ولنعد مرة أخرى فنسأل : هل كان علم العلماء يومئذ مبدولاً لطالبه مباحاً لسائله ؟ أم كان حرصهم على هذا العلم أشد من حرصهم على حياتهم ، وكانوا يضمنون به حتى على أبنائهم استبقاء لرياستهم أو طمعاً في منصب النبوة الذي كانوا يستشرفون له في ذلك العصر ؟

لنستطق القرآن الذي رضىه الملحدون حكماً بيننا وبينهم ، فإنه يكفيننا موثقة الجواب عن هذا السؤال . وها هو ذا يقول لنا : إنهم كانوا في سبيل الضن يكتبهم وعلومهم لا يتورعون عن منكر ، فكانوا تارة (يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) سورة البقرة^(١٠) وتارة (يَلُوكُونَ آلَسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) سورة آل عمران^(١١) وتارة (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) سورة المائدة^(١٢) وتارة يبترون الكتب فيظهرون بعضها ويخفون بعضها (قُلْ مَنْ

(١) السورة ٤ الآيات من ١٥٥ إلى ١٦١

(٢) السورة ١٣

(٣) السورة ٢ الآية ٧٩

(٤) السورة ٣ الآية ٧٨

(٥) السورة ٥ الآية ١٢

أَنْزَلَ الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً وهُدًى للناسِ ، تجعلونه قراطيس تُبدونها ، وتخفون كثيراً (١) سورة الأنعام (١) وتارة يحتاجون بمحفوظهم فإذا قيل لهم (فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) سورة آل عمران (٢) بهتوا فلم يجيبوا . وربما جاءوا بها فقرعوا ما قبل الشاهد وما بعده وسرّوا بكفهم مكان النص المجادل فيه ، كما وقع في قصة الرجم . انظر صحيح البخاري في تفسير الآية الآتفة .

فجاء القرآن يرميهم علناً باللبس والكتمان (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) سورة آل عمران (٣) بل جاء كاشفاً لما سرّوه مبيناً لما كتموه حاكماً فيما اختلفوا فيه (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب) سورة المائدة (٤) . (إن هذا القرآن يفضّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) سورة النمل (٥) (تالله لقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فزَيّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم فهو وليّهم اليوم ، ولهم عذابٌ أليمٌ ، وما أنزلنا عليك الكتاب إلا ليتبينَ لهم الذي اختلفوا فيه) سورة النحل (٦) .

أنظر إلى هذه الآيات من سورتي النحل والنمل المكيّتين كيف جعلت من مقاصد القرآن الأساسية بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب بل جعلته أوّل تلك المقاصد حيث بدأت به ، وثنت بالهدى والرحمة للمؤمنين .

ونعود للمرة الثالثة فنقول لمن يزعم أن محمداً كان يعلمه بشر : قل لنا

(١) السورة ٦ الآية ٩١

(٢) السورة ٣ الآية ٩٣

(٣) السورة ٣ الآية ٧١

(٤) السورة ٥ الآية ١٥

(٥) السورة ٢٧ الآية ٧٦

(٦) السورة ١٦ الآية ٦٣ وما بعدها

ما اسم هذا المعلم ! ومن ذا الذي رآه وسمعه ؟ وماذا سمع منه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ؟ فإن كلمة « البشر » تصف لنا هذا العالم الذين يمشون على الأرض مطمئنين ، ويراهم الناس غادين ورائحين . فلا تسمع دعواها بلون تحديد وتعين . بل يكون مثل مدعيها كمثل الذين يخلقون لله شركاء لا وجود لهم إلا في الخيال والوهم . فيقال له كما قيل لهم (قل سمّوهم . أم تُنبئونه بما لا يعلم في الأرض ، أم بظاهير من القول) سورة الرعد (١) .

بل نقول هل ولد هذا النبي في المريخ ، أو نشأ في مكان قصي عن العالم ، فلم يهبط على قومه إلا بعد أن بلغ أشده واستوى ، ثم كانوا بعد ذلك لا يرونه إلا لماماً ؟ ألم يولد في حجورهم ؟ ألم يكن يمشي بين أظهرهم يصبّحهم ويمسيهم ؟ ألم يكونوا يرونه بأعينهم في حله ورحيله ؟ (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) سورة المؤمنون (٢) .

نعم إن قومه قد طوّعت لهم أنفسهم أن يقولوا هذه الكلمة (إنما يعلمه بشر) سورة النحل (٣) ولكن هل تراهم كانوا في هذه الكلمة جادين ، وكانوا يشيرون بها إلى بشر حقيقي عرفوا له تلك المنزلة العلمية ؟ كلا إنهم ما كان يعينهم أن يكونوا جادين محقّين . وإنما كان كل همهم أن يدرعوا عن أنفسهم معرفة السكوت والإفحام ، بأي صورة تتفق لهم من صور الكلام : بالصدق أو بالكذب ، بالجد أو باللعب

وما أدراك من هو ذلك البشر الذي قالوا إنه يعلمه ؟

أنحسب أنهم اجترأوا أن ينسبوا هذا التعليم لواحد منهم ؟ كلا فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلاً من أن يعلموا رجلاً جاءهم بما لم يعرفوا هم ولا آباؤهم .

(١) السورة ١٣ الآية ٣٣

(٢) السورة ٢٣ الآية ٦٩

(٣) السورة ١٦ الآية ١٠٣

أم تحسب أنهم لما وجدوا أرض مكة مقفرة من علماء الدين والتاريخ في عهد البعثة المحمدية عمدوا إلى رجل من أولئك العلماء في المدينة أو في الشام أو غيرهما ففسبوا ذلك التعليم إليه ؟ كلا إن ألسنتهم لم تطاوعهم على النطق بهذه الكلمة أيضاً

فمن ذا إماماً لا .. ؟

لقد وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصاً يتحقق فيه شرطان : أحدهما أن يكون من سكان مكة نفسها لتروج عنهم دعوى أنه يلاقيه ويحلى عليه بكرة وأصيلاً . وثانيهما أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ليتمكن أن يقال إن عنده علم ما لم يعلموا . وقد التمسوا هذه الأوصاف فوجدوها ، أتدري أين وجدوها ؟ .. في حداد رومي !!

نعم وجدوا في مكة غلاماً تعرفه الخوانيت والأسواق ، ولا تعرفه تلك العلوم في قليل ولا كثير . غير أنه لم يكن أمياً ولا وثنيّاً مثلهم ، بل كان نصرانياً يقرأ ويكتب . فكان من أجل ذلك خليقاً في زعمهم أن يكون أستاذاً لمحمد ، وبالتالي أستاذاً لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمعين ، ولست سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغاً للدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دجيلها ، ورد متشابهاً إلى محكمها ، وهل كان مزوداً في عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهم ... لعرفت أنه كان حداداً منهمكاً في مطرقة وسندانه ، وأنه كان عامي الفؤاد لا يعلم الكتاب إلا أماني ، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ولا أحد من قومه . لكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقب الأستاذية الذي منحوه إياه على رغم أنف الحاسدين !

هكذا ضاقت بهم دائرة الجلد فما وسعهم إلا فضاء الهزل . وهكذا أمعنوا في هزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل ، فكان مثلهم كمثلي من يقول : إن العلم يستقى من الجهل ، وإن الإنسان يتعلم كلامه من البيغاء ! وكفى بهذا هزيمة وفضيحة لقائله (لسانُ الذي يلحدون إليه أعجمي . وهذا

لسانُ عربي مبين) سورة النحل (١) .

نعم إنهم رأوا في هذا الأسلوب من حلاوة الفكاهة والملحة ما يسبغ مرارة الزور والباطل . ورأوا في هذه الصورة الخيالية من التهكم والسخرية ما يشفي صدورهم ويجعلهم يتضحكون بملء أفواههم ، ولكنهم ما دروا أن في طي هذه السخرية سخرية بهم ، وأنهم قد شهدوا فيها على أنفسهم أنهم أجهل الأمم ، وأن كل غريب عنهم - ولو كان غلاماً سوقياً - أهل لأن يقال عنه إن عنده من العلم ما ليس عندهم . فيا له من نطق كان العمى في موضعه خيراً لهم وأستر عليهم ، وباله من سلاح أرادوا أن يجرحوا به خصمهم فجرحوا به أنفسهم من حيث لا يشعرون .

أما الحق الذي كانوا يخاصمونهم فقد والله زادوه بهذا الاتهام قوة إلى قوته . ذلك أنهم حين خرجوا يلتمسون واحداً من البشر يمكن أن ينسب إليه هذا العلم المحمدي لم يستطيعوا أن يفترضوا له مصدراً تعليمياً خارج حدود قريته ، بل كان آخر جهد بذلوه من حيلتهم وآخر سهم رموه من كنانتهم أن جاءوا من بين ظهرانيهم بهذا الغلام الذي عرفت خبره . فباليت شعري لو كان لهذا الغلام أن يكون مرجعاً علمياً كما أرادوا أن يصفوه فما الذي منعهم أن يأخذوا عنه كما أخذ صاحبهم ؟ وبذلك كانوا يستريحون من عنائه ويدأبونه من جنس دائه ، بل ما منع ذلك الغلام أن يبدي للعالم صفحته فينال في التاريخ شرف الأستاذية ، أو يتولى بنفسه تلك القيادة العالمية ؟ وباليت شعري لماذا لم ينسبوا تلك العلوم الغريبة عنهم إلى أهلها الموسومين بها من الربانيين والأخبار في المدينة أو من القسيسين والرهبان في الشام ، أولئك الذين قضوا أعمارهم في دراستها وتعليمها ؟ أليس ذلك - لو كان ممكناً أو شبيهاً بالممكن - كان هو أحسن تليقاً وأجود سبكاً وأدنى إلى الرواج

(١) السورة ١٦ الآية ١٠٣ وما بعدها

وأبعد عن الإحالة من نسبتها إلى حدّاد مكة ؟ أم ضاقت بهم الأرض فلم يجدوا أحداً أمثل منه ولا أعلم بالدين والتاريخ ؟ تالله لولا أنهم وجدوا باب التعليم الخارجي أمتع سدّاً من سائر الأبواب وأدخل منها في معنى المكابرة التي لا تروج لما ضيقوا على أنفسهم دائرة الاتهام حتى تورطوا في هذا المحال المكشوف واقتضحوا بهذه المقالة الشوها .

هؤلاء قوم محمد صلى الله عليه وسلم وهم كانوا أحرص الناس على خصوصته ، وأدرى الناس بأسفاره ورحلاته ، وأحصاهم لحركاته وسكناته ، قد عجزوا كما ترى أن يعقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم في عصره . فما للملحدين اليوم وقد مضى نيف وثلاثة عشر قرناً انقضت فيها سوق الحوادث ، وجفت الأقلام ، وطويت الصحف ، لا يزالون يبحثون عن تلك الصلة في قمامات التاريخ ، وفي الناحية التي أنف قومه أن ينشوها ؟

ألا فليريحوا أنفسهم من عناء البحث ، فقد كفتهم قريش مؤونته . وليشتغلوا بغير هذه الناحية التي قضى التاريخ والمنطق على كل محاولة فيها بالفشل . فإن أبوا فليعلموا أن كل شبهة تقام في وجه الحق الواضح سيحيلها الحق حجة لنفسه يضمها إلى حججه وبيّناته .

ونعود رابعاً وأخيراً فنقول : لو كانت « نسبة هذه العلوم القرآنية إلى تعليم البشر » من الدعاوى التي تعبّر عن فكرة أو شبهة قائمة بنفس صاحبها لوقف عندها الطاعنون ولم يجاوزوها . ذلك لأن العقل إذا خلّص نفسه في تحليل تلك المفارقة الكلية بين ماضي الحياة المحمدية وحاضرها - أعني ما قبل النبوة وما بعدها - لم يسهه إلا الحكم بأن هذا العلم الجديد وليد تعليم جديد . وإذا لا عهد للناس بمعلّمين في الأرض من غير البشر كان أول ما يخطر بالبال أن هنالك إنساناً تولى هذا التعليم فلو وجد الطاعن أدنى توكّاة من عوامل واقعية أو ممكنة تجعل له شيئاً من الاقتناع بهذا التعليل فيما بينه وبين نفسه لما رضي به بديلاً ولما عدل عنه إلى تعليل آخر أبشأ كان . لكن

هؤلاء الطاعنين ما فتثوا منذ نزل القرآن إلى يومنا هذا حائرين في نسب هذا القرآن ، لا يدرون أينسبون به إلى تعليم البشر كما سمعنا آنفاً ، أم يرجعون به إلى نفس صاحبه كما سمعنا من قبل ، أم يجمعون له بين النسبتين فيقولون لصاحبه إنه « معلّم » « مجنون » كما جاء في سورة الدخان^(١) .

ومن تتبّع أنواع المجادلات التي حكّاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دوراناً على ألسنتهم ، وأن أكثرها وروداً في جذلمهم هي نسبته إلى نفس^(٢) صاحبه ، على اضطرابهم

(١) السورة ٤٤ الآية ١٤

(٢) وهذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم « الوحي النفسي » زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاؤوا برأي علمي جديد ، وما هو جديد ، وإنما هو الرأي الجاهلي القديم ، لا يختلف عنه في جملة ولا في تفصيله . فقد صوروا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذا شاعر . ثم زادوا فجعلوا وجدانه يملأ كثيراً على حواسه حتى يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصاً يكلمه . وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته فهو إذا الجنون أو أضغاث الأحلام . على أنهم لم يطبقوا الثبات طويلاً على هذه التعليلات ، فقد اضطروا أن يهجروا كلمة « الوحي النفسي » حيناً بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلية ، فقالوا لعله تلقفها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة فهو إذا قدس علمه بشر . فأني جديد ترى في هذا كله ؟ أليس كله حديثاً معاداً يضايقون به قول جهال قريش ؟ وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة منسوخة بل منسوخة منه في أقدم أنوابه ، وكان غداء هذه الأفكار المتحضرة في العصر الحديث مستمداً من فئات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم) .

وإن تعجب فمعجب قولهم مع هذا كله انه كان صادقاً أميناً . وأنه كان معذوراً في نسبة رؤاه إلى الوحي الإلهي لأن أحلامه القوية صورتها له وحياً إلهياً ، فما شهد إلا بما علم . وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يصدون) سورة الأنعام ٦ : ٣٣ فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه وسماعه فما عذره في دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأنباء لا هو ولا قومه من قبل هذا ، بينما هو قد سمعها يزعمهم من قبل ؟ فليقولوا إذا أنه افتراء لم يتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل . ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدعون الإنصاف والتعقل . ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون .

في تحديد تلك الحال النفسية التي صدر عنها القرآن : أشعر هي ، أم جنون ، أم أضغاث أحلام ...

فانظر : كم قلبوا من وجوه الرأي في هذه المسألة ؟ حتى إنهم لم يقفوا عند الحدود التي يمكن افتراضها في كلام رصين كالقرآن ، وفي عقل رصين كعقل صاحبه ، بل ذهبوا إلى أبعد الأحوال النفسية التي يمكن أن يصدر عنها كلام العقلاء والمجانين .. إن ذلك لمن أوضح الأدلة على أنهم لم يكونوا يشيرون بهذا الوجه أو ذاك إلى تهمة محققة لها مثار في الخارج أو في اعتقادهم ، وإنما أرادوا أن يُدُلُّوا بكل الفروض والتقادير مغمضين على ما فيها من محال وناب ونافر ، ليُشيروا بها غباراً من الأوهام في عيون المتطلعين إلى ضوء الحقيقة ، وليلقوا بها أشواكاً من الشك في طريق السائرين إلى روض اليقين.

ولقد نعلم أنهم كانوا في قرارة أنفسهم غير مطمئنين إلى رأي صالح يرضونه من بين تلك الآراء ، وأنهم كانوا كلِّما وضعوا يدهم على رأي منها وأرادوا أن ينسجوا منه للقرآن ثوباً وجدوه نايباً عنه في ذوقهم ، غير صالح لأن يكون لبوساً له ، فيفزعون من فورهم إلى تجربة رأي ثان ، فإذا هو ليس بأمثل قياساً مما رفضوه ، فيعمدون إلى تجربة ثالثة ... وهكذا دواليك ما يستقرون على حال من القلق . فإن شئت أن تطلع على هذه الصورة المضحكة من البلبلة الجدلية فاقراً وصفها في القرآن : (بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر) سورة الأنبياء^(١) فهذه الجملة القصيرة تمثل لك بما فيها من توالى حروف الإضراب مقدار ما أصابهم من الحيرة والاضطراب في رأيهم ، وتُريك من خلالها صورة شاهد الزور إذا شعر بخرج موقفه : كيف يتقلب ذات اليمين وذات الشمال . وكيف تتفرق به السبل في تصحيح ما يحاوله من محال (انظُرْ كيف ضربوا لك الأمثال

ففضلوا فلا يستطيعون سبيلاً) سورة الإسراء^(٢) وسورة الفرقان^(٣) .

• • •

والآن - وقد جاوزنا بك هاتين المرحلتين من البحث ، وأريناك أنه لا يوجد للقرآن مصدر إنساني ، لا في نفس صاحبه ولا عند أحد من البشر ، وأن كل من حاول أن يجعل هذا القرآن « عملاً إنسانياً » أعياه أمره ، وأقام الحجة على فشله باضطرابه ولجأته . وإحالاته ومكابرتة - فقد وجب علينا أن نتنقل إلى المرحلة الثالثة لنبحث عن ذلك المصدر في أفق خارج عن هذا الأفق الإنساني جملة ، وألا نقف بالقرآن حيث وقف به الملحدون قديماً وحديثاً مذبذبين فيه بين هذين الطرفين يأخذون بأحدهما تارة ، وبالثاني تارة ، وبهما مجتمعين تارة أخرى ، منتقلين هكذا من فاسد إلى فاسد ، إلى مركب منهما أشد فساداً من كليهما . كلا ، فإن العقل يقضي علينا أن نبطل ما أبطله البرهان غير مكابرين ، وأن نتابعه في سيره حتى نصل إلى الحق المبين .

أما هؤلاء الملحدون فإنهم ما قعد بهم عن متابعة البحث - زعموا - إلا رعايتهم لحرمة السنن الكونية ، وحفاظتهم على الأسباب العادية التي يصدر عنها كلام الناس في معقولهم ومنقولهم ؛ فقد أبى عليهم وفاؤهم لهذه العلوم الطبيعية أن يقتحموا حدودها ويخرجوا إلى التماس شيء لا تناله أعينهم ، ولم يجربوا مثاله في أنفسهم ، وأنت قد عرفت أن هذا الذي ظنوه وفاءً بطبيعة الأشياء قد انقلب بهم إلى ضده ؛ إذ خرقوا في سبيله السياج الطبيعي للعقل الإنساني وللواقع التاريخي ، فجمعوا المتناقضات وغيروا معالم التاريخ ، وأرهموا طبائع الأشياء فحملوها ما لا تطيق . فأى عاقل يرضى أن يقف

(١) السورة ١٧ الآية ٤٨

(٢) السورة ٢٥ الآية ٩

(١) السورة ٢١ الآية ٥

موقفاً كهذا ينصر فيه عادته بإهدار عقله ! !

بل الحق أن هناك مانعاً آخر يعوقهم عن متابعة السير معنا ، ولكنهم يكتفوننا : كبراً في صدورهم أن يعطوا مقاديرهم لإنسان جاءهم من فوق رعوهم يزعم أنه رسول الله إليهم ، فيأمرهم وينهاهم ويستوجب الطاعة عليهم ، ثم هو على ذلك يواجههم بالحقائق المرة ، فيحول بينهم وبين ماضٍ هم به مستمسكون . وهوى هم له عابدون (بل جاءهم بالحق وأكثروهم ليلحق كارهُون) سورة المؤمنون^(١)

فلنذرهم قاعدين حيث رضوا لأنفسهم القعود . ولنتابع البحث عن هذا الحق راغبين إلى الله في الهدى إليه . وإنا إن شاء الله لمهتدون .

• • •

لا تحسبن أننا في هذه المرحلة الثالثة سنضرب في بيداء تيهاء ، أو أننا سيترامى بنا السير إلى شقة بعيدة وسفر غير قاصد . كلا ، فلن نخرج يبحثنا عن دائرة محدودة نراها مظنة للسر الذي نطلبه ، وذلك بدراسة الأحوال المباشرة التي كان يظهر فيها القرآن على لسان محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

وكلنا نعرف تلك الظاهرة العجيبة التي كانت تبدو على وجهه الكريم في كل مرة حين ينزل عليه القرآن ، وكان أمرها لا يخفى على أحد ممن ينظر إليه . فكانوا يرونه قد احمرَّ وجهه فجأة وأخذته البرحاء حتى يتفصد جبينه عرقاً ، وثقل جسمه حتى يكاد يرُضُّ فخذُه فخذَ الجالس إلى جانبه وحتى لو كان راكباً لبركت به راحلته ، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتاً مختلطة تشبه دوي^(٢) النحل .. ثم لا يلبث أن تُسرَّى عنه تلك الشدة

(١) السورة ٢٣ الآية ٧٠

(٢) هذه الأوصاف كلها ثابتة في الأحاديث الصحيحة عند الشيخين وأبي داود والترمذي وغيرهم

فلماذا هو يتلو قرآناً جديداً وذكرأً محدثاً .

فمن شاء أن يبحث عن مصدر هذا القرآن فهنا أقرب مظاهره ففيها فليحصر الباحثون بحوثهم ، ولينشد طلاب الحق ضالتهم ، وأين تلتبس الأسباب الصحيحة لأثر ما إن تلتبس حيث يظهر ذلك الأثر ، وحيث يدور وجوده وعدمه ؟

فلننظر الآن في هذه الظاهرة : هل كانت شيئاً متكلفاً مصنوعاً وطريقة تحضيرية يستجمع بها الفكر والروية ؟ أم كانت أمراً لا دخل فيه للاختيار ؟ وإذا كانت أمراً غير اختياري فهل كان لها في داخل النفس منشأ من الأسباب الطبيعية العادية ، كباعثة النوم ، أو من (الأسباب الطبيعية الشاذة ، كاختلال القوى العصبية ؟ أم كانت انفعالاً بسبب خارجي منفصل عن قوى النفس ؟

وإن نظرة واحدة نلقبها على عناصر هذه الظاهرة لتهدينا إلى أنها لا يمكن أن تكون صناعة وتكلفاً ، وبخاصة لو تأملت تلك الأصوات المختلطة التي كانت تسمع عند الوجه النبوي الشريف . وأيضاً لو كانت صناعة وتكلفاً لكانت طوع يمينه فكان لا يشاء يوماً أن يأتي بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذي اعتاده في تحضيره . وقد علمت^(١) أنه كثيراً ما التمس في أشد أوقات الحاجة إليه وكان لا يظفر به إلا حين يشاء الله .

فهي إذاً حال غير اختيارية .

ثم إننا نرجع البصر كرة أخرى فترى البعد شاسعاً بينها وبين عارض السبب الطبيعي الذي يعترى المرء في وقت حاجته إلى النوم ، فلماذا كانت تعروه قائماً أو قاعداً ، وسائراً أو راكباً ، وبكرة أو عشياً ، وفي أثناء حديثه مع أصحابه أو أعدائه ، وكانت تعروه فجأة وتزول عنه فجأة وتنقضي في لحظات يسيرة ، لا بالتدرج الذي يعرض للوسنان . وكانت تصاحبها تلك

(١) راجع ص ١٦

الأصوات الغريبة التي لا تسمع منه ولا من غيره عند النوم . وبالإجمال كانت حالاً تباين حال التألم في أوضاعها وأوقاتها وأشكالها وجملة مظاهرها .

فهي إذاً عارض غير عادي .

ثم نرى المباني التامة والمناقضة الكلية بينها وبين تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التي تصفر فيها الوجوه ، وتبرد الأطراف ، وتصلب الأسنان ، وتتكشف العورات ، ويحتجب نور العقل ، ويخيم ظلام الجهل . لأنها كانت كما علمت مبعث نمو في قوة البدن ، وإشراق في اللون ، وارتفاع في درجة الحرارة ، وكانت إلى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة ، ومصدر علم لا جهالة ، بل كان يحیی معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته ، وتتضاءل الأنوار عند طلوعه .

ها نحن أولاء قد كدنا نصل .. فلتقف بنا وقفة يسيرة لنرى مبعث هذا الضوء الذي كان يبدو حيناً ويختفي أحياناً من حيث لا يد لصاحبه في ظهوره ولا في اختفائه : هل عسى أن يكون منبعثاً من طبيعة هذه النفس المحمدية ؟ .. إذاً والله لكان خليقاً أن ينبعث منها أبداً ولكان أحق بأن ينبعث منها في حال اليقظة العادية والروية الفكرية أكثر مما ينبعث منها في تلك اللحظات البسيرة حينما تغشيها هذه السحابة الرقيقة التي قد تشبه السنة أو الإغماء . فلا بد إذاً أن يكون وراء هذه السحابة مصدر نوراني يمد هذه النفس المحمدية بين آن وآن فيسمو بها عن أفق شعرها المحدود ، ويزودها بما شاء الله من العلوم . ثم يرسلها إلينا محملة بهذه الشحنة العلمية إلى أن يلاقيها مرة أخرى . وكما آمن الناس بأن نور القمر ليس مستفاداً من ذاته ، وإنما هو مستفاد من ضياء الشمس ، لأنهم رأوا اختلاف نوره تابعاً أبداً لاختلاف مواقعها منها قريباً وبعداً ، فكذلك فليؤمنوا بأن نور هذا القمر النبوي إنما كان شعاعاً منعكساً من ضوء تلك الشمس التي يرون آثارها وإن كانوا لا يرونها . نعم إنهم لم يروها بأعينهم طالعة في رابعة النهار . ولم

يسمعوا صوتها بأذانهم جرساً مفهوماً وكلاماً يفقهه الناس ؛ ولكنهم كانوا يرون قبساً منها في الجبين ، وكانوا يسمعون حسيبها حول الوجه الكريم . وإن في ذلك لهدى للمهتدين .

هي إذاً قوة خارجية ؛ لأنها لاتنصل بهذه النفس المحمدية إلا حيناً بعد حين . وهي لا محالة قوة عالمة ؛ لأنها توحى إليه علماً .

وهي قوة أعلى من قوته ؛ لأنها تحدث في نفسه وفي بدنه تلك الآثار العظيمة (علمه شديد القوى ذو مرة) سورة النجم^(١) .

وهي قوة خيرة معصومة ؛ لأنها لا توحى إلا الحق ولا تأمر إلا بالرشد . فلا جرم أنها لا تكون قوة طائشة شريرة كقوة الجن والشياطين ؛ إذ ما للجن وعلم الغيب ولقد (تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) سورة سبأ^(٢) . وما للشيطان وخبر السماء وهي محفوظة من كل شيطان رجيم (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم ، وما يستطيعون ، إنهم عن السمع لمعزولون) سورة الشعراء^(٣) . بل نقول : أليست الأرواح جنوداً مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . أوليس المرء يعرف بقرينه ، وشبه الشيء ينجذب إليه ؟ فكيف تأتلف تلك الأرواح الخبيثة وذلك القلب النقي الطهور ؟ أم كيف تأتلف تلك القوى الطائشة وهذا العقل الكامل الرصين ؟ (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون)^(٤) .

فماذا عسى أن تكون هذه القوة إن لم تكن قوة ملك كريم ؟

- (١) السورة ٥٣ الآية ٥
(٢) السورة ٣٤ الآية ١٤
(٣) السورة ٢٦ الآية ٢١٠ وما بعدها
(٤) السورة ٢٦ الآية ٢٢١ وما بعدها

ذلك هو مبلغ العلم في وصف هذه القوة الغيبية حسبما يهدي إليه البحث العقلي المستقيم . وليس بالمؤمن المقتصد حاجة إلى أكثر من هذا القدر في إرضاء شهوته العلمية ، ولا في تثبيت عقيدته الدينية . فمن شاء المزيد من وصفها وحليتها فليس سبيله الرجوع إلى دلالات العقول ، وإنما سبيله الرجوع إلى النقل الصحيح عن مهبط سرها ومظهر نورها صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ فهو وحده الذي يستطيع أن يتحدث عن صاحب هذا السر حديث شاهد العيان الذي رأى شخصه وسمع صوته ، بل حديث التلميذ الذي جلس إلى أستاذه غير مرة .

فأما الذي يؤمن بالغيب فسيؤمن بهذا الحديث عنه وإن لم يره ؛ لأنه رأى أثره ، ولأنه يؤمن بمن أخبره . وأما الجاهلون الذين أوتوا قليلاً من علم ظاهر الحياة فظنوا أنهم أحاطوا بكل شيء علماً فإنهم سيكذبون بكل ما لم يحيطوا بعلمه ، وسيقولون لك : لعلَّ اضطراباً في أعصاب البصر خيل إليه أنه يرى شيئاً من لا شيء ! وأنت فاستعد بالله من عمى القلوب والعيون ، وقل : كلا (ما زاعَ البَصْرُ وما طغى) سورة النجم (١) . أو يقولون : لعلَّ اضطراب في قوى الفكر صور له المعاني أشباحاً ماثلة ، والأحلام حقائق مجسمة ! فابراً إلى الله من هذا الجنون ، وقل : كلا (ما كذبَ القوادُ ما رأى) (٢) .

نعم لقد عجبوا أن يكون إنسان يرى الملائكة عياناً ويكلمهم جهاراً . بل عجبوا أن يكون في الدنيا خلق لا يرونه بأعينهم ، وصوت لا يسمعون به بأذانهم . فقالوا كيف يرى محمد مالا نرى ، ويسمع مالا نسمع !

ولعمري لنحن أحق أن نعجب من هذا العجب ؛ فإننا نفهم أنه لو

سأغ مثله في عصور الجاهلية الأولى ما كان ليسوغ اليوم وقد ملئت الأرض بالآيات العلمية التي تفسر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية .

وإن من أقرب هذه الآيات إلى متناول الجمهور آية الهاتف « التليفون » . فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما في أقصى المشرق والآخر في أقصى المغرب ، ثم يتخاطبان ويتراءيان ، من حيث لا يرى الجالسون في مجلس التخاطب شيئاً ، ولا يسمعون إلا أزيزاً كدوي النحل الذي في صفة الوحي .

فإن كانوا يريدون آية علمية أوضح من هذه تمثل لهم الوحي تمثيلاً ، وبرهينهم من طريق التجارب - التي لا يؤمنون إلا بها - أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها قد يحدث فيها ظاهرة من جنس هذه الظاهرة وينتجش فيها معلومات لم تكن مخزونة في العقل ولا في الحس قبل ذلك ، فهذا قد أراههم الله تلك الآية العجيبة في « أعجوبة التنويم المغناطيسي » فقد أصبح الرجل القوي الإرادة يستطيع أن يتسلط بقوة إرادته على من هو أضعف منه حتى يجعله ينام بأمره نوماً عميقاً لا يشعر فيه بوخز الإبر . وهناك يكون رهين إشارته ، وتنحى إرادته في إرادته : فلو شاء أن يمحو من نفسه رأياً أو عقيدة لمحاها بكلمة واحدة . بل لو شاء أن يمحو من صدره اسم نفسه (١) ويلقنه اسماً آخر يقنعه بأنه هو اسمه لما وجد منه إلا إيماناً وتسليماً ، ولأصبح اسمه الحقيقي نسباً منسياً ، ولبقي هذا الاسم المصنوع . نقوشاً على قلبه ولسانه بعد أن يستيقظ إلى ما شاء الله . فإذا كان فعل هذا الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟

(١) حوادث التنويم المغناطيسي وآثارها البدنية والنفسية أكثر من أن تحصى ولكننا أشرنا بهذا المثال إلى واقعة كان شاهد العيان فيها فاضل من علماء الأزهر الأستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني ، وهو الذي فطن منها إلى هذه العبرة الدينية ونشرها بمجلة الهداية الإسلامية في شهر ربيع الأول من هذا العام (١٣٥٢ هـ) .

(١) السورة ٥٣ الآية ١٧

(٢) السورة ٥٣ الآية ١١

فذلك مثل^(١) حامل الوحي ومتلقيه عليهما السلام : هذا بشرٌ مطواعٌ ذو روح صافٍ يقبل انطباع العلوم فيه ، وذلك ملكٌ شديد القوى ذو مِرَّةٍ يحمل إليه رسالته ويقرئها إياه ، فلا ينسى إلا ما شاء الله .

بيدَ أنَّ بُعداً شاسعاً بين هذا الوحي النبوي ووحى الناس بعضهم لبعض ، فالناس كما عرفت قد يوحون زخرف القول غروراً ، وكثيراً ما يترك وحيهم في نفس متلقيه أعراضاً عقلية أو بدنية يصعب علاجها . فإين هذا من الوحي بين رسولين مؤيدين اصطفاهما الله لرسالته : رسول من الملائكة ورسول من الناس ؟ فأما الرسول الملكي فإنه كما علمت لا يوحى إلا الحق ، ولا يأمر إلا بالخير . وأما الرسول البشري فإنه لا يزال من بعد كما كان من قبل ، ثابت الفؤاد كامل العقل قوي النفس والبدن (الله أعلم) حيث يجعل رسالته (سورة الأنعام^(٢)) .

• • •

« وبعد » فإننا في هذا المنهج الذي سلكناه من أول البحث إلى هذا الحد لم نرد أن نعرض للقرآن في جوهره ، بل كان قصارى ما صنعناه أننا درسنا الطريق التي جاء منها : فما وجدنا في اعترافات صاحبه ، ولا في حياته الخلقية ، ولا في وسائله وصلاته العلمية ، ولا في سائر الظروف العامة أو الخاصة التي ظهر فيها القرآن إلا شواهد ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على ظهر الأرض أبٌ ننسبه إليه من دون الله .

وتلك كلها دراسات خارجية إنما يسلكها رجلٌ وقف معنا على طرف

(١) تأمل هذا التقريب تجد فيه آية أخرى على بطلان دعوى « الوحي النفسي » التي يروجها الملحون ، إذ أنه من الأركان الأساسية التي أجمع عليها علماء التنويم أنه إنما يكون بين نفسيين مختلفي الطباع إحداها أقوى إرادة من الأخرى فلا يستطيع امرؤ أن يقوم بهذه التجربة في نفسه إلا إذا فرضنا اجتماع التقيضين أو أن يكون الواحد اثنين .

(٢) السورة ٦ الآية ١٢٤

صالح من هذه الحياة النبوية وملايساتها ، وكان مع ذلك سليم الفطرة يتعرف الأشياء بمثلها ويهتدي إليها بأقرب أماراتها . فمثل هذا سيرضى منا بهذا القدر ويهتدي به .

وأما الذين لا يعلمون عن تلك الحياة النبوية إلا قليلاً - وكثيراً ما هم - والذين يريدون أن يأخذوا حجة القرآن لنفسه من نفسه ، فهؤلاء لا غنى لهم أن نتقدم بهم خطوة أخرى نبين لهم فيها أن هذا للكتاب الكريم يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر ، وينادي بلسان حاله أنه رسالة القضاء والقدر ، حتى إنه لو وجد ملقى في صحراء لا يقن الناظر فيه أن ليس من هذه الأرض منبعه ومنبته ، وإنما كان من أفق السماء مطلعاً ومهبطاً .

ذلك أن قدرة الناس وإن تفاوتت فإلى حدود محدودة لا تتعداها وقدرة الخالق على الممكنات لا حد لها . فكل كائن يجاوز حدود القدرة العالمية واقع في حدود القدرة الإلهية ألبتة . ولا ثالث .

مثال ذلك : أن الرجل قد يصرع الرجل وقد يصرع الرجلين وقد يصرع الآحاد والعشرات . ولكن هل من الناس من يقف في وجه العالم كله فيقهر الأمم أفراداً وجماعات ؟

والله يأتي بالشمس من المشرق فمن ذا الذي يأتي بها من المغرب ؟

وأنت تستطيع أن تطفئ المصباح وأن توقده حين تشاء . ولكن هل يستطيع الناس جميعاً أن يطلعوا الشمس قبل وقتها ، أو يؤخروها عن ساعتها ، أو يطفئوا نورها ، أو يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ؟

إنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستقذوه منه . فأنتى لهم أن يضاهاوا تلك الكائنات العلوية التي لا تنالها أيديهم ولا قذاثهم ، والتي لا يملكون من أمرها سوى النظر إليها والإعجاب بها والاستفادة منها والخضوع لها .

فذلك العجز العام عن مضاهاة الخلق وعن محاكاة الصنعة هو آية كونها

ليست من صنع الناس . وذلك هو الطابع الإلهي والمظهر السماوي الذي تمتاز به صناعة الخالق عن صناعة المخلوق . وهذا هو المثل الذي نريد أن نطبقه على القرآن الكريم .

غير أن من الناس فريقاً غريقاً في حمأة العناد ، يقولون (مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَتَسَحَّرَ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) ^(١) (ولو أننا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) ^(٢) .

وآخرين لا يجدون طمأنينتهم إلا في اضطراب الشك ، يقولون (إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَثْنِينَ) ^(٣) (ولو فتحنا عليهم باباً مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) ^(٤) (ولو نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) ^(٥) .

فهؤلاء وأولئك لا سبيل لنا عليهم ، ولا ينفعهم نصحننا إن كان الله يريد أن يغويهم ؛ إذ ليس من شأننا أن نسمع الصمَّ أو نهدي العمى ولا الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم فإذا هم لا يسمعون أو يضعون أكفهم على أعينهم فإذا الشمس الطالعة ليست بطالعة (ومن يُرد الله فِثْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا) ^(٦) . وإنما سبيلنا أن ننصب الحجة لجاهلها من طلاب الحق ، ونوضح الطريق لسابلها من رواد اليقين .

ها نحن أولاء ندعو كل من يطلب الحق بإنصاف ، أن ينظر معنا في

القرآن من أي النواحي أحب : من ناحية أسلوبه ، أو من ناحية علومه ، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم وغيره به وجه التاريخ أو من تلك النواحي مجتمعة - على أن تكون له الحِيسَةُ بعد ذلك أن ينظر إليه في حدود البيئة والعصر الذي ظهر فيه ، أو يفترض أنه ظهر في أرقى الأوساط والعصور التاريخية . وسواء علينا أيضاً أن ينظر إلى شخصية الداعي الذي جاء به أو يلتبس شخصاً خيالياً تجمعت فيه مَرَانَاتُ الأدباء ، وسلطات الزعماء ، ودراسات العلماء بكافة العلوم الإنسانية ثم نسأله : هل يجد فيه إلا قوة شاذة تغلب كل مغالب ، وتتضاءل دونها قوة كل عالم ، وكل زعيم ، وكل شاعر وكاتب ، ثم تنقضي الأجيال والأحقاب ولا يتقضي فيه من عجائب ، بل قد تنقضي الدنيا كلها ولما يحيط الناس بتأويل كل ما فيه (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) سورة الأعراف ^(١) .

فلنأخذ الآن - بعون الله وتوفيقه - في دراسة هذه النواحي الثلاثة من الإعجاز القرآني : أعني ناحية الإعجاز اللغوي ، وناحية الإعجاز العلمي ، وناحية الإعجاز الإصلاحي التهديبي الاجتماعي .

ولكن عنايتنا أوفر بناحيته اللغوية لأنها هي التي وقع من جهتها التحدي بالقرآن جملة وتفصيلاً في سورة منه . ولذلك نبدأ بها .

• • •

- (١) السورة ٧ الآية ١٣٢
- (٢) السورة ٦ الآية ١١١
- (٣) السورة ٤٥ الآية ٣٢
- (٤) السورة ١٥ الآية ١٤ وما بعدها
- (٥) السورة ٦ الآية ٧
- (٦) السورة ٥ الآية ٤١

القرآن معجزة لغوية

من كان عنده شيء من الشك في هذه القضية فليأذن لنا أن نستوضحه :
فيم ذلك الشك ؟

هل حدثته نفسه بأنه هو يستطيع أن يأتي بكلام في طبقة البلاغة القرآنية ؟
أم هو قد عرف من نفسه القصور عن تلك الرتبة ، ولكنه لم يعرف عن
الناس ما عرف من نفسه ؟

أم علم أن الناس جميعاً قد سكتوا عن معارضة القرآن ، ولكنه لم
يعلم أن سكوتهم عنه كان عجزاً ، ولا أن عجزهم جاء من ناحية القرآن ذاته ؟
أم علم أنهم قد عجزوا عنه وأنه هو الذي أعجزهم ، ولكنه لم يعلم
أن أسلوبه كان من أسباب إعجازه ؟

أم هو يوقن بأن القرآن الكريم كان وما زال معجزة بيانية لسائر الناس ،
ولكنه لا يوقن بأنه كان معجزاً كذلك لمن جاء به ؟

أم هو يؤمن بهذا كله ، ولكنه لا يدري : ما أسرارها وما أسبابه ؟

هذه وجوه ستة ، لكل وجه منها علاج يخصه . وسنعالجها على هذا
الترتيب :

١ - فأما إن كان مثار الشبهة عنده أنه زاول شيئاً من صناعة الشعر
أو الكتابة ، وآتس من نفسه اقتداراً في البيان فوسوس له شيطان الإعجاب
بنفسه والجهل بالقرآن أنه يستطيع الإتيان بمثل أسلوبه ، فذلك ظن لا يظنه
بنفسه أحد من الكبار المنتهين ، وإنما يعرض - إن عرض - للأغرار الناشئين .

ومثل هذا دواؤه عندنا نصح "نقدم به إليه أن يطيل النظر في أساليب العرب ،
وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب ، حتى تستحكم
عنده ملكة النقد البياني ، ويستبين له طريق الحكم في مراتب الكلام وطبقاته .
ثم ينظر في القرآن بعد ذلك .

وأنا له زعيم بأن كل خطوة يخطوها في هذه السبيل ستزيده معرفة
بقدره ، وستحل عن نفسه عقدة من عقد الشك في أمره ؛ إذ يرى هنالك
أنه كلما ازداد بصيرة بأسرار اللغة ، وإحساناً في تصريف القول ، وامتلاكاً
لناصية البيان ، ازداد بقدر ذلك هضماً لنفسه ، وإنكاراً لقوته ، وخضوعاً
بكليته أمام أسلوب القرآن . وهذا قد يبدو لك عجباً ، أن يزداد شعور
المرء بعجزه عن الصنعة بقدر ما تتكامل فيها قوته ويتسع بها علمه . ولكن
لا عجب ، فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه : لا يزيده العلم بها
والوقوف على أسرارها إلا إذعاناً لعظمتها وثقة بالعجز عنها . ولا كذلك
صناعات الخلق ، فإن فضل العلم بها يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى
الزيادة عليها . ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى
وهارون .

فإن أباي المغرور إلا لإصراراً على غروره ، وكبر عليه أن يقر بعجزه
وقصوره ، دعوانه إلى الميدان لي تجرب نفسه ويروى قوته ، وقلنا له : أخرج
لنا أحسن ما عندك لننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .. غير أننا نعظه
بواحدة أخرى : ألا يخرج على الناس ببضاعته حتى يطيل الروية ويحكم
الموازنة . وحتى يستيقن الإحسان والإجادة ، فإنه إن فعل ذلك كان أدنى
أن يتدارك غلظه ويوارى سوءته . وإلا فقد أساء المسكين إلى نفسه من حيث
أراد الإحسان إليها .

وإن في التاريخ لعبيراً تؤثر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة :
فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم ؛

بل نزلوا به إلى ضرب من السخف والتفاهة باد عواره ، باق عارُهُ وشَتارُهُ : فمنهم عاقلٌ استحب أن يتم تجربته ، فحطّم قلمه ومزّق صحيفته^(١) . ومنهم ماكرٌ وجد الناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاتهُ ، فطوى صحفه وأخفاها إلى حين^(٢) . ومنهم طائشٌ برز بها إلى الناس . فكان سخرية للساخرين ، ومثلاً للآخرين^(٣) .

(١) يعزى شيء من ذلك لابن المقفع ، ولأبي الطيب ، وللمعري . والظن هؤلاء أنهم كانوا في غنى بمقولهم وأدواتهم عن الشروع في هذه المحاولة ، إلا أن يكون على حد : (ولكن ليطعن قلبي) .

(٢) من ذلك ما اشتهر عن تلك الكتب التي وضعها زعماء نحلي « القاديانية » و « البهائية » لتكون دستوراً دينياً لهم كالقرآن ، وقد لفقوها تلفيقاً ركيكاً من آيات قرآنية وكلمات عامية ، وبدلوا فيها أصول الإسلام وفروعه ، وادعوا فيها لأنفسهم النبوة أو الألوهية ، ولكن أتباعهم لم يصبروا أن يذيعوا تلك الكتب وشمس العلم طالعة ، فأخفوها - كما يخفى السور سلحتة - إلى أن يجي . وقت يفشو فيه الجهل بالعلوم والآداب ، وتستمد فيه النفوس لقبول أمثالها . فليتظروا آخر الدهر .

(٣) ذلك مثل مسيلة الدجال ، فقد زعم أنه يوحى إليه بكلام مثل القرآن ، وما صنع شيئاً إلا أنه كان يعتمد إلى أي من القرآن فيسرق أكثر ألفاظها ويبدل بعضاً ، كقوله : « إنا أمطينك لجاهر فصل لربك وجاهر » أو يجيء على موازين الكلمات القرآنية بألفاظ سوقية ومعان سوقية ، كقوله : « والطاحنات طحنن العاجنات عجنن والخابزات خبزن » وهكذا لم يستطع وهو عربي قح أن يحتفظ بأسلوب نفسه ، بل نزل إلى حد الاسفاف ، وأقي العبث الذي يأتيه الصبيان في مداعبتهم وتفككهم بقلب الأشعار والأغاني عن وجهها . ولا يخفى أن هذا كله ليس من المعارضة في شيء ، بل هو المحاكاة والإفساد . وما مثله إلا كمثل من يستبدل بالإنسان تمثالاً لا روح فيه ، وهو على ذلك تمثال ليس فيه شيء من جلال الفن . وإنما المعارضة أن تعتمد إلى معنى من المعاني فتؤديه نفسه بأسلوب آخر يوازي الأصل في بلاغته أو يزيد . ومن يحاول ذلك في المعاني القرآنية فإنما يحاول محالا . والتجربة أسدق شاهد . بل من يحاول أن يجيء بمثل أسلوب القرآن في معان أخرى لا يتحرى فيها الصدق والحكمة فقد طمع في غير مطلق . ولذا كان من طرق التحدي للعرب أن طولبوا بمشعر سور مثله « مفتريات » سورة هود ١١ : ١٣

هذا والذي نفهمه في أمر مسيلة هو ما فهمه الأديب الرافعي : أنه لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية الصناعة البيانية ، إذ كانت هذه الناحية أوضح من أن يلتبس أمرها عليه ، أو أن يستطیع تلبسها على أحد من العرب . وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومه من ناحية أخرى ظنها =

فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فلينظر في تلك العبر وليأخذ بأحسنها . ومن لم يستحي فليصنع ما يشاء .

٢ - وأما إن كان مدخل الشبهة عنده أنه رأى في الناس من هو أعلى منه كعباً في هذه الصناعة ، فقال في نفسه : « لئن لم أكن أنا من فرسان هذا الميدان ، ولم يكن لي في معارضة القرآن يدان : لعل هذا الأمر يكون يسيراً على من هو أفصح مني لساناً وأسحر بياناً » فمثّل هذا نقوله له : لارجع إلى أهل الذكر من أدباء عصرك فاسألهم هل يقدرّون أن يأتوا بمثله ؟ فإن قالوا لك « لو نشاء لقلنا مثل هذا » فقل « هاتوا برهانكم ! » وإن قالوا « لا طاقة لنا به » فقل أي شيء أكبر من العجز شهادة على الإعجاز ؟

ثم ارجع إلى التاريخ فاسأله : ما بال القرون الأولى ؟ ينبئك التاريخ أن أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن في عصر من أعصاره ، وأن بضعة النفر الذين أنقضوا رؤوسهم إليه باؤوا بالخزي والهوان ، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان .

أجل . لقد سجّل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن . وما أدراك ما عصر نزول القرآن ؟ هو أزهى عصور البيان العربي ، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي . وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها ، حتى

= أهون عليه وأقرب تأثيراً في نفوسهم . ذلك أنه رأى العرب تنظم الكهان في الجاهلية ، وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع الفلق الذي يزعمون أنه من كلام الجن ، كقولهم « يا جليح . أمر نجيح . رجل فصيح ، يقول لا إله إلا الله - البخاري في المناقب : إسلام عمر » فكذلك جعل يطبع مثل هذه الأسجاع في محاكاة القرآن ، ليوهمهم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد ، كأنما النبوة والكهانة ضرب واحد . على أنه لم يفلح في هذه الحيلة أيضاً ، فقد كان كثيرون من أشياعه يعرفونه بالكذب والحماقة ، ويقولون أنه لم يكن في تعاطيه الكهانة حاذقاً ، ولا في دعواه النبوة صادقاً ، وإنما كان اتباعهم إياه كما قال قائلهم : « كذاب ربيعة أحب إلينا عن صادق مضر » .

أدركت هذه اللغة أشدها ؛ وتمّ لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها ؟.. ما هذه الجموع المحشودة في الصحراء ، وما هذه المناظر المرفوعة هنا وهناك ؟ — إنها أسواق العرب تعرض فيها أنفس بضائعهم وأجود صناعاتهم ؛ وما هي إلا بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة ، يتبارون في عرضها ونقدها ، واختيار أحسنها والمفاخرة بها ، ويتنافسون فيها أشد التنافس ، يستوي في ذلك رجالهم ونسائهم . وما أمرُ حسنٍ والخساء وغيرهما بخافٍ على متأدّب .

فما هو إلا أن جاء القرآن .. وإذا الأسواق قد انفضت ، إلا منه . وإذا الأندية قد صفّرت ، إلا عنه . فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه ، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة ، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة ، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى . ذلك على أنه لم يسدّ عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه ، بل دعاهم إليه أفراداً أو جماعات ، بل تحدّاهم وكرّرا عليهم ذلك التحدي في صور شتى ، متهمكماً بهم منزلاً معهم إلى الأخف فالأخف : فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله ، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله . ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله ، ثم بسورة واحدة من مثله^(١) ، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا ، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير موارد فقال : (لئن اجتمعت الإنسُ والجنُ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) سورة الاسراء^(٢) . وقال (فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا فاتّقوا النارَ التي

(١) انظر كيف تنزل معهم في هذه المرتبة من طلب المائل إلى طلب شيء مما يماثل . كأنه يقول : لا أكلفكم بالمائلة العامة ، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المائلة ومطلقها ، وبما يكون مثلاً على التقريب لا التحديد . وهذا أقصى ما يمكن من التنزل . ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولاً ، فلم يجيء التحدي بلفظ (من مثالي إلا في سورة البقرة المدنية . وسائر المراتب بلفظ (مثله) في السور التي نزلت قبل ذلك بمكة : فتأمل هذا الفرق فإنه طريف ، واسأل الله أن يوفقنا وإياك لفهم أسرار كتابه ، والانتفاع بهديته وآدابه .

(٢) السورة ١٧ الآية ٨٨

وقودها الناسُ والحجارة) سورة البقرة^(١) . فانظر أيّ إلهاب ، وأي استغزاز ! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله (ولن تفعلوا) ثم هدّاهم بالنار ، ثم سواهم بالأحجار . فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك كما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء ، وأبابة الضيم الأعزاء ، وقد أصاب منهم موضع عزّتهم وفخارهم . ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته ، ولا سلماً يصعدون به إلى مزاحمته ، بل وجلوا أنفسهم منه أمام طود شامخ ، فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً .. حتى إذا استياسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الختوف ، واستنطقوا السيوف بدل الحروف . وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان ، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان .

ومضى عصر القرآن والتحدي قائم ليحرب كل امرئ نفسه ، وجاء العصر الذي بعده وفي البادية وأطرافها أقوامٌ لم تختلط أنسابهم ، ولم تنحرف ألسنتهم ، ولم تتغير سليقتهم ، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا بهذا الدين من أساسه ، ويشبّثوا أنهم قادرون من أمر القرآن على ما عجز عنه أوائلهم ، لفعلوا ، ولكنهم ذكّت أعناقهم له خاضعين ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشباعهم من قبل .

ثم مضت تلك القرون ، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون ، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد ، كانوا أشدّ عجزاً وأقل طمعاً في هذا المطلب العزيز . فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم ، وكان برهان الإعجاز قائماً أمامهم من طريقين : وجداني وبرهاني .. ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

٣ — فإن قال لنا : نعم ، قد علمت أنه لم يأت أحد بشيء في معارضة

(١) السورة ٢ الآية ٢٤

القرآن . ولكن ليس كل ما لم يفعله الناس يكون خارجاً عن حدود قدرتهم ، فربما ترك الإنسان فعلاً هو من جنس أفعاله الاختيارية لعدم قيام الأسباب التي من شأنها أن تبعث عليه ، أو لأن صارفاً إلهياً بُسِّطَ همته وصرف إرادته عنه مع توافر الأسباب الداعية إليه . أو لأن عارضاً فجائياً عطل آلاته وعاق قدرته عن إحداث ذلك الفعل بعد توجه إرادته نحوه — فعلى الفرضين الأولين يكون عدم معارضة القرآن قلةً أكثر من شأنه لا عجزاً عن الإتيان بمثله . وعلى الفرض الأخير يكون تركه عجزاً عنه حقاً ، لكن ليس لما منع فيه من جهة علو طبقته عن مستوى القدرة البشرية ، بل لما منع خارجي هو حماية^(١) القدرة العليا له وصيانتها إياه عن معارضة المعارضين ، ولو أزيل هذا المانع لحاء الناس بمثله .

قلنا له : هذه الفروض كلها لا تنطبق على موضوعنا بحال .

أما الأول فإن الأسباب الباعثة على المعارضة كانت موفورة متضافرة . وأي شيء أقوى في استثارة حمية خصمك من ذلك التقرع البليغ المتكرر الذي توجهه إليه معلناً فيه عجزه عن مضاهاة عملك ؟ إن هذا التحدي كاف وحده في إثارة حفيظة الجبان وإشعال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقته . فكيف لو كان الذي تتحده مجبولاً على الأنفة والحمية ؟ وكيف لو كان العمل الذي تتحده به هو صناعته التي بها يفاخر ، والتي هو فيها المدرب الماهر وكيف لو كنت مع ذلك ترميه بسفاهة الرأي وضلال الطريق ؟ وكيف لو كنت تبتغي من وراء هذه الحرب الجدلية هدم عقائده ، ومحو عوائده وقطع الصلة بين ماضيه ومستقبله ؟

(١) هذا هو القول بالصرقة ، الذي اشتهر عن النظام من المعتزلة ، وهو وإن كان اعترافاً في الحملة بصحة الإعجاز إلا أنه لا يقول به إلا أعجمي أو شبهه لم يذق البلاغة طعماً . ولذلك لم يتابعه عليه تلميذه الجاحظ ولا أحد من علماء العربية ، وهو يعد خلاف ما عرّفه العرب من أنفسهم كما سيأتي .

وأما الثاني فإن هذه الأسباب قد رأيناها آتت بالفعل ثمراتها ، وأيقظت همم المعارضين إلى أبعد حدودها . حتى كان أمر محمد والقرآن هو شغلهم الشاغل ، وهمهم الناصب ، فلم يدعوا وسيلة من الوسائل لمقاومته باللطف أو بالعنف إلا استنبطوها وتذرعوا بها : أيتحدعونني عن دينه ليميلن لهم ويركن قليلاً إلى دينهم^(١) أم يسامونه بالمال والملك ليكف عن دعوته^(٢) أم يتواصون بمقاطعته وبحبس الزاد عنه وعن عشيرته الأقربين حتى يموتوا جوعاً أو يسلموه^(٣) أم يمنعون صوت القرآن أن يخرج من دور المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم^(٤) ، أم يلقون فيه الشبهات والمطاعن أم يتهمون صاحبه بالسحر والجنون ليصدوا عنه من لا يعرفه من القبائل القادمة في المواسم ، أم يمحرون به ليشبته أو يقتلوه أو يُخْرِجوه^(٥) ، أم يخاطرون بمهجهم وأموالهم وأهليهم في محاربته . أفكان هذا كله تشاغلاً عن القرآن وقلة عناية بشأنه ؟ ثم لماذا كل هذا وهو قد دلهم على أن الطريق الوحيد لإسكاته هو أن يجيئوه

(١) جاء رجال من قريش إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم فقالوا له : يا محمد تعال تسمع بأختنا ، أو ألم بأختنا ، وندخل معك في دينك . فنزل قوله تعالى (وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك) سورة الإسراء ١٧ : ٧٣ رواه ابن مردويه بسند جيد .
(٢) إيماء إلى القصة الطويلة التي نزل فيها قوله تعالى : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) الآيات من سورة الإسراء ١٧ : ٩٠ فما فوقها رواها ابن جرير بسند متصل فيه مبهم ، ولها شاهد مرسل صحيح .

(٣) إيماء إلى خبر الصحيفة الجائرة التي تحالفت فيها قريش وكثافة على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحهم ولا يبايعهم حتى يسلموا إليهم رسول الله . رواه الشيخان عن الزهري . وفي شأن هذه المخالفة يقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في غزوة الفتح وفي حجة الوداع « منزلنا غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر » رواه الشيخان .

(٤) لم يطلق أشراف قريش أن يستعلن أبو بكر بقراءة القرآن في فناء داره إذ كانت تهوى إليه أفئدة من أبنائهم ونسائهم وعبيدهم يستمعون لقراءته فخشى المشركون أن يفتنوا . وكان ابن الدغنة قد أجار أبا بكر ، فأمره أن يسترد جواره منه إذا أصر على الإعلان بقراءته . وقد فعل . الحديث رواه البخاري .

(٥) آية الأنفال (٨ : ٣٠) .

بكلام مثل الذي جاءهم به ؟ ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره في يدهم ؟ ولكنهم طرَقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب ، وكان القتل والأسر والفقر والذل كل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذي دلهم عليه . فأَي شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز ؟

لا ريب أن هذه الحملات كلها لم تكن موجهة إلى شخص النبي وأصحابه ؛ فقد كانوا من قبلُ تَعَطِّفُهُمْ عليهم أرحامُهُمْ ، وَتَحَبُّبُهُمْ إليهم مكارم أخلاقهم . كما أنها لم تكن موجهة إلى القرآن في الصدور ولا في داخل البيوت ؛ فقد قبلوا منهم أن يعبدَ امرؤُ ربَّه في بيته كيف يشاء . إنما كانت مصوَّبة إلى هدف واحد ، ومقاومة لخطر واحد ، هو إعلان^(١) هذا القرآن ونشره بين العرب .

ولا يهجن^٢ في روعك أنهم ما نقموا من الإعلان بالقرآن إلا أنه دعوة جديدة إلى دين جديد فحسب . كلا ، فقد كان في العرب حُفَاءٌ من فحول الخطباء والشعراء ؛ كقُصِّ بن ساعدة ، وأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت ، وغيرهما ، وكانت خطبهم وأشعارهم مشحونة بالدعوة إلى ما دعا إليه القرآن من دين الفطرة . فما بالهم قد أهملهم من أمر محمد وقرآنه ما لم يعينهم من أمر غيره ؟ ما ذاك إلا أنهم وجدوا له شأنًا آخر لا يشبه شأنَ الناس ، وأنهم أحسوا في قرآنه قوة غلابة وتياراً جارفاً يريد أن يسطر سلطانَه حيث يصل صدى صوته ، وأنهم لم يجدوا سبيلاً لمقاومته من طريق المعارضة الكلامية التي هي هِجْرَاهُمْ ، والتي هي الطريق المباشر الذي تحداهم به . فلا جرم كان الطريق الوحيد عندهم لمقاومته هو الحيلولة بمختلف الوسائل بين هذا القرآن وبين الناس مهما كلفهم ذلك من تضحية . وكذلك فعلوا . وكذلك

(١) وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حينما كان يعرض نفسه على الناس في الموقف : « ألا رجل يعطيني إلى قومه ؟ فإن قريشاً ممنون أن أبلغ كلام ربى - رواء أبو داود والترمذي » فانظر قوله : ممنون أن « أبلغ » ولم يقل ممنون أن « أتلو » .

مضت السنة فيمن بعدهم من أعداء القرآن إلى يومنا هذا .

وأما الثالث فإنه لو كان عجزهم عن مضاهاة القرآن لعارض أصابهم حال بينهم وبين شيء في مقدورهم ، لما استبان لهم ذلك العجز إلا بعد أن يسطوا ألسنتهم إليه ، ويجربوا قدرتهم عليه ؛ لأنه ما كان لامرئ أن يحسَّ بزوال قدرته عن شيء كان يقدر عليه كقدرته على القيام والعودة إلا بعد محاولة وتجربة . ونحن قد علمنا أنهم قعدوا عن هذه التجربة ، ولم يشرع منهم في هذه المحاولة إلا أقلَّهم عدداً وأسفهم رأياً . فكان ذلك آية على بأسهم الطبيعي من أنفسهم ، وعلى شعورهم بأن عجزهم عنهم عجز فطري عتيق ، كعجزهم عن إزالة الجبال ، وعن تناول النجوم من السماء ، وأنهم كانوا في غنى بهذا العلم الضروري عن طلب الدليل عليه بالمحاولات والتجارب

على أنهم لو كانوا لم يعرفوا عجزهم عنه بادئ ذي بدء وإنما أدركهم العجز بعد شعورهم بأنه في مستوى كلامهم ، لكان عجبهم إذاً من أنفسهم : كيف عَيُّوا به وهو منهم على طَرَفِ الثَّمام ؟ ولجعلوا يتساءلون فيما بينهم أي داء أصابنا فعقد ألسنتنا عن معارضة هذا الكلام الذي هو ككل كلام ؟ أو لرجعوا إلى بيانهم القديم قبل أن يصيبهم العجز فجاءوا بشيء منه في محاذاته . ولكنهم لم يجثوا فيه بقديم ولا جديد ، وكان القرآن نفسه هو مَنَارَ عجبهم وإعجابهم ، حتى إنهم كانوا يَخرون سُجَّداً لسماعه من قبل أن تمضي مهلة يوازنون فيها بينه وبين كلامهم ، بل إن منهم من كان يغلبه هذا الشعور فيفيض على لسانه اعترافاً صحيحاً : « ما هذا بقول بشر » .

٤ - فإن قال : قد تبينَ الآن أن سكوت الناس عن معارضة القرآن كان عجزاً ، وأنهم وجدوا في طبيعة القرآن سرّاً من أسرار الإعجاز يسمو به عن قدرتهم . ولكني لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن أن تكون من مَظان هذا السر ، لأنني أقرأ القرآن فلا أجده يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية : فمن حروفهم رُكِبَتْ كلماته . ومن كلماتهم أُلْفِتَ جملةُ آياته ، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه . فأَي جديد في مفردات القرآن لم يعرفه

العرب من موادّها وأبنيّتها ؟ وأي جديد في تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به في مذاهبها ، حتى نقول إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية ؟.

قلنا له : أما أن القرآن الكريم لم يخرج في لغته عن سنن العرب في كلامهم لأفراداً وتركيباً فذلك في جملته حق لا ريب فيه . وبذلك كان أدخل في الإعجاز ، وأوضح في قطع الأعذار (ولو جعلناه قرآناً أعجباً لقالوا لولا فصلت آياته . أأعجمي وعربي ؟ !) سورة فصلت (١).

وأما بعد فهل ذهب عنك أن مثل صنعة البيان كمثل صنعة البنّان : فالمهندسون البنّاءون لا يخلقون مادّة بناء لم تكن في الأرض ، ولا يخرجون في صنعهم عن قواعد العامة ، ولا يعدّو ما يصنعونه أن يكون جدراناً مرفوعة ، وسقفاً موضوعة ، وأبواباً مشرّعة ولكنهم تتفاضل صناعاتهم وراء ذلك في اختيار أمتن المواد وأبقاها على الدهر ، وأكثّرها للناس من الحرّ والقرّ ، وفي تعميق الأساس وتطويل البنّان ، وتخفيف المحمول منها على حامله ، والانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجرات والأبهاء بحيث يتخللها الضوء والهواء . فمنهم من يفي بذلك كله أو جلّه ، ومنهم من يخل بشيء منه أو أشياء .. إلى فنون من الزينة والزخرف يتفاوت الذوق الهندسي فيها تفاوتاً بعيداً .

كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدّون الغرض الواحد على طرائق شتى يتفاوت حفظها في الحسن والقبول ، وما من كلمة من كلامهم ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة . ولكنه حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعي سمعك ، ويثقل صدرك ، ويملك قلبك . وسوء الاختيار في شيء من ذلك قد ينزل به حتى تمجّه أذنك ، وتغشي منه نفسك ، وينفر منه طبعك .

(١) السورة ٤١ الآية ٤٤

ذلك أن اللغة فيها العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمبين . وفيها العبارة والإشارة والضحوى والإيماء . وفيها الخبر والإنشاء . وفيها الجمل الإسمية والفعلية . وفيها النفي والإثبات . وفيها الحقيقة والمجاز . وفيها الإطناب والإيجاز . وفيها الذكر والحذف . وفيها الابتداء والعطف . وفيها التعريف والتذكير . وفيها التقديم والتأخير وهلم جرّاً .. ومن كل هذه المسالك ينفذ الناس إلى أغراضهم . غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة جملة ، بل هم في شعابها يتفرقون ، وعند حدودها يلتقون .

بيد أنه ليس شيء من هذه المسالك بالذي يجمل في كل موطن ، وليس شيء منها بالذي يقبح في كل موطن . إذاً لكان الأمر على طالبه ، ولأصحبته البلاغة في لسان الناس طعماً واحداً ، وفي سمعهم نغمة واحدة . كلا ، فإن الطريق الواحد قد يبلغك مأمناً حيناً ، ويقصر بك عن غايتك حيناً آخر ، وربّ كلمة تراها في موضع ما كالخرزة الضائعة ثم تراها بعينها في موضع آخر ، كالدرّة اللامعة . فالشأن إذاً في اختيار هذه الطرق أيها أحمق بأن يسلك في غرض غرض ، وأيها أقرب توصيلاً إلى مقصد مقصد : ففي الجدال أيها أقوم بالحجة . وأدحض للشبهة ، وفي الوصف أيها أدق تمثيلاً للواقع ، وفي موطن اللين أيها أخف على الأسماع وأرق بالطباع ، وفي موطن الشدة أيها أشد إطلاعاً على الأفئدة بتلك النار الموقدة . وعلى الجملة أيها أوفى بحاجات البيان وأبقى بطراوته على الزمان .

والأمر في هذا الاختيار عسير غير يسير ، لأن مجال الاختيار كثير الشعب ، مختلف الألوان في صور المفردات والتراكيب . والناس ليسوا سواء في استعراض هذه الألوان ، فضلاً عن الموازنة بينها ، فضلاً عن حسن الاختيار فيها . فربّ رجلين يهتدي أحدهما إلى ما غفل عنه صاحبه ، ويفعل كل منهما عما هدى إليه الآخر . وربّ وجه واحد يفوتك هاهنا يعدل وجهين تحصلهما هناك ، أو بالعكس .

وعن جملة الملاحظات التي يلاحظها القائل في قوله ، تتولد صورة خاصة مثلها في هذه المركبات المعنوية مثل « المزاج » في تلك المركبات العنصرية المادية . وهذا « المزاج » هو الذي نسميه بالأسلوب أو الطريقة . وعلى حسبه يقع التفاوت في درجات الكلام وفي حظه من الحسن والقبول . فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد ، وأسمها رحماً بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به : بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين ، وقراره المكين . لا يوماً أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً ، ولا الساكن يبني عن منزله حولاً .. وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان .

هذا مطلب له دليله ، وإجمال له تفصيله . وليس من قصدنا أن نُعجلك الآن بالبحث في أدلته وتفاصيله . وإنما أردنا أن نزيح عنك هذه الشبهة لتعلم أن ليس كل كلام عربي ككل كلام عربي ، وأن هذه الناحية اللغوية جديرة بأن تتفاوت فيها القوى نازلة إلى حد العجز ، أو صاعدة إلى حد الإعجاز .

فإن أحببت أن تعرف للقرآن الكريم سيقته وبلوغه الغاية في هذا المضمار وأنت بعد لم تُرزق قوة الفصل بين درجات الكلام فاعلم أنه لا سبيل لك إلى القضاء في هذا الشأن عن حسن وخبرة . وإنما سبيلك أن تأخذ حكمه مسلماً عن أهله وتقتنع فيه بشهادة العارفين به وإذاً يكون من حَقك علينا أن نقدم لك مثلاً من شهاداتهم . فخذ الآن هذا المثال :

جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رَقَّ له . فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال له : يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله . قال الوليد : لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً . قال : فقل

فيه قولاً يبلغ قومك أنك مُنكر له وكرهه . قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر لا يبرجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثير أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يُعلَى . وإنه ليحطم ما تحته .. الحديث^(١) رواه الحاكم عن ابن عباس . وقال صحيح على شرط البخاري .

نعم إن كنت لا تفرق بين كلام وكلام فهذه شهادة حسبك من شهادة . وناهيك أنها شهادة أهل اللغة أنفسهم ، بل شهادة الأعداء لعدوتهم .

وإذا لم ترَ الهلال فسلم لأُناس رأوه بالأبصار

وأما إن كنت قد أوتيت حظك من معرفة فروق الكلام والمبتر بين أساليبه فاقراً ما شئت من خطب العرب وأشعارها ، وحكمها وأمثالها ورسائلها ومحاوراتها ، متبعاً في ذلك عصور الجاهلية والإسلام على اختلاف طبقاتها ، ثم افتح صفحة من هذا الكتاب العزيز وانظر ماذا ترى ؟

أسلوب عجب ، ومنهج من الحديث فذ مبتكر ، كأن ما سواه من

(١) للحديث بقية ، وهي أن أبا جهل ألح على الوليد وقال له : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . فقال الوليد : دعني أفكر . فلما فكر قال : هذا سحر يأتريه عن غيره . وفي ذلك نزل قوله تعالى (ذوق ومن خلقك وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد . كلا ، إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكسر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر) - الآيات من سورة المدثر ٧٤ : ١١ وما بعدها فانظر تصوير القرآن للجهد العنيف الذي بذله الرجل في إصدار حكمه الثاني حيث يقول إنه فكر وقدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر . ومعنى هذا كله أنه كان يقاوم فطرته ، ويستكره نفسه على مخالفة وجدانه ، وأنه كان في حيرة وضيق بما يقول ... وأخيراً استطاع أن يقول ما قال نزولاً على إرادة قومه . وانظر الفرق بين هذا الحكم المصطنع وبين حكم البدية العربية في قوله أول مرة : إنه يعمل وما يعمل وإنه يحطم ما تحته .

أوضاع الكلام منقول ، وكأنه بينها على حد قول بعض الأدباء « وضع مرتجل » لا ترى سابقاً جاء بمثاله ، ولا لاحقاً طبع على غرارهِ . فلو أن آية منه جاءت في جمهرة من أقوال البلغاء لدلت على مكانها . واستمازت من بينها ، كما يسميز اللحن الحساس بين ضروب الألحان ، أو الفاكهة الجليلة بين ألوان الطعام .

٥ - سيقول السائل إذا انتهى معنا إلى هذا الموضع : لقد أغلقتم عنا بهذا البيان باباً من الشك ، ولكنكم لم تلبثوا أن فتحتم علينا منه باباً جديداً . ألم تقولوا لنا إن هذه الصناعة البيانية ليست في الناس بدرجة واحدة ، وإن القوى تذهب فيه متفاوتة على مراتب شتى فما نرى إذاً علينا من حرج أن نعد الإعجاز الذي حدثمونا عنه أمراً مشاعاً يجري في أساليب الناس كما يجري في القرآن . ألا ترون أن كل قائل أو كاتب إنما يضع في بيانه قطعة من عقله ووجدانه على الصورة التي تهديه إليها فطرته ومواهبه ؟ وأن اختلاف الناس في هذه الوسائل يتبعه ألبتة اختلاف طرائقهم في التعبير عن أغراضهم ؟ إنكم تستطيعون أن تحصوا في اللغة العربية صوراً كلامية بعدة الناطقين بها ، بحيث لا تجلدون كاتباً يكتب كما يكتب كاتب آخر على السواء ، ولا قائلًا كذلك . بل أنتم لا محالة واجدون عند كل واحد منهاجاً خاصاً في الأداء : فليس البدوي كالحضري ، ولا الذكي كالغبي . وليس الطائش كالخليم ، ولا المريض كالسليم . وليس الأدنى في هذا الباب يستطيع الصعود إلى الأعلى ، ولا الأعلى يستطيع النزول إلى الأدنى . بل المتشابهان فطرة ومزاجاً ، المتساويان تربية وتعلماً قد يشربان من كأس واحدة ثم لا يتناطقان بالكلام على صورة واحدة . فكيف تأمرون الناس أن يجيثوكم بمثل القرآن وهم لا يقدرُونَ أن يجيئ بعضهم بمثل كلام بعض ؟ وكيف تعدون عجزهم عنه آية على قدسيته وأنتم لا تعدون عجز كل امرئ عن الإتيان بأسلوب غيره آية على أن ذلك الأسلوب صنع إلهي محض لا كسب فيه للذي جرى على لسانه ؟ أليس هذا القياس يسوغ لنا أن نفترض القرآن كلاماً بشرياً كسائر كلام البشر ، غير

أنه يختص أسلوبه بصاحبه كما يختص كل امرئ بأسلوب نفسه ؟ وجوابنا لهذا القائل أن نقول له : لسا نماريك في أن كلام المتكلم إنما هو صورة تملئها عليه فطرته ومواهبه ، ولا في أن هذه الفطر والمواهب لتفاوتها عند أكثر الناس لا بد أن تترك أثرها من التفاوت في صور كلامهم ، ولا في أن تلك الفطر والمواهب إن تشابهت عند فريق من الناس فأملت عليهم صوراً متشابهة من القول فإنها لا تخرجها في عامة الأمر صورة واحدة . كل هذا نسله ولا ننكره . ولكنه لا يضرنا ولا يوهن شيئاً من حجتنا . ذلك أننا حين نتحدى الناس بالقرآن لا نطالبهم أن يجيئون بنفس صورته الكلامية . كلا ، ذلك مالا نطعم فيه ، ولا ندعو المعارضين إليه . وإنما نطلب كلاماً أيّاً كان نمطه ومنهجه ، على النحو الذي يحسنه المتكلم أيّاً كانت فطرته ومزاجه ، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية حاذاه أو قاربه في ذلك المقياس وإن كان على غير صورته الخاصة . فالأمر الذي ندعوه إلى التماثل أو المقاربة فيه هو هذا القدر الذي فيه يتنافس البلغاء ، وفيه يتماثلون أو يتقاربون . وذلك غير المعارض والصور المعينة التي لا بد من الاختلاف فيها بين متكلم ومتكلم .

فإن عسر عليك أن تفهم كيف نجيء المماثلة مع هذا الاختلاف ضربنا لك مثلاً : قوماً يستيقنون إلى غاية محدودة وقد اتخولوا لذلك مجالاً واسعاً لا يراحم بعضهم فيه بعضاً ، ولا يضع أحدهم قدمه على موضع قدم صاحبه ، بل جعل كل منهم يذهب في طريقه الخاص به موازياً لقيرنه في المبدأ والوجهة . ثم يكون منهم المجتلي والمصلّي ، والمقفّي والتالي ، ويكون منهم من لا يحفظ له في الرهان . ويكون منهم المتكافئون المتعادلون . وهكذا تراهم وهم مختلفون المنازل يقع بينهم التماثل كما يقع بينهم التفاضل ؛ بنسبة ما قطعه كل منهم من طريقه إلى الغاية المشتركة .

فكذلك المتنافسون في حكمة البيان يعمد كل منهم إلى الغرض من الطريق التي يرضاها ، وعلى الوجه الذي يستمليه من نفسه ، ثم يقع بينهم التماثل

أو التفاضل على قدر ما يوفون من حاجات البيان أو ينقصون منها ، وإن اختلفت المذاهب التي انتحاهها كل منهم .

هـب إذا المدعوين لمعارضة القرآن فيهم الأكفاء والأنداد لنبي القرآن في الفطرة والسليقة العربية ، أو من هم أكل منه فيها ، أو هيهم جميعاً دونه في تلك المنزلة . فأما الأعلون فسيجيئون على وفق سليقتهم بقول أحسن من قوله . وأما الأنداد فسيجيئون بشيء مثله . وأما الآخرون فلن يكبر عليهم أن يقاربوا ويحيثوا بشيء من مثله^(١) وشيء من هذه المراتب الثلاث^(٢) لو تم^٣ لكان كافياً في رد الحجة وإبطال التحدي .

ستقول : بل أختار الواقع ، وهو أن العرب على اختلاف مراتبهم في البيان لم يرتفعوا إلى طبقة البلاغة المحمدية ، وأزعم أن هذا القصور الذاتي الذي قعد بهم عن مجاراته في عامة كلامه هو الذي قعد بهم عن معارضة قرآنه . وإذا لا يكون هذا العجز حجة لكم على قدسية الأسلوب القرآني كما لم يكن حجة عندكم على قدسية الأسلوب النبوي .

فنجيب : أما أن محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان هو أفصح العرب وكان له في هذه الفضيلة البانية المقام الأول بينهم غير مزاحم فذلك مالا نمارى - بل لا نتمري - فيه نحن ولا أحد من يعرف العربية ، غير أننا نسأل ما مبلغ هذا التفاوت الذي كان بينهم وبينه ؟ أكان مما يتفق مثله في مجاري العادات بين بعض الناس وبعض في حدود القوة البشرية ، أم كان أمراً شاذاً خارقاً للعادة بالكلية ؟

فأما إن كان كما نعهد شبيهاً بما يكون في العادة بين البليغ والأبلغ ، وبين الحسن والأحسن ، فلا شك أن هذا النحو من العلو إن حال بينهم وبين

المعجز بمثل كلامه كله لم يكن ليحول بينهم وبين قطعة واحدة منه ، ولئن أعجزهم هذا القدر اليسير أن يحتذوه على التمام لم يكن ليعجزهم أن ينزلوا منه بمكان قريب . ألا وإننا قد أرخينا لهم العنان في معارضة القرآن بهذا أو ذاك ، وأغمضنا لهم فيما يحيثوننا أن يكون كلاماً أو بعضاً ، وكثيراً أو يسيراً ، ومماثلاً أو قريباً من المماثل ، فكان أعجزهم عن ذلك كله سواء .

وأما إن قيل إن التفاوت بينه عليه السلام وبين سائر البلغاء كان إلى حد المقطاع صلتهم به جملة ، لاختصاصه من بين العرب ومن بين الناس بفطرة شاذة لا تنتسب إلى سائر الفطر في قليل ولا كثير إلا كما تنتسب القدرة إلى العجز ، أو الإمكان إلى الاستحالة فلا شك أن القول بذلك هو أخو القول بأن من الإنسان ما ليس بإنسان ، أو هو التسليم بأن ما يجيء به هذا الإنسان لا يكون من عمل الإنسان . ذلك أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة . والطبائع الشخصية تقع فيها الأشباه والأمثال في الشيء بعد الشيء وفي الواحد بعد الواحد ، إن لم يكن ذلك في كل عصر ففي عصور متطاولة ، وإن لم يكن في كل فنون الكلام ففي بعض فنونه . وكائن رأينا من أناس كثيرة تشابه قلوبهم وعقولهم وألستهم فتتوافق خواطرهم وعباراتهم حيناً ، وتتقارب أحياناً ، حتى لقد يخيل إليك أن الروح الساري في القولين روح واحد ، وأن النفس هاهنا هو النفس هناك . وكذلك رأينا من الأدباء المتأخرين من يكتب بأسلوب ابن المقفع وعبد الحميد ، ومن يكتب بأسلوب الهمداني والحوارزمي ، وهلم جرا .

فلو كان أسلوب القرآن من عمل صاحبه الإنسان لكان خليقاً أن يجيء بشيء من مثله من كان أشبه بهذا الإنسان مزاجاً ، وأقرب إليه هدياً وسمناً ، وألصق به رحماً ، وأكثر عنه أخذاً وتعلماً . أو لكان جديراً بأصحابه الذين نزل القرآن بين أظهرهم فقرأوه واستظهروه ، وتذوقوا معناه وتمثلوه . وترسموا خطواته واغترفوا من مناهله أن يدنوا أسلوبهم شيئاً من أسلوبه على ما تقتضي به غريزة التأسي ، وشيعة نقل الطباع من الطباع . ولكن شيئاً من

(١) لا تنس ما قررناه في الفرق بين هذه الطبقة والتي قبلها من - ٧٨

(٢) غير أن المرتبة الأولى مسكوت عنها في القرآن الكريم استقصاءً لهمهم واكتفاءً بتصغيرهم عما بعدها .

ذلك كله لم يكن ، وإنما كان قُصارى فضل البليغ فيهم كما هو جهد البليغ
فينا أن يظهر بشيء يقتبسه منه في تضاعيف مقالته ليزيدها به علواً ونباهة شأن .

بل نقول لو كان الأسلوب القرآني صورة لتلك الفطرة المحمدية لوجب
على قياس ما أصْلَتْه من المقدمات أن ينطبع من هذه الصورة على سائر
الكلام المحمدي ما انطبع منها على أسلوب القرآن ، لأن الفطرة الواحدة
لا تكون فطرتين ، والنفس الواحدة لا تكون نفسين^(١) ونحن نرى الأسلوب

(١) هنا موضع سؤال فكأننا بقائل يقول لنا : إنه ليس بدءاً من الأمر أن يكون للرجل
البليغ ضربان من الكلام ، أحدهما يجيئه على البديهة فيرسله إرسالاً غير معنى بهذيه وتحيريه . والآخر
يتأني له بالروية ويحتفل به احتفالاً يجعل بينه وبين الضرب الأول بدءاً شامساً يحيل للسامع أنه
قول شخص آخر مع صدور القولين عن قائل واحد . فهنا يطبق هذا المثل على الكلام المحمدي
فجعل حديث من الضرب الأول وقرآنه من الضرب الثاني ؟

والجواب أن توزيع هذين الضربين على الحديث والقرآن توزيع لا يتفق والواقع في شيء . فقد
كان أكثر الوحي القرآني يحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم في شأن لم يسبق له عهد به ولم يتقدم منه
تفكير فيه ، بل كان يفاجئه من فوره على غير توقع وانتظار ، جواباً لسؤال سائل ، أو فتياً
في حادثة زلت ، أو قصصاً عن أمة مضت ، أو ما إلى ذلك . وقليلاً ما كان يجيئه بعد تشوف
وتلبث تمكن فيه الروية ، كما في مسألة الإفك ومسألة تحويل القبلة . وقد رأينا أسلوبه في كلتا
الحالتين فإذا نسقه هو نسقه ونظامه هو نظامه . وكذلك نقول إن كلامه النبوي كانت تختلف عليه
هذه الظروف ويتحد فيها أسلوبه . فقد كان يتكلم أحياناً بعد تفكير طويل وروية وتشاور مع
أصحابه كما رأينا من حديثه في مسألة الإفك (ص ١٦) وكما نرى من حديثه بعد التشاور في شؤون
الحرب والصلح ونحوها . وأحياناً بعد تلبث يسير انتظاراً للوحي كما في قصة الرجل الذي جاء
في الجعرانة سنة ثمان فسال عن العمرة وهو متضخم بالطيب وعليه جبة فظفر إليه النبي ساعة ثم
سكت حتى جاءه الوحي ، فلما سرى عنه قال : أين السائل عن العمرة . فجيء به ، فقال صلى الله عليه وسلم
أما الطيب الذي بك فأغسله ثلاث مرات ، وأما الجبة فافزعها واصنع في عمرتك ما تصنع في حجبك
رواه الشيخان . وأخرى كان يتكلم على البديهة فيما لا يشكل عليه أمره مما سبق به قضية العقل
أو الدين . وهو في كل ذلك يجري كما ترى على نمط واحد لا تستطيع أن تميز في أسلوبه بين ما
كان معناه مدبراً بالرأي وما كان معناه معلماً بالوحي . ولا بين ما يرسله إرسالاً في حديثه مع
أهله وأصحابه وما يحتفل به احتفالاً في الجمهور المحشودة والأيام المشهودة . فتبين بطلان ما اعتضده
السائل من تفرقة بين القرآن والحديث على هذا النحو . بل إنما لو ذهبنا إلى أبعد من ذلك وافترعنا =

القرآني فنراه ضرباً وحده ، ونرى الأسلوب النبوي فنراه ضرباً وحده لا
يجري مع القرآن في ميدان إلا كما تجري علفات الطير في جو السماء لا تستطيع
إليها صعوداً . ثم نرى أساليب الناس فنراها على اختلافها ضرباً واحداً لا
تعلو عن سطح الأرض فمنها ما يحبو حبواً ، ومنها ما يشتد عدواً . ونسبة
أقواها إلى القرآن كنسبة هذه « السيارات » الأرضية إلى تلك « السيارات »
السموية !

نعم لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوي فتطمع في اقتناصها ومجاراتها

= جدلاً صحة هذا التقسيم لما صلح أساساً يقوم عليه ببيان الشبهة ، لأن انقسام الكلام
إلى المرسل على البديهة والمزور بالروية ما كان ليتفاوت به منهج الكلام عند العرب
الخالصين هذا التفاوت البعيد الذي يظن فيه أنه قول قائلين . وإنما ظهر هذا التفاوت منذ
انفرس أهل السليقة العربية . ونبتت نابتة المولدين الذين أغفوا هذه اللغة عن غير أهماتهم
فكانت لتتهم التي بها يتكلمون غير اللغة التي بها يكتبون وهكذا أمكن أن يكون لكل
أمنهم أسلوبان متباينان ، ينزل بأحدهما إلى العامة الطبيعية ويصعد بالآخر إلى العربية المكسوبة .
ما العربي الفصح فإنه في عامة أمره ما كان يزيده التفكير والتقدير والروية إلا استيعاباً لأطراف
الحديث واستكمالاً لمقاصده ولم يكن ذلك ليخرجه عن أسلوبه وطريقته ولنته الخاصة التي يالفاها
طبعه وتفيض بها سجيته وهي اللغة التي يحتذيها أهل الفن منا بعد محاولة ومعالجة . ولئن كان فهم قليل
من يريد القول على غير سجيته ويتعمل له ما ليس من عادته في كلامه ، لقد كان هذا التكلف غير
مخرج له عن حدود منعه جملة . بل كان يترك في غصون حديثه ما يتم على روحه ومشربه . على أن
الكلام بعد تلك المعاناة لم يكن ليزداد فصاحة وحسناً . بل كان ينزل في هذا الباب بقدر ما
يحسب الخاسب أنه يصعد فيه . ومن هنا كانت العرب تتأدح بالأمر يحيى طبعاً لا تكلفاً . ولم يكن
النبي صلى الله عليه وسلم في شيء ما من المتكلمين بل كان أشد الناس كراهية للتكلف في الكلام
وغيره . وكان يقول : « هلك المتكلمون » رواه مسلم وأبو داود . والتطبع في الكلام التمتع
فيه والتفاحص . وانظر دمة للرجل الهلالي حين خاصم في دية الجنين فقال : يا رسول الله كيف
أفرم دية من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ؟ فمثل ذلك يطل أي هدر دمه . فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هذا من اخوان الكهان من أجل سجيته الذي سجع . رواه
الشيخان وغيرهما . وفي رواية : أسجع كسج الأعراب ؟ وفي أخرى : أسجع الجاهلية وكهانتها ؟
فلم هذا النوع من السجع وهو ما كان كسج الكهان مصنوعاً غير مطبوع . وكان المعنى فيه تاباً
لللفظ وليس اللفظ تاباً للمعنى .

كما تطمع في اقتناص الطائر أو مجاراته ، ولقد تقرأ الكلمة من الحكمة فيشتبه عليك أمرها : أمين كلمات النبوة هي أم من كلمات الصحابة أو التابعين . ذلك على ما علمت من امتياز الأسلوب النبوي بمزيد الفصاحة ونقاء الديباجة وإحكام السرد . ولكنه امتياز قد يدق على غير المنتهين في هذا الفن . وقد يقصر الذوق وحده عن إدراكه ، فيلجأ إلى النقل يستعينه في تمييز بعض الحديث المرفوع من الحديث الموقوف أو المقطوع^(١) .

أما الأسلوب القرآني فإنه يحمل طابعاً لا يلتبس معه بغيره ، ولا يجعل طامعاً يطمع أن يحوم حول حماه ، بل يدع الأعناق تشرئب إليه ثم يردّها ناكسة الأذقان على الصدور .

كل من يرى بعينين أو يسمع بأذنين إذا وضع القرآن يلزأ غير القرآن في كفتي ميزان ، ثم نظر بإحدى عينيه أو استمع بإحدى أذنيه إلى أسلوب القرآن ، وبالأخرى إلى أسلوب الحديث النبوي وأساليب سائر الناس ، وكان قد رزق حظاً ما من الحاسة البينانية والذوق اللغوي فإنه لا محالة سيؤمن معنا بهذه الحقيقة الجلية ، وهي أن أسلوب القرآن لا يدانيه شيء من هذه الأساليب كلها . ونحسب أنه بعد الإيمان بهذه الحقيقة لن يسهه إلا الإيمان بتأليتها .. إستدللاً بصنعة « ليس كمثلها شيء » على صانع (ليس كمثل شيء » وهو السميع البصير) .

٦- فإن كان السائل من طلاب الحق كما وصفتنا ، وانتهى من بحثه إلى حيث أشرنا ، فأبصر وسمع ، وقايس ووازن ، وذاق ووجد فسوف يتقدم إلينا بكلمته الأخيرة قائلاً : - نعم لقد نلت كنانة الكلام بين يدي وعجمت سهامها فما وجدت كالقرآن أصلب عوداً ولقد وردت مناهل القول وتذوّقت طعومها فما وجدت كالقرآن أعذب مورداً . والآن آمنت

(١) ألقاب اصطلاح عليها علماء الرواية : يعنون من المرفوع ما نسب إلى النبي والموقوف ما نسب إلى الصحابة ، والمقطوع ما نسب إلى التابعين .

أنه كما وصفتموه نسيج وحده ، وأنه يعلو وما يُعلَى ، وأنه يحطم ما تحته . غير أنني وقد أدركت من قوة الأسلوب القرآني وحلاوته ما أدركت - لم يزل الذي أحس به من ذلك معنى يتجمجم في الصدر لا أحسن تفسيره ولا أملك تعليله . وما زالت النفس بعد هذا وذاك نزاعة إلى درس تلك الخصائص والمزايا التي استأثر القرآن بها عن سائر الكلام ، وكان فيها سر إعجازه اللغوي . فهل من سبيل إلى عرض شيء من ذلك علينا لتطمئن به قلوبنا ، ونزداد إيماناً إلى إيماننا ؟

نقول : أما الآن فقد والله طلبت منا جسيماً ، وكلّفنا مراماً بعيداً لمثلته انتدب العلماء والأدباء من قبلنا وفي عصرنا ، فحقيقت من دونه أقلامهم ، ولم يزيدوا إلا أن ضربوا له الأمثال ، واعترفوا بأن ما خفى عليهم منه أكثر مما فطنوا له ، وأن الذي وصفوه مما أدركوه أقل مما ضاقت به عباراتهم ، ولم تقف به إشاراتهم .

ونحن وقد أفضت إلينا النبوة من بعدهم هل تحسب أننا سنسلك سبيلاً غير سبيلهم فنزعم أننا في هذه العجالة سنبرز لك سر الإعجاز جملة ؟ كلا ، ولا استقراء ما كشفه الناس من جوانبه ، كلا ولا استقصاء ما نحسّه نحن من تلك الجوانب . وإنما نريد أن نصور لك بعض تلك الخصائص التي تلاقينا من كتاب الله كلما سمعناه أو تلوناه وتدبرناه . لعلك واجد في القليل منها ما لا تجده في الكثير مما يعدّه الناس . كأن زادك الناس من ذلك أنواعاً رجونا أن نزيدك من النوع الواحد إقناعاً وانتفاعاً .

أول ما يفجؤك

أول ما يلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره .

١- دع القارئ المجوّد يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على

هوى القرآن ، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه . ثم انبذ منه مكاناً قصيباً لا تسمع فيه جرس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ، ومداتها وغنائها ، واتصالاتها وسكناتها ، ثم ألقى سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جرّدت تجريداً وأرسلت ساذجة في الهواء . فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرّد هذا التجريد ، وجوّد هذا التجويد .

ستجد اتساقاً واتساقاً يسترعي من سمعك ما تسرعه الموسيقى والشعر . على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر . وستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر . ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتاً بيتاً ، وشطراً شطراً ، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهباً متقارباً . فلا يلبث سمعك أن يمجها ، وطبعك أن يملأها ، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد . بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متنوع متجدد ، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل^(١) على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء . فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم . بل لا تفتأ تطلب منه المزيد .

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن . حتى الذين لا يعرفون لغة العرب . فكيف يخفى على العرب أنفسهم ؟

وترى الناس قد يتساءلون : لماذا كانت العرب إذا اختصمت في القرآن فارنت بينه وبين شعر نفياء وإثباتاً ، ولم تعرض لسائر كلامها من الخطابة وغيرها ؟

(١) هل أنت بحاجة إلى معرفة مسميات هذه الألقاب ؟ الحرف المتحرك يتلوه حرف ساكن يقال لها « سبب خفيف » . والحرفان المتحركان يتلوهما ساكن « وتد مجموع » والحرفان المتحركان لا يتلوهما ساكن « سبب ثقل » والحرفان المتحركان يتوسطهما ساكن « وتد مفروق » وثلاثة أحرف متحركة يعقبها ساكن « فاصلة صغيرة » وأربعة أحرف متحركة يعقبها ساكن « فاصلة كبيرة » .

وأنت فهل تبينت هاهنا الجواب ، وهديت إلى السر الذي فطنت له العرب ، ولم يفتن له المستعربون ؟

إن أوّل شيء أحسّته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسّمت فيه الحركة والسكون تقسيماً متنوعاً يحدد نشاط السامع لسماعه ، ووزعت في تضاعيفه حروف المدّ والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادى النفس فيه آنأ بعد آن ، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحتها العظمى . وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حدّ الإسراف في الاستهواء ثم إلى حدّ الإملال في التكرير . فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتنهاها بتلك السهولة في مثبور كلامها سواء منه المرسل والمسجوع ؛ بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب تغض من سلاسة تركيبه ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلاّ بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه .

لا عجب إذاً أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر ؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلاّ في الشعر . ولا عجب أن ترجع إلى أنفسها ، فتقول : ما هو بشعر ؛ لأنه — كما قال الوليد^(١) — ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده . ثم لا عجب أن تجعل مرّداً هذه الحيرة أخيراً إلى أنه ضرب من السحر ؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حدّ وسط ؛ فكان له من النثر جلاله وروعته ، ومن الشعر جماله ومتعته .

٢ — فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً ، فطرفت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة . فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها : هذا ينقر وذاك يصفر ، وثالث يهمس ورابع يجهر ، وآخر ينزلق عليه النفس . وآخر يحتبس عنده

(١) تقدست كلمة الوليد في ذلك (ص ٩٢)

النفس . وهلمَّ جرّاً . فترى الجمال اللغوي مائلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة^(١) لا كركرة ولا ثرثرة ، ولا رخاوة ولا معازلة . ولا تناكر ولا تنافر . وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضري الفاتر ، ولا بالبدوي الخشن ، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلاستها ، وقدّر فيه الأمر أن تقديراً لا يبغي بعضهما على بعض . فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتهما ، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل ، عندها تلتقي أذواقهم ، وعليها تأتلف قلوبهم .

من هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني . وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من الآليء النفيسة ، فإنه جلّت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يُغشّى جلال أسرارها بأستار لا تخلو من متعة وجمال ، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقاءها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها . أنظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قواماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة . فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم قضت حكمته أن يختار لها صواناً يحببها إلى الناس بعبوديته ، ويغريهم عليها بطلّواته ، ويكون بمنزلة « الحداء » يستحث النفوس على السير إليها . ويهون عليها وعناء السفر في طلب كمالها . لا جرم اصطفتى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل . ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وأذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع ، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سرّه ، وينفذون بها إلى بعيد غوره (إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون)^(٢) .

(١) من وقف على صفات الحروف وبخارجها ازداد بهذا المعنى علماً . وإن شئت فارجع إلى ما كتبه الأديب الرافعي عن هذه الناحية في كتابه الموسوم (إعجاز القرآن) فقد أطال نفسه فيها وأجاد .
(٢) سورة « ١٥ » الآية ٩

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزّة وغرابة ؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياح ؟ فاعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز ، واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدلين ، وأن ذلك الجمال ما كان ليكفي وحده في كف أيديهم عنه ، بل كان أجدر أن يغريهم به . ذلك أن الناس — كما يقول الباقلاني^(١) : — إذا استحسنا شيئاً اتبعوه ، وتنافسوا في محاكاته بباعث الحيلة . وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضاً فيما يستجدونه من الأساليب ، وربما أدرك اللاحق فيهم شأؤ السابق أو أربى عليه ، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض . وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلا مناهل مورودة ، ومسالك معبّدة ، تؤخذ بالتعلم ، وتُراض الألسنة والأقلام عليها بالمرانة ، كسائر الصناعات .

فما الذي منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألستهم وأقلامهم وهم شرّع في استحسان طريقتهم ، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته ؟

ما ذاك إلا أن فيه منّة طبيعية كفّت ولا تزال تكف أيديهم عنه ، ولا ريب أن أول ما تلاقيك هذه المناعة فيما صورناه لك من غريب تأليفه في بنيته ، وما اتخذ في رصف حروفه وكلماته ، وجمله وآياته ، من نظام له سمت وحده ، وطابع خاص به ، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه . فلا جرم لم يحلوا له مثلاً يحاذونه به ، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه . وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام الناس ، من السابقين منهم أو اللاحقين ، من الحكماء أو

(١) في كتابه « إعجاز القرآن » .

البلغاء أو النبيين والمرسلين ، لأفسد بذلك مزاجته في فهم كل قارئ ، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع وإذا لناذى الداخذل على نفسه بأنه واغل دخيل ، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكبرُ خبثَ الحديد (وإنه لكتابٌ عزيزٌ لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفهِ . تنزيلٌ من حكيم حميد)^(١).

• • •

فإذا أنت لم يُلْهِكَ جمال العطاء عما تحته من الكنز الدفين ، ولم تحجبك بهجة الأستار عما وراءها من السرِّ المصون ، بل فليت القشرة عن لبِّها ، وكشفت الصدفة عن درِّها ، فنفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي ، تجلّى لك ما هو أبهى وأبهر ، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع .

لا نريد أن نحدّثك هاهنا عن معاني القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن تناول البشر ، فإن لهذا الحديث موضعاً يجيء إن شاء الله تعالى في بحث الإعجاز « العلمي » وحديثنا كما ترى لا يزال في شأن الإعجاز « اللغوي » وإنما اللغة ألفاظ .

بيد أن هذه الألفاظ ينظر فيها « تارة » من حيث هي أبنية صوتية مادتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات من غير نظر إلى دلالتها . وهذه الناحية قد مضى لنا القول فيها آنفاً « وتارة » من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها ، وهذه هي الناحية التي سنعالجها الآن ، ولا شك أنها هي أعظم الناحيتين أثراً في الإعجاز اللغوي الذي نحن بصددده ، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان ، أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام .

أما النظر في المعاني القرآنية من جهة ما فيها من العلوم العجيبة فتلك خطوة

(١) سورة فصلت « ٤١ » الآية ٤١

أخرى ونظرة خارجة عن البحث اللغوي جملة ، إذ الفضيلة البيانية إنما تعتمد دقة التصوير وإجادة التعبير عن المعنى كما هو ، سواءً عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ما تتناوله عقول الناس أولاً يكون ، بل سواءً عندها أن يكون ذلك المعنى حقيقة أو خيالاً ؛ وأن يكون هدى أو ضلالاً^(١) ؛ عكس الفضيلة العلمية ، فإنها عائدة إلى المعنى في نفسه على أي صورة أخرجته ، وبأي لغة عبرت عنه .

نعم قد تتفاوت اللغات في الوفاء بحق المعنى فيكون التعبير الجيد مما يزيد في قيمته العلمية ، لكن النظر ههنا في قيمة البيان لا في قيمة المبيّن . فلا تعجل علينا بتلك النظرة العلمية حتى تفرغ من هذه النظرة اللغوية . والآن فلنبداً وصفتنا لبعض خصائص القرآن البيانية . ولترتيبها على أربعة مراتب : —

١ — القرآن في قطعة قطعة^(٢) منه

٢ — القرآن في سورة سورة منه .

٣ — القرآن فيما بين بعض السور وبعض .

٤ — القرآن في جملته .

(١) ولذلك كانت حكايات القرآن لأقوال المبطلين لا تقصر في بلاغتها عن سائر كلامه ، لأنها تصف ما في أنفسهم على أم وجه .

(٢) تريد منها ما يؤدي معنى تاماً كالذي يؤدي عادة في بضع آيات . وقد يؤدي في آية طويلة ، أو سورة قصيرة . وهو الحد الأدنى الذي تنزل إليه التحدي أخيراً إذ قال : « فأتو بسورة » ولم يقل بسورة من طوالة أو أوساطه ، بل أطلق إطلاقاً ، فتناول ذلك سور المفصل الذي كان قد نزل أكثره بمكة قبل أن ينزل هذا التحدي الأخير ، حتى سورة العصر والكوثر .

وبعض الناس — كذا نقله الألويسي في مقدمة كتابه روح المعاني عن قائل مجهول — يذهب إلى أن التحدي لم يقع بمطلق سورة ، بل بسورة « تبلغ مبلغاً يتبين فيه رتب ذوي البلاغة » كأنه رأى أن هذه الرتب لا تتبين في مقدار ثلاث آيات مثلاً . وهذا وإن لم يكن قادحاً في إعجاز القرآن ، ولا مبطلاً لحجته (إذ يكفي ثبوت إعجازه ولو في قدر سورة البقرة أو سورة يونس ، أو سورة هود ، أو سورة الإسراء ، أو سورة الطور . وهي السور التي ورد فيها ذكر التحدي) إلا أننا نحسب أن صاحب هذا القول حين ذهب إليه إنما ظن ظناً لم يستيقنه ، واستبعد استبعاد أن تكون هذه السور القصار معجزة في بيانها ، لأنه لم يدرك غرابة في نظمها فلم يفقه سر هذا —

هناك ، ومن أبواب العجز هاهنا أسباب الإعجاز هناك :

(١ - ب)

« القصد في اللفظ » و « الوفاء بحق المعنى »

نهائين كل من حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين
ضرتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى إحداهما :

فالذي يعتمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة
لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً . ذلك أنه إما أن يؤدي لك
مراده جملة لا تفصيلاً ، فيكون سبيله سبيل من يقول في باب المحاجة :
« صدقوا ، أو كذبوا » وفي باب الوصف « حسن ، أو قبيح » وفي باب
الإخبار « كان أو لم يكن » في باب الطلب « افعل ، أو لا تفعل » لا زائد
على ذلك . وإما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل ، ولكنه إذ يأخذ الخذر
من الإكثار والإسراف يبذل جهده في ضم أطرافه وحذف ما استطاع من
أدوات التمهيد والتشويق ، ووسائل التقرير والتثبيت ، وما إلى ذلك مما تمس
إليه حاجة النفس في البيان ، حتى يخرج ثوباً متقلصاً يقصر عن غايته ،
أو هيكلًا من العظم لا يكسوه لحم ولا عصب . ورب حرف واحد ينقص
من الكلام يذهب بمائه ورواقه ، ويكشف شمس فصاحته . ورب اختصار
يطوي الكلام طياً يزهرق روحه ويعمي طريقه ؛ ويرد إيجازه عيباً وإلغازاً .

والذي يعتمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره ؛ وإبراز كل
دقائقه « بقدر ما يحيط به علمه وما يؤديه إليه إلهامه » لا يجد له بُدّاً من أن
يمدّ في نفسه مدّاً ، لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره ، ويؤدي
عن نفسه رسالتها كاملة . فاذا أعطى نفسه حظها من ذلك لا يلبث أن يباعد
ما بين أطراف كلامه ، ويبطئ بك في الوصول إلى غايته ، فتحس بقوة
نشاطك وباعثة إقبالك آخذتين في التضاؤل والاضمحلال .

- ١ -

« القرآن في قطعة قطعة منه »

لسنا ندري والله ماذا نقول لك في أسلوب معجز في وصفه ، كما هو
معجز في نفسه ؟ غير أننا نقول كلمة هي جملة القول فيه . وهي أنه « تلتقي
عنده نهايات الفضيلة كلها . على تباعد ما بين أطرافها » .

هذه كلمة تحتاج تفسيراً طويلاً يمتليء به الصدر ولا ينطلق به اللسان .
وكل ما سنحاوله أن نفسر لك جانباً منها بقدر الطاقة . غير أننا قبل أن نحدثك
في هذا الجانب عن القرآن سنحدثك عن كلام الناس حديثاً يفهمه كل من
عالج صنعة البيان بنفسه ، لتعرف من وجوه النقص هاهنا وجوه الكمال

= الإعجاز فيها . ولكن هلا جعل ذلك حجة على قلة بضاعته في هذه الصناعة ، ولم يجعل جهله بقيمتها
حجة على عدم إيجازها

فالنجم تستنصر الأبصار رؤيته والذنب اللطيف لا للنجم في الصفر

وهلا فكر أن العرب الذين قامت الحجة بعجزهم قد استوت قدرهم أمام طوله وقصاره فلم
يمارضوا هذه ولا تلك . فهذا وحده حاسم لشبهته إن كان يكفيه البرهان . فإن أراد البيان قيل
له : اعمد إلى واحدة من تلك السور فاحصل معانيها في نفسك ، ثم جئ لها بكلام من عندك .
فسوف ترى أنك بين أمرين : إما ألا تؤدبها على وجهها في مثل هذا القدر وبمثل هذا النظم . وإما
أن تعيد عين ألفاظها . لا ثالث . وحيث أنك تتبين أن سر الإعجاز في القصير من سور القرآن
مثله في الطويل ، كما أن سر الإعجاز في خلق التلة مثله في خلق الفيل . عرف ذلك من صرفه ،
وجعله من جهله . قال ابن عطية رحمه الله : « ونحن نتبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا
وجهاً في مواضع ، لقصورنا عن رتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القرينة . وقد
قامت الحجة على العالم بالعرب ، لانتهائهم إلى غاية الفصاحة البشرية » اه عن الإتيان - نقول :
ومن سار على الدرب وصل . فإن لم يدرك كل ما تمى دله ما علم ما جهل . والله المستعان

عامة من نعرفهم من القصحاء قدامى ومحدثين يؤتون من هذا الجانب غالباً ، أعني جانب الإملال والإسراف ، لا جانب الإخلال والإجحاف . وأكثرهم تجمع بهم شهوة البيان إلى أبعد من هذا الحد « فمنهم » من يذهب إلى التكلف والتفصح باستعمال الغريب من المفردات والتراكيب ، فيكلفك أن تبدي وتعيد وتقبل وتدبر حتى تهدي إلى وجه مراده . وهكذا لا يزداد كلامه بالبسط إلا ضيقاً عن الفهم . « ومنهم » من يلتقي حول المعنى ركاماً من الحشو والقضول ينوء بحمله ، أو يلجسه ثوباً فضفاضاً من المترادف والمتقارب يتعثر في أذياله . يحسب أنه يوفي لك المعنى ويحدده ، وفي الحق إنما ينشره ويبدده . ولعل أمثل هؤلاء طريقة من لو حذفت شطر كلامه لأغناك عنه ثاني شطريه .

ذلك على أن البلاء مهما أوجفوا من ركايبهم ، ومهما أجلبوا بخيلهم ورجلهم لا يبلغ الواحد منهم بعمله غاية أمله ، وإنما يصل كما قلنا إلى كمال نسبي « بقدر ما يحيط به علمه ، وما يؤديه إليه إلهامه في الحال » أما الوفاء بالمعنى حق وفائه بحيث لا يخطئه عنصر منه ولا حيلة من حيلاه ولا ينضاف إليه عرض غريب عنه بعد رقعة في ثوبه ، ولا ينقلب فيه وضع من أوضاعه يتعص من حسن تقويمه ، وبحيث لا سبيل فيه إلى نقص أو اقتراح جديد ؛ فذلك أمر لا يستطيع أن يتحمله رجل اكوى بنار البيان ، فضلاً عن أن يتحمله لإنسان غيره .

وآية ذلك أنك تراه حين يتعقب كلام نفسه في القسنة بعد القسنة يجد فيه زائداً يححوه ، وناقصاً يشبهه ؛ ويجد فيه ما يهذب ويبدل ، وما يقدم أو يؤخر ، حتى يسلك سبيله إلى النفس سوياً . ولعله لو رجع إليه سبعين^(١) مرة لكان له في كل مرة نظرة . وكلما كان أنفذ بصراً وأدق حساً ، كان أقل في ذلك قناعة وأبعد همّاً ؛ إذ يرى وراء جهده غاية هي المثل الأعلى

(١) كما يروى عن زهير في تهذيب قصائده التي كان يسميها « الحويلات »

الذي يطمح إليه ولا يطاوعه ، والكمال البياني الذي يتعلق به خياله ولا يناله (كباسط كفيته إلى الماء ليشابغ فاه وما هو ببالغ) ^(١) .

هذا حظ الكلام البالغ عند قائله . فما ظنك بناقديه ومنافسيه ؟

وهذا وهو إنما يعمد إلى غاية واحدة . فكيف لو عمد معها إلى الغاية الأخرى ، وحاول أن يضع هذه الثروة المعنوية في لفظ قاصد ؟ وأنتى يكون له ذلك وهو سجين هذه الفطرة الإنسانية التي لا تقرب به من أحد طرفي الطريق إلا بمقدار ما تبعد به عن الطرف الآخر ؟

ولئن ظفرت بأحد وفق لتقريب تينك الغائتين إلى حد ما في جملة أو جملتين ، فربص به كيف يكون أمره بعد ذلك . وانظر كيف يدركه الكلال والإعياء وفرة الطبع الإنساني فينحل من عقدة كلامه ما كان وثيقاً ، ويذبل من زهرته ما كان غصاً طرياً ، ثم لا يعود إلى قوته إلا في الشيء بعد الشيء ، كما تصادف في التراب قطعة من الثبر هاهنا وقطعة هنالك . فتقول ؛ هذا نفيس جيد ، وهذا أنفوس وأجود ، وهذا هو واسطة العقد وبيت القصيد .

سل العلماء بنقد الشعر والكلام : « هل رأيتم قصيدة أو رسالة كلتها أو جلها معنى ناصع ، ولفظ جامع ، ونظم رائع ؟ » — لقد أجمعت كلمتهم على أن أبرع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة ، من قصائد معدودة ، وكان لهم من وراء ذلك المتوسط الرديء والغث والمستكره . وكذلك قالوا في الكتاب والخطباء . والأمر فيهم أبين .

فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغائتان على تمامهما بغير فرة ولا انقطاع ، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم ، تجد بياناً قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير ، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقدير . يؤدي لك من كل معنى صورة لقية وافية : « نقية » لا يشوبها شيء مما هو

(١) سورة الرعد « ١٣ » الآية ١٤

غريب عنها ، « وافية » لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولو احقها الكمالية . كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه . ففي كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى ، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه ، وفي كل حرف منه جزء بقدره ، وفي أوضاع كلماته من جملة ، وأوضاع جملة من آياته سر الحياة الذي ينتظم المعنى بأداته وبالجملة ترى كما يقول الباقلاني : « محاسن متوالية ^(١) ، وبدائع تشرا »

ضع يدك حيث شئت من المصحف ، وعد ما أحصته كفك من الكلمات عدداً ، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً ^(٢) عن الدفتين وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذلك . ثم انظر : كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من هذا الكلام دون إخلال بغرض قائله ؟ وأي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك ؟ فكتاب الله تعالى كما يقول ابن عطية - : « لو نُزعت منه لفظة ثم أُدير لسان العرب لفظة أحسن منها لم توجد ^(٣) » . بل هو كما وصفه الله (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) ^(٤)

(١) أصل الكلمة « تتوالى » هكذا في كتاب إعجاز القرآن للباقلاني ولكننا نقلناها بالمعنى ولم نقلها قصداً لإصلاح خطأ مشهور بين المبتدئين ، إذ يظنون كلمة « تشرا » فعلاً مضارعاً ، وإنما هي اسم منصوب أصله وتر ، أي متتابعاً . ولا يخفى أن جعل القرينة الأولى فعلاً مضارعاً من شأنه أن يقرر هذا الوهم في نفس الطالب فآثرنا تعديلها على هذا الوجه مع التنبيه على ذلك .
(٢) وكلام النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإن كان - لما أشر به من روح الوحي - أوجز وأفصح كلام تكلم به الناس ، لا يبلغ في جازته واكتنازه وامتلائه بتلك الثروة المعنوية معشار ما تجده من ذلك في القرآن الكريم
(٣) عن الإتيان

(٤) أول سورة هود « ١١ » - وأنت فأنتم النظر في هذه الآية الكريمة تجدها قد جمعت كل ما بسلطان في هذا الفصل بكلتي (الإحكام) و (التفصيل) وأي إحكام وتفصيل ؟ إحكام من (حكيم) متقن لا خلل في صناعته ، وتفصيل من (خبير) عالم بدقائق الأمور وتفاسيلها على ما هي عليه .

(ج - د)

« خطاب العامة » و « خطاب الخاصة »

وهاتان غایتان أخريان متباعدتان عند الناس . فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب . ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لختتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم . فلا غنى لك - إن أردت أن تعطى كلتا الطائفتين حظها كاملاً - من بيانك - أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى : كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال . فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء . وإلى الأذكياء والأغبياء . وإلى السوق والمملوك فبراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم . فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوى على أفهامهم . ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة فهو منعة العامة والخاصة على السواء . ميسر لكل من أراد (ولقد بَسَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ ؟) ^(١)

(ه - و)

« إقناع العقل » و « إمتاع العاطفة »

وفي النفس الإنسانية قوتان : قوة تفكير . وقوة وجدان . وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها . فأما إحداها فتتقرب عن الحق لمعرفته . وعن الخير للعمل به . وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في

(١) سورة القمر « ٥٤ » الآية ١٧

الأشياء من لذة وألم. والبيان التام هو الذي يوقني لك هاتين الحاجتين
ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين ، فيوثقها حظها من الفائدة العقلية والمتعة
الوجدانية معاً .

فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس ؟

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء . وعرفنا كلام الأدباء والشعراء
فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلوّاً في جانب . وقصوراً في جانب
(فأمّا) الحكماء فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك . ولا تنوجه
نفسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك . فتراهم حين يقدمون
إليك حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفاف وعري ونبو عن الطباع
(وأما) الشعراء فإنما يسمعون إلى استثارة وجدانك ، وتحريك أوتار
الشعور من نفسك . فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غيباً أو رشداً ،
وأن يكون حقيقة أو تخيلاً . فتراهم جادّين وهم هازلون . يستيكون
وإن كانوا لا يكون . ويضطربون وإن كانوا لا يضطربون (والشعراء)
يستبيحهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون
ما لا يفعلون (١)

وكل امرئ حين يفكر فإنما هو فيلسوف صغير . وكل امرئ حين
يخس ويشعر فإنما هو شاعر صغير . فسل علماء النفس : « هل رأيتم
أحداً تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية على
سواء ؟ ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس
فهل ترونها تعمل في النفس دفعة وبنسبة واحدة ؟ » يجيبوك بلسان
واحد : « كلا . بل لا تعمل إلا متوابة في حال بعد حال ، وكلما تسلطت
واحدة منهن اضمحلت الأخرى وكاد ينمحي أثرها . فالذي ينهمك

في التفكير تتناقص قوة وجدانه ، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف
تفكيره . وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى هاتين الغايتين قصداً واحداً ،
وإلا لكانت مقبلة مدبرة معاً . وصدق الله : (ما جعل الله لرجل من
قلبين في جوفه) (١)

فكيف تطمع من إنسان في أن يهب لك هاتين الطلبتين على سواء ،
وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء ؟ وما كلام المتكلم إلا صورة الحال
الغالبة عليه من بين تلك الأحوال .

هذا مقياس تستطيع أن تبين به في كل لسان وقلم أي القوتين كان
خاضعاً لما حين قال أو كتب : (فإذا) رأيته يتجه إلى تقرير حقيقة
نظرية أو وصف طريقة عملية قلت : هذا ثمرة الفكرة . (وإذا) رأيته
يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيرها . وقبضها أو بسطها ، واستثارة
كوامن لذتها أو ألمها ، قلت هذا ثمرة العاطفة . (وإذا) رأيته قد انتقل
من أحد هذين الضريين إلى الآخر فتفرغ له بعد ما قضى وطره من سابقه .
كما ينتقل من غرض إلى غرض . عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور
على نفسه .

وأما أن أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحداً ويجمع في يدك هذين
الطرفين معاً ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً
وأثماراً معاً ، أو كما يسرى الروح في الجسد والماء في العود الأخضر
فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر ، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية
فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية
الصارمة بما يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين . ومن المتعة الوجدانية
الطيبة بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحّجين ؟

(١) سورة الشعراء « ٢٦ » الآية ٢٢٤ وما بعدها

(١) سورة الأحزاب « ٣٣ » الآية ٤

« البيان » و « الإجمال »

وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن ولا تجدها فيما سواه . ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل . وإذا أجملوا ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس . أو إلى اللغو الذي لا يفيد . ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد

وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف . والملاسة والاحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كدّ خاطر ولا استعادة حديث . كأنك لا تسمع كلاماً ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة . وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبيراً ووقفت على معناه محدوداً - هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد ، غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة . وكذلك .. حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة (١) وجوهاً عديدة . كلها صحيح أو محتتمل للصحة ، كأنما هي فصّ من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعاً فإذا نظرت إلى أضلاعه جملةً بهرتك بألوان الطيف

(١) هذا مثل صغير : اقرأ قوله تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب - سورة البقرة ٢١٢ الآية) وانظر هل ترى كلاماً أبين من هذا في عقول الناس . ثم انظر كم في هذه الكلمة من مروءة . فإنك لو قلت في معناها : انه سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب يحاسبه ولا سائل يسأله لماذا يبسط الرزق هؤلاء ويقدره على هؤلاء ، أصبت . ولو قلت : انه يرزق بغير تقدير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاق ، أصبت . ولو قلت : انه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحسب ، أصبت . ولو قلت انه يرزقه بغير معاناة ومناقشة له على عمله ، أصبت . ولو قلت : يرزقه رزقاً كثيراً لا يدخل تحت حصر وحساب ، أصبت . فعل الأول يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأزراق في الدنيا وأن نظامها لا يجري على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعمله أو عمله ، بل تجري وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء ، وفي ذلك ما فيه =

ذلك الله رب العالمين . فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن . وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان . وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان . وأن يخرج من بينهما شرباً خالصاً سائغاً للشاربين وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت - ألا تراه في فسخة قصصه وأخباره (١) لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة ؟

أو لا تراه في معمعة براهينه (٢) وأحكامه (٣) لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق . وتحذير وتنفير . وتهويل وتعجيب ، وتبكيك وتأنيب ؟ يبت ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعفها (تَقَشَّعِرْ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) (٤) و (إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) (٥)

(١) اقرأ مثلاً سورة القصص وسورة يوسف عليه السلام

(٢) اقرأ مثلاً قوله تعالى (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا فسمان الله رب العرش عما يصفون سورة الأنبياء ٢١ : ٢٢) وانظر كيف اجتمع الاستدلال والتهويل والاستعظام في هذه الكلمات القليلة . بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات اليقينية ووضوح المقدمات المسلمة ودقة التصوير لما يعقب التنازع من (الفساد) الرهيب . فهو يرهان خطاب شعري معاً . هل تجد مثل هذا في كتاب من كتب الحكمة النظرية ؟

(٣) اقرأ مثلاً قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل : الحر بالحر والعبد بالعبد والأنتى بالأنتى . فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان . ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم - سورة البقرة ٢ : ١٨٧) وانظر الاستدراج إلى الطاعة في افتتاح الآية بقوله (يا أيها الذين آمنوا) وترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين في قوله (أخيه) وقوله (بالمعروف) وقوله (بإحسان) ، والامتنان في قوله (تخفيف من ربكم ورحمة) والتهديد في ختام الآية . ثم انظر في أي شأن يتكلم ؟ أليس في فريضة مفصلة وفي مسألة دموية ؟ وتتبع هذا المعنى في سائر آيات الأحكام حتى أحكام الإيلاء والظهار . في أي كتاب من كتب التشريع تجد مثل هذا الروح ؟ بل في أي لسان تجد هذا المزاج العجيب ؟ تائه لو أن أحداً حاول أن يجمع في بيانه بين هذين الطرفين ففرق همه ووزع أجزائه نفسه ، لجاء بالاضداد المتنافرة وأخرج يشوب بيانه رقماً مزرعاً .

(٤) سورة الزمر « ٣٩ » الآية ٢٣

(٥) سورة الطارق « ٨٦ » الآية ١٤ ، ١٣

كلها فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع . ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت . وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان يأخذ كل منه ما يسر له ؛ بل ترى محيطاً مترامى الأطراف لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال .

ألم تر كيف وسّع الفرق الإسلامية على اختلاف منازعها في الأصول والفروع ؟ وكيف وسع الآراء العلمية على اختلاف وسائلها في القديم والحديث ؟ وهو على لينه للعقول والأفهام صلب متين ، لا يتناقض ولا يتبدل . يحتاج به كل فريق لرأيه ، ويدّعيه لنفسه ، وهو في سموه فوق الجميع يُطيل على معاركهم حوله ، وكأن لسان حاله يقول لهؤلاء وهؤلاء : (كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً)^(١)

• • •

ها نحن أولاء قد عرضنا لك جانباً من تلك العجائب البيانية التي لا تنال مثلها أيدي الناس . وها قد أعطيناك في حاشية كل منها نموذجاً صغيراً يفتح لك الباب إلى احتدائه في سائر القرآن . فهل ترى في هذا وفاءً بما وعدناك ، وبما عودناك ، من التفتية على آثار التفصيل بشيء من التطبيق والتمثيل ؟ أم لا تزال بحاجة إلى المزيد من هذه الأمثلة ؟

= من التسليّة لفقراء المؤمنين ، ومن الحضم لنفوس المغرورين من المترفين . وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزائنه وبسطة يده جل شأنه . وعلى الثالث يكون تلويحاً للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والغفر حتى يبدل صرهم يسراً وفقرهم غنى من حيث لا يظنون . وعلى الرابع والخامس يكون وعداً للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب ، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرها العدد . ومن وقف على علم التأويل واطلع على معترك أفهام العلماء في آية رأى من ذلك العجب العجيب .

(١) سورة الإسراء ١٧ « الآية ٨٤

سنزيدك . وسنوجه نظرك بنوع خاص إلى دقة التعبير القرآني ومتانة نظمه . وعجيب تصرفه حتى يؤدي لك المعنى الوافر الثري ، في اللفظ القاصد النقي ؛ إذ كانت هذه الخاصة الأولى - من الخواص السي ذكرناها - أحوج إلى التوقيف والإرشاد

ولا تحسبن أننا سنضرب لك الأمثال بتلك الآيات الكريمة التي وقع اختيار الناس عليها وتواصفوا الإعجاب بها . كقوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعي ماءك - الآية)^(١) وقوله (ولكم في القصص حياة)^(٢) وأشباههما . بل نريد أن نجيبك بمثال من عرض القرآن في معنى لا يأبه له الناس ولا يقع اختيارهم على مثله عادة . ليكون دليلاً على ما وراءه يقول الله تعالى في ذكر حجاج اليهود : (وإذا قيل لهم : « آمِنُوا بما أنزل الله » قالوا « نؤمن » بما أنزل علينا » . ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لِمَا معهم . قل : « فليمنّ نقشئون أنبياء الله من قبيل إن كنتم مؤمنين »)^(٣)

هذه قطعة من فصل من قصة بني إسرائيل . والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلي :

- (١) مقالة ينصح بها الناصح لليهود . إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن
- (٢) إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين
- (٣) الرد على هذا الجواب بركنيه ، من عدة وجوه وأقسام لو أن محامياً بليغاً وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن في

- (١) سورة هود « ١١ » الآية ٤٤ - اقرأ إن شئت ما كتبه السكاكي عن هذه الآية في كتابه (مفتاح العلوم) بعد تعريف البلاغة والفصاحة في آخر علم البيان .
- (٢) سورة البقرة « ٢ » الآية ١٧٩ اقرأ ما كتبه عنها المفسرون وما كتبه صاحب (الإتقان) في بحث الإيجاز والإطناب .
- (٣) سورة البقرة « ٢ » الآية ٩١ والآيات بعدها

هذه القضية . ثم هُدى إلى استنباط هذه المعاني التي تختلج في نفس الداعي والمدعو لما وسعه في أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات . ولعلّه بعد ذلك لا يفي بما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق .

قال الناصح لليهود : آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة ؛ ألسنتم قد آمنتم بالتوراة التي جاء بها موسى لأنها أنزلها الله ؛ فالقرآن الذي جاء به محمد أنزله الله ، فأمنوا به كما آمنتم بها .

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير في هذا اللفظ الوجيز (آمنوا بما أنزل الله) . وسرّ ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنيته فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاءً إلى الشيء بحجته ، وبذلك أخرج الدليل والدعوى في لفظ واحد .

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل : آمنوا بما أنزل الله « على محمد » مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة . أتدري لم ذلك ؟ .. لأنه لو ذكر لكان في نظر الحكمة البيانية زائداً وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسداً . أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا تدخل لها في الإلزام . فأدبر الأمر على القدر المشترك وعلى الحد الأوسط الذي هو عمود الدليل . وأما الثاني فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يُخرج أضغاثهم ويثير أحقادهم فيؤدي إلى عكس ما قصده الداعي من التأليف والإصلاح .

ذلك إلى ما في هذا الحذف من الإشارة إلى طابع الإسلام وهو أنه ليس دين تفريق وخصومة ، بل هو جامع ما فرقه الناس من الأديان . داع إلى الإيمان بالكتب كلها على سواء : بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط . وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم . لا نفرق بين شيء من كتبه ، كما لا نفرق بين أحد من رسله . كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذي دعانا للإيمان بالتوراة ليس

هو كونها أنزلها الله فحسب بل إننا آمنّا بها لأن الله أنزلها علينا ، والقرآن لم ينزله علينا ، فلکم قرآنکم ولنا توراتنا . ولكل أمة شرعة* ومنهاج .

هذا هو المعنى الذي أوجزه القرآن في قوله (نؤمن بما أنزل علينا) وهذا هو المقصد الأول . وقد زاد في إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة ، لأنه تقدم ذكره في نظيرتها .

من البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم يومئذ إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم ، وهذا هو المقصد الثاني . ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر ، فأراد القرآن أن يبرزه . انظر كيف أبرزه ؟ إنه لم يجعل لازماً مذهبهم مذهباً لهم ، ولم يدخل مضمون قولهم في جملة ما نقله من كلامهم ؛ بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقاتلتهم : فقال . (ويكفرون بما وراه) أليس ذلك هو غاية الأمانة في النقل !

ثم انظر إلى التعبير عن القرآن بلفظ (ما وراه) فإن لهذه الكلمة وجهاً تعمّ به غير القرآن ووجهاً تخصّ به هذا العموم . ذلك أنهم كما كفروا بالقرآن المنزل على محمد كفروا بالإنجيل المنزل على عيسى ، وكلاهما وراء التوراة ، أي جاء بعدها . ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوراة من صحف إبراهيم مثلاً . وهكذا نراه قد حدّد الجريمة تمام التحديد باستعمال هذا اللفظ الجامع المانع . وهذا هو غاية الإنصاف وتحري الصدق في الاتهام

جاء دور الردّ والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه

فتراه لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتابهم ، بل يتركها مؤقتاً كأنها مسلّمة ليبيّن عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب ، فيقول : كيف يكون إيمانهم بكتابهم باعتماداً على الكفر بما هو حق مثله ؟ - لا ،

بل (هو الحق) كله^(١) - وهل يعارض الحق حتى يكون الإيمان بأحدهما موجباً للكفر بالآخر؟!

ثم يترقى فيقول: وليس الأمر بين هذا الكتاب الحديد وبين الكتب السابقة عليه كالأمر بين كل حق وحق؛ فقد يكون الشيء حقاً وغيره حقاً فلا يتكاذبان، ولكنهما في شأنيْن مختلفين فلا يشهد بعضهما لبعض. أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً و (مصدقاً) لما بين يديه من الكتب. فأتى يكذب به من يؤمن بها؟!

ثم يستمر في إكمال هذا الوجه قائلاً: ولو أن التحريف أو الضياع الذي نال من هذه الكتب قد ذهب بمعالم الحق فيها جملة لكان لهم بعض العذر في تكذيبهم بالقرآن؛ إذ يحق لهم أن يقولوا «إن البقية المحفوظة من هذه الكتب في عصرنا ليس بينها وبين القرآن هذا التطابق والتصادق، فليس الإيمان بها موجباً للإيمان به».. بل لو أن هذه البقية ليست عندهم ولكنهم كانوا عن دراستها غافلين، لكان لهم مثل ذلك العذر. أما وهذا القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب في زمنهم وبأيديهم ويدرسونه بينهم فيماذا يعتدرون وأنتي يذهبون؟! هذا المعنى كله يؤديه لنا القرآن بكلمة (لما معهم)

فانظر إلى الأحكام في صنعة البيان: إنما هي كلمة رُفعت^(٢) وأخرى وُضعت^(٣) في مكانها عند الحاجة إليها؛ فكانت هذه الكلمة حسماً لكل

عذر، وسداً لكل باب من أبواب الحرب؛ بل كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم أتمت في خطوة واحدة، وفي غير ما جلبة ولا طنطنه.

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوي الذي ساقه مساق الاعتراض والاستطراد، استوى إلى الرد على المقصد الأصلي الذي تبجحوا بإعلانه والافتخار به، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، فأوسعهم لإكذاباً وتفنيداً، ويبين أن داء الجحود فيهم داء قديم، قد أشربوه في قلوبهم ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضاً مزمناً. وأن الذي أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم؛ وساق على ذلك الشواهد التاريخية المُنظمة التي لا سبيل لإنكارها، في جهلهم بالله، وانتهاكهم حرمة أنبيائه، وتمردهم على أوامره: (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين؟..)

(١) تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له في آخر المرحلة السابقة؛ إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين بكتابهم نفسه؛ وهل الذي يكذب من يصدقك يبقى مصدقاً لك؟!

غير أن هذا المعنى إنما أخذ استنباطاً من أقوالهم، وإلزاماً لهم بما لم يذهبهم، ولم يؤخذ بطريق مباشر من واقع أحوالهم. فكانت هذه هي مهمة الرد الجديد.

وهكذا كانت كلمة (مصدقاً لما معهم) مغلاقاً لما قبلها مفتاحاً لما بعدها. وكانت آخر درجة في سلم الغرض الأول هي أول درجة في سلم الغرض الثاني. فما أوثق هذا الالتحام بين أجزاء الكلام! وما أرشد هذه القيادة للنفس بزمام البيان، تدريجاً له على مدارجها، وتزيلاً

(١) فإن ما سواه إن خالفه كان شاهداً على نفسه بالبطلان، وإلا كان صحيحاً أو محتملاً للصحة. فهو إذاً معيار الحق وميزانه

(٢ و ٣) ذلك أنه كان مقتضى السياق أن يقال: «مصدقاً لما أنزل عليهم» ولكنه لأمر ما نعى عن كتابهم ذلك اللقب القديم، وألبس هذا العنوان الجديد ولو بدلت أحد اللقبين مكان الآخر لما صلح أحدهما في موضع صاحبه بل لو جئت بلقب آخر فقلت «مصدقاً لما هو باق في زمنهم» أو «مصدقاً لما عندهم» لما تم الإلزام وهذا من عجيب شأن القرآن: لا تبديل لكلماته

له على قدر حاجتها وفي وقت تلك الحاجة ! فما هو إلا أن آنس تطلع النفس واستشراقها من تلك الكلمة إلى غاية ، إذا هو قد استوى بها إلى تلك الغاية ووقفها عليها تامة كاملة

(٢) وانظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلي وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقي لتلك الجرائم ، فلم يقل : « فليم قتل آباؤكم أنبياء الله ، واتخذوا العجل ، وقالوا سمعنا وعصينا ؟ » ؛ إذ كان القول على هذا الوضع حجة داحضة في بادئ الرأي ، مثلها كمثله بحاجة الذئب للحمل في الأسطورة المشهورة^(١) فكان يحق لهم في جوابها أن يقولوا : « وما لنا ولآبائنا ؟ تلك أمة قد خلت ، ولا تزر وازرة وزر أخرى »

ولو زاد مثلاً : « وأنتم مثلهم ، قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم » لجاء هذا التدارك بعد فوات الوقت ، ولتراخى حبل الكلام وفترت قوته فكان اختصار الكلام على ما ترى - بوقفهم بادئ ذي بدء في موقف الاتهام - إسراعاً بتسديد^(٢) سهم التحجة إلى هدفها ، وتنبهاً في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض ، وأنهم سواسية في الجرم فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم ؛ لأنهم لا ينفكون عن الاستئنان بسنة أسلافهم ، أو الرضى عن أفاعيلهم ، أو الانطواء على مثل مقاصدهم

(٣) وانظر كيف زاد هذا المعنى ترشيحاً بإخراج الجريمة الأولى وهي جريمة القتل في صيغة الفعل المضارع تصويراً لها بصورة الأمر

(١) التي زعم أن ذئباً عدا على حمل صغير بحجة أن أخاه أو أباة كان قد عكر عليه ماء الفتاة وهو يشرب منذ عام مضى . وهي تمثل عدوان القوي على الضعيف استناداً لأوهن الأسباب .
(٢) وهذا هو ما يسمى في المناظرة « بالتقريب » بين الدليل والمطلوب .

الواقع الآن ، كأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزكية

(٤) ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح باباً من الإيجاش لقلب النبي العربي الكريم ، وباباً من الاطماع لأعدائه في نجاح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله . فانظر كيف أسعفنا بالاحتباس عن ذلك كله بقوله (من قبل) فقطع بهذه الكلمة أطماعهم وثبتت بها قلب حبيبه ؛ إذ كانت بمثابة وعده لإياه بعصمته من الناس . ذلك إلى ما فيها من تنبيه على أصل وضع الكلام وعلى ما صنع به من التجوز المذكور آنفاً في الإسناد وفي الصيغة .

(٥) وانظر كيف جرى بالأفعال في الجرائم التالية على صيغة الماضي بعد أن وطأ لها بهذه الكلمة : (من قبل) فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعي حين لم تبق هناك حاجة إلى مثل التعبير الأول .

(٦) وانظر إلى الآداب العالية في عرض الجريمة الثانية وهي جريمة الشرك ؛ فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها وأشدّ تكررًا في العقول نبه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها ، فلم يقل اتخذتم العجل إلهاً بل طوى هذا المفعول الثاني استبشاعاً للتصريح به في صيغة الأول ، وبياناً لما بينهما من مفارقة .. وكم في هذا الحذف من تعبير وهويل ! ! فربّ صمت هو أنطق بالحكم ، وأنكى في الخصم .

(٧) ثم انظر إلى النواحي التي أوتر فيها الإجمال على التفصيل ، إعرافاً عن كل زيادة لا تمس إلينا حاجة البيان في الحال ، فقد قال إن القرآن مصدق لما معهم ، ولم يبين مدى هذا التصديق : أي أصول الدين فحسب ، أم في الأصول والفروع جميعاً ، أم في الأصول وبعض الفروع وإلى أي حد ؟ ذلك أن هذا كلام الملوك لا ينزل إلا بقدر معلوم . وماذا يعني الداعي إلى أصل الإيمان أن يمتد التطابق بين الأديان إلى فروعها

أو لا يمتد؟ فليبحث علماء التشريع !
وقال إنهم يقتلون أنبياء الله . فمن هم أولئك الأنبياء؟ ... لبحث
علماء التاريخ !

وقال إن موسى جاءهم بالبينات . فكم هي ؟ وما هي ؟

وقال إنه أخذ عليهم ميثاقهم . فعلى أي شيء كان الميثاق ؟

إن حكمة البيان القرآني لأجل من أن تعرض لهذه التفاصيل في مثل
هذا الموضوع . ولو ذكرت ها هنا لكان مثلها مثل من يُسأل : لِمَ ضربت
عبدك ؟ فيقول : لأنه ضرب غلاماً اسمه كذا واسم أبيه كذا وحليته
كذا وولد في عام كذا . ألا ترى أن هذا زائد وكثير^(١)

(٨) ولو ذهبنا نتتبع سائر ما في هذه القطعة من اللطائف لخرجنا
عن حد التمثيل والتنبيه الذي قصدنا إليه . فلنكتف بتوجيه نظرك فيها إلى
سر دقيق لا تراه في كلام الناس . ذلك أن المرء إذا أهمله أمرٌ من الدفاع
أو الإقناع أو غيرهما بدت على كلامه مسحة الانفعال بأغراضه وكان
تأثيره بها في نفسك على قدر تأثيره هو ، طبعاً أو تطبعاً ، فتكاد تحس بما
يخالبه من المسرة في ظفرك ومن الامتناع في إخفاقه . بل تراه يكاد يهلك
أسفاً لو أعرض الناس عن هداه إذا كان مؤمناً بقضيته ، مخلصاً في دعوته ،
كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام . أما هنا فلأنك تلمح وراء الكلام قوة
أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض ، قوة تؤثر ولا تتأثر ، تصف لك

(١) ومن هنا عيب على امرئ القيس تفصيله في غير موضع التفصيل ، وذلك فيما هو
مدود من أجود شعره - قوله :

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالفقراء

لم يقتنع في وصف المنزل بقوله « بسقط اللوى » حتى حده بمدود أربعة . قال الباقلاني
« ... كأنه يريد بيع المنزل ، فيخشى إن أخل بعد منه أن يكون يبعه فاسداً أو شرطه باطلاً »

الحقائق خيرها وشرها في عزرة من لا ينفعه خير واقتدار من لا يضره شر
هذا الطابع من الكبرياء والعظمة تراه جلياً من خلال هذا الأسلوب
المقتصد في حجاجه أخذاً ورداً ، المقتصد في وصفه مدحاً وقدحاً

انظر إليه حين يجادل عن القرآن فلا يزيد في وصفه على هذه الكلمة :
(هو الحق) . نعم إنها كلمة تملأ النفس ، ولكن هل تُشبعك أيها الإنسان
تلك الكلمة إذا أردت أن تصف حقيقة من الحقائق التي تقتنع بها وتحب
أن تُقنع بها الناس ؟

وانظر إليه بعد أن سجل على بني إسرائيل أفحش الفحش وهو
وضعهم البقر الذي هو مثلٌ في البلادة موضع العبود الأقدس ، وبعد
أن وصف قسوة قلوبهم في تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها
بالآيات الرهيبة ، فتراه لا يزيد على أن يقول في الأولى : إن هذا « ظلم »
وفي الثانية : « بشما » صنعتم . أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات ؟
نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما ، ولكن
الأم وحرارة الاندفاع في الانتقام ؟ بل أين الإقناع والشنيع وأين الإسراف
والعجور الذي تراه في كلام الناس إذا أحفظوا بالتيل من مقامهم ؟

لله ما أعف هذه الحصومة ، وما أعز هذا الجناح وأغناه عن شكر
الشاكرين وكفر الكافرين ، وتالله إن هذا كلام لا يصدر عن نفس بشر

• • •

قلنا إن القرآن الكريم يستمر دائماً برفق أقل ما يمكن من اللفظ في
توليد أكبر ما يمكن من المعاني . أجل ؛ تلك ظاهرة بارزة فيه كله ؛
يستوى فيها مواضع لإجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز . ومواضع
تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب . ولذلك نسميه إيجازاً كله^(١) ؛ لأننا

(١) لما كان هذا اصطلاحاً جديداً تخالف به مصطلح القوم لم نبدأ من إيضاح سبب المخالفة : =

نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما

« قسم علماء البلاغة الكلام إلى « مساو » و « موجز » و « مطلب » . وعرفوا المساواة بأنها أداء المعنى بلفظ حل قدره ، والإيجاز بأنه أداء المعنى بلفظ ناقص عنه واف به ، والإطناب بأنه أداء المعنى بلفظ زائد عنه لفائدة . وجعلوا المقياس الذي يضبط به هذا التقسيم أمراً عرفياً أو وضعياً : فاعتبر السكاكي المقدار الذي يتكلم به أوساط الناس في محاوراتهم ومتعارف خطابهم ، هو ضابط المساواة . وهو القدر الذي لا يحمد منهم ولا يذم في باب البلاغة . فإ نقص عنه مع الوفاء به فهو الإيجاز ، وما زاد عنه مع الإفادة فهو الإطناب . والكلام البليغ إنما يقع في هذين الطرفين . هذا محصول كلام السكاكي . وقد وافقه الذين جاءوا من بعده على هذا التقسيم ، إلا أن بعضهم رأى أن البناء على العرف فيه رد إلى الجهالة ، فبجعل حد المساواة هو المقدار الذي يؤدي المعاني الأولية بالوضع من غير رعاية للنسب الزائدة على أصل المعنى .

وقد فهمنا من وضعهم التقسيم على هذا الأساس ، واعتبارهم المساواة بأحد هذين المقياسين المتحدتين في المال ، أنهم ظنوا أن العبارة التي تؤدي بها المعاني الأولية في لسان العوام تقع دائماً بين الإطناب والاختصار . وهذا ما لا دليل عليه في العرف ولا في الوضع ، أما الأول فإن العوام يتكلمون في المعنى الواحد باللفظ المطول تارة وباختصار تارة أخرى ، وإن لم يتعروا لإصابه المحزفي كل منها ، وأما الثاني فقلن اللفظ الذي وضع في اللغة لتأدية المعنى الأولي يختلف ، فتمنه يؤديه بوجه مجمل ، ومنه ما يؤديه بلفظ مفصل . وكل من الاجمال والتفصيل يتفاوت في تقاضا تفاوتاً كبيراً ، فلا ينضبط منها قدر يرجع إليه في معرفة الإيجاز والاطناب ، إذ ما من كلام وجيز إلا ويمكن تأدية معناه الإجمالي بأقل من لفظه أو بما يساويه وإن لم يفت غناه ولم يوف وفاءه ، حتى المثل الذي عدوه علماً في الإيجاز وهو قوله تعالى (في القصص حيا - الآية ١٧٩ من سورة البقرة « ٢ ») يمكن تأدية أصل معناه بقوله « انتقم تسلم » أو « انتقم تحي » أو بالاختصار بكلتين منه « القصص حيا » ، بل فاتحة الكتاب الكريم التي جمعت مقاصد القرآن كلها في سبع آيات يمكن أداء معانيها الأصلية في خمس كلمات : « نحمدك اللهم ونعبدك ، ونستعينك ونستهديك » وإن شئت في أقل من ذلك

وكذلك يقال : ما من كلام مطلب إلا ويمكن تأدية معناه الوضعي مفصلاً في لفظ أطول منه ، فقولته تعالى : (والحرمات قصاص - الآية ١٩٣ من سورة البقرة « ٢٥ ») لإيجاز ، وقد جاء بسطه في قوله : (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف والأذن بالأذن ، والسن بالسن والجروح قصاص - الآية ٤٥ من سورة المائدة « ٥ ») وهذا الكلام على طوله يعد موجزاً إذا قيس إلى قوله في مثل معناه : « من قتل نفساً قتل بها ، ومن فقت عينا فقت عينه ، ومن جدد أنفاً جدد أنفه ، ومن جدد أذناً جددت أذنه ، ومن كسر سناً كسرت منه .. » وإن شئت زدت : واليد باليد ، والأصبع بالأصبع ، والآلة بالآلة والموضحة بالموضحة وهلم =

إنفري أن مرايمه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى

جها . « وقوله تعالى (آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل - الآية ٥٩ من سورة المائدة « ٥٥ ») جاء معناه مبسطاً في قوله (آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوقى موسى وعيسى وما أوقى النبيون من ربه - الآية ١٣٦ من سورة البقرة « ٢٥ ») وهذا المعنى يؤدي عادة بقوله : آمنا بالله وبالقرآن الذي أنزله الله إلينا ، وبالطورا التي أنزلها الله على موسى ، وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ، وبالزبور الذي أنزله الله لداود ، وبالصحف التي أنزلها الله لإبراهيم ... ولو شئت عددت الأسباط سبطاً سبطاً ، وذكرت سائر من قص الله علينا من النبيين في غير هذا الموضع . بل لو شاء الله لقص علينا من أنباء سائر الرسل ما لم يقصه علينا . والقوم معترفون ضمناً بوجود هاتين المرتبتين في كلام العوام ، إذ قالوا إن مرتبتي الاختصار والمحل والتطويل الممل ليست من البلاغة في شيء . فإذا لم تكونا من كلام البلقاء كانتا ألبتة من كلام غير البلقاء . وإلا فكلام من تكونان - وإذا فلا تصلح المعاني الأولية ولا العبارات التامية مقياساً منضبطاً للوسط المعروض .

هذا وقد نشأ من قياسهم التوسط بالمقدار الذي تؤدي به المعاني الأولية في لسان العوام - بعد تسليم كونه وسطاً - أن جعلوا الفضيلة النيبانية في هذا الباب ماثلة أبداً إلى طرف النقص أو طرف الزيادة . وذلك عكس ما بنيت عليه قاعدة الفضائل من تبوأها مكاناً وسطاً بين الأطراف (ولقد تعجب إذا رأيتهم يرجعون فيدخلون المساواة في كلام الرجل البليغ إذا دعاه إليها داع ، كأن يكون كلامه مع العامة . ثم تزداد عجباً إذا رأيهم يدخلونها في القرآن نفسه وهو كما علمت خطاب العامة وللخاصة على السواء ، ويثقلونها بقوله تعالى (ولا يحق المكر السي . إلا بأهله الآية ٤٣ من سورة فاطر « ٣٥ » . على أن في هذه الكلمة إيجازاً بال حذف على اصطلاحهم نفسه ، إذ المعنى لا يحق ضرر المكر وعاقبته) .

لهذا كله رأينا أن نضع التقسيم وضعاً آخر نرد فيه الفضيلة إلى نصابها من الحد الوسط ، ونرجع فيه الدم إلى الطرفين . وذلك يجعل المقياس هو المقدار الذي يؤدي به المعنى بأكمله ، بأصله وحليته على حسب ما يدعو إليه المقام من إجمال أو تفصيل ؛ بغير إجحاف ولا إسراف . هذا القدر الذي من نقص عنه أو زاد عنه البلاء حادثاً عن الجادة بقدر ما نقص أو زاد هو الميزان الصحيح الذي لك أن نسي طرفيه بحق تقصيراً أو تطويلاً ، وأن نسميه هو بالمساواة أو القصد أو التوسط أو التقدير أو ما شئت فسمه . ونحن قد سميناه أيضاً باسم « الإيجاز » مطبعتين إلى صحة هذه التسمية ، إذ رأينا حد الإيجاز ينطبق عليه ، فإ الإيجاز إلا السرعة والتخفيف في بلوغ الحاجة بالقدر الممكن ، فالذي يسرع فوق الطاقة لا يبلغك حاجتك فيكون مجحفاً مجحفاً ، والذي يطأ حيث تمكن السرعة لا يكون إلا مسرفاً مجحفاً . ورأينا الناس ما زالوا يتواصدون بهذه الوجازة في البيان ويجعلون خير الكلام ما قل ودل ، حتى روى عن سيد البلقاء صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أنه قال لجرير بن =

بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها . فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة ، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى .

دع عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية إنها « مُفَحِّمَةٌ »

= عبد الله البجلي : « يا جرير إذا قلت فأوجز ، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف » هكذا أحفظه ولا يحضرني الآن تخريجه وما سمعنا أحداً يوصي بهذا الإطناب الذي عده المؤلفون فضيلة ثانية تقابل الإيجاز ، وإنما هو إحدى شعبتيه : الاختصار المفهم أو الإطناب المفهم . ولو سمينا فضيلة ثانية تقابله لشئنا أن تكون هذه المقابلة وحدها رخصة في التحلل من قيوده وتسامحاً في الإكثار الذي جاء ذمه بكل لسان ، حتى قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « ... وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة أساؤكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون - رواء أحمد وابن حبان وغيرهما عن أبي ثعلبة . فلا وربك إنما هي فضيلة واحدة تطلب من المتكلم في كل مقام ، ويؤخذ بها في سعة التفصيل كما يؤخذ بها في ضيق الإجمال بل لعلها في مقام التفصيل أكد طلباً وأصعب مثلاً . فالكلام الطويل إن حوى كل جزء منه فائدة تمس إليها الحاجة في الموضوع ولا يسهل أداء تلك القاعدة بأقل منه كان هو عين الإيجاز المطلوب ، وإن أمكن أداء الأغراض فيه كاملة بخلاف شيء منه أو إبداله بعبارة أخصر منه كان هو حشواً أو تطويلاً معيياً . والكلام القصير إن وفى بالمقاصد الأصلية والتكميلية المناسبة في الحال كان هو التوسط المطلوب وإلا كان بترّاً أو تقصيراً معيياً

وليس الإيجاز قاصراً على جانب الإجمال كما زعموا حتى بنوا عليه ما بنوا . وحتى أخرجوا منه مثل قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر - الآية ١٦٤ من سورة البقرة) ، وجعلوها من باب الإطناب بحجة أنه يمكن إيجازها بهذه العبارة : « إن في ترجيح وقوع أي ممكن كان لا على وقوعه لآيات للعقل - مفتاح العلوم » . وأنت فهل عهدت عربياً قط بليفاً أو غير يبلغ تكلم بهذا التعبير الفلسفي الخاف القلق الذي اقترعه السكاكي مقياساً للمساواة في معنى الآية - كلا ، إنك لو رجعت إلى ما تكلم به الناس في آيات الله الكونية تفصيلاً أو إجمالاً لرأيت كلاماً عربياً صحيحاً أطول من هذا أو أقصر ، ولرأيت الآية الكريمة هي أوجز كلام وأحكم نظام في بابها من التفصيل ، كما أن قوله تعالى : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض - الآية ١٠٦ من سورة يونس ١٠٥) هو أوجز كلام في باب الإجمال .

قلنا إن فضيلة الإيجاز بمعناه الصحيح هي الوسط المعتدل ، وهي الفضيلة الوحيدة التي تواصى بها البلغاء في كل مقام بحسبه . غير أنه ليس للإنسان ما تمى فالحل الكامل وإن تطاولت إليه أعناق الناس وقفوا في طلبه قريباً وبعداً ، لا يستطيع أحد منهم أن يأتى على غايته . وإنما أتى عليها القرآن الحكيم ، فهو المثل الأعلى في حسن الإيجاز . كيف لا وهو حد الإيجاز .

وفي بعض حروفه إنها « زائدة » زيادة معنوية . ودع عنك قول الذي يستخف كلمة « التأكيد » فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة ، لا يبالي أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلح لتأكيد أو لا تكون ، ولا يبالي أن يكون بالموضع حاجة إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به .

أجل . دع عنك هذا وذاك ؛ فإن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها إنما هو ضرب من الجهل - مستوراً أو مكشوفاً - بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن .

وخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسرارهِ البيانية على ضوء هذا المصباح . فإن عُمِيَ عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف فإياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون ؛ ولكن قل قولاً سديداً هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف . قل : « الله أعلم بأسرار كلامه ، ولا علم لنا إلا بتعليمه » . ثم إياك أن تركز إلى راحة اليأس فتبعد عن استجلاء تلك الأسرار قائلاً : « أين أنا من فلان وفلان ؟ .. كلا ، قرب صغير مفضول قد فطن إلى ما لم يفطن له الكبير الفاضل . ألا ترى إلى قصة ابن عمر في الأحجية المشهورة ^(١) ؟ فجدد في الطلب وقل : رب زدني علماً ؛ فمضى الله أن يفتح لك باباً من الفهم تكشف به شيئاً مما عُمِيَ على غيرك . والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور .

(١) قرأ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قوله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة - الآية ٢٤ من سورة إبراهيم ١٤) وقال : (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنما مثل المسلم . فعدثوني ما هي ؟) فحنى هل القوم عليها وجعلوا يذكرون ألواحاً من شجر البادية . وفهم ابن عمر أنها النخلة . وكان عاشر حشرة هو أحدتهم سناً ، وفهم أبو بكر وعمر . فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : هي النخلة . الحديث رواه الشيخان . وفي القرآن (ففهمناها سليمان - الآية ٧٩ من سورة الأنبياء ٢١) .

ولنضرب لك مثلاً. قوله تعالى : (ليس كمثله شيء) (١)

« أكثر » أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة ، فراراً من المحال العقلي الذي يقضى إليه بقاؤها على معناها الأصلي من التشبيه ؛ إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية التشبيه عن مثل الله ، فتكون تسليماً بثبوت المثل له سبحانه ، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفاءه ؛ لأن السالبة — كما يقول علماء المنطق — تصدق بعدم الموضوع . أو (٢) لأن النفي — كما يقول علماء النحو — قد يوجه إلى المقيّد وقيدته جميعاً . تقول : « ليس لفلان ولدٌ يعاونه » إذا لم يكن له ولد قط أو كان له ولد لا يعاونه . وتقول : « ليس محمداً أخاً لعل » إذا كان أخاً لغير علي أو لم يكن أخاً لأحد .

« وقليل منهم » من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها ؛ إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال لا نصّاً ولا احتمالاً . لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضاً .

وذلك أنه لو كان هناك مثل لله لكان لهذا المثل مثل قطعاً وهو الإله الحق نفسه ، فإن كل متماثلين يُعدّ كلاهما مثلاً لصاحبه . وإذا لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل وهو المطلوب .

وقصارى هذا التوجيه — لو تأملت — أنه مصحّح لا مرجّح ، أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف ، ولكنه لا يثبت فائدته ولا يبين ميسر الحاجة إليه ؛ ألسنت ترى أن مؤدى الكلام معه كموداه بدونه سواء ، وأنه إن كان قد ازداد به شيئاً فلأنما ازداد شيئاً من التكلف والدوران وضرباً

من التعمية والتعقيد . وهل سبيله إلا سبيل الذي أراد أن يقول : « هذا فلان » فقال : « هذا ابنُ أخت خالة فلان » ؟ فمآله إذاً إلى القول بالزيادة التي يسترونها باسم التأكيد ، ذلك الاسم الذي لا تعرف له مسمى ها هنا ؛ فإن تأكيد المماثلة ليس مقصوداً ألبتة ، وتأكيد النفي بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان .

ولو رجعت إلى نفسك قليلاً لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظاً بقوة دلالاته ، قائماً بقسط جليل من المعنى المقصود في جملة ، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى أو لتهدم ركن من أركانه . ونحن نبين لك هذا من طريقين أحدهما أدق مسلماً من الآخر :

(الطريق الأول) وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور ، أنه لو قيل « ليس مثله شيء » لكان ذلك نفيّاً للمثل المكافئ ، وهو المثل التام المماثلة فحسب ؛ إذ أن هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه . وإذا لدبّ إلى النفس ديب الوسوس والأوهام : أن « لعل » هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها ، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء ، أو للكواكب وقوى الطبيعة ، أو للجن والأوثان والكهان . فيكون لهم بالإله الحق شبه ما في قدرته أو علمه ، وشرك ما في خلقه أو أمره .. فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاءً للعالم كله عن المماثلة وعمّا يشبه المماثلة وما يدنو منها ، كأنه قيل : ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً لله ، فضلاً عن أن يكون مثلاً له على الحقيقة . وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، على حد قوله تعالى : (فَكَلَّا تَقُولُ لَهْمَا أُفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا) (١) نهياً عن يسير الأذى صريحاً ، وعمّا فوق اليسير بطريق الأحرى .

(١) الآية ١١ من سورة الشورى « ٤٢ »

(٢) هذا التردد مبني على اعتبار مضمون الجملة أو منطوقها . فلي الأول يقع المثل موضوعاً ، لأنها في قوة قولنا : « مثله ليس له مثل » . وعل الثاني يبقى في المحمول لأنه واقع في خبر ليس .

(١) الآية ٣٣ من سورة الإسراء « ١٧ »

(الطريق الثاني) وهو أدقهما مسلكاً ، أن المقصود الأولي من هذه الجملة وهو نفى الشبيه وإن كان يكفي لأدائه أن يقال : « ليس كالله شيء » أو « ليس مثله شيء » لكن هذا القدر ليس هو كل ما ترمى إليه الآية الكريمة ، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم تريد في الوقت نفسه أن تكتفكت إلى وجه حجته وطريق برهانه العقلي .

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي عن امرئ قبيصة في خلقه فقلت « فلان لا يكذب ولا يبخل » أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجردة عن دليلها . فإذا زدت فيه كلمة فقلت : « مثل فلان لا يكذب ولا يبخل » لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص آخر يماثله مبرأ من تلك النقائص ، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كلي ، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيئه الكريمة لا يكون كذلك ؛ لوجود التنافي بين طبيعة هذه الصفات وبين ذلك النقص الموهوم .

على هذا المنهج البليغ وضعت الآية الحكيمه قائلة : « مثله تعالى لا يكون له مثل » . تعني أن من كانت له تلك الصفات الحسنى وذلك المثل الأعلى لا يمكن أن يكون له شبيه ولا يتسع الوجود لاثنتين من جنسه . فلا جرم جيء فيها بلفظين كل واحد منهما يؤدي معنى المماثلة ؛ ليقوم أحدهما ركناً في الدعوى ، والآخر دعامة لها وبرهاناً . فالتشبيه المدلول عليه « بالكاف » لما تصوب إليه النفي تأدّى به أصل التوحيد المطلوب ؛ ولفظ « المثل » المصرح به في مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبّه على برهان ذلك المطلوب .

واعلم أن البرهان الذي ترشد إليه الآية على هذه الوجه برهان طريف في إثبات وحدة الصانع لا نعلم أحداً من علماء الكلام حام حوله ؛ فكل براهينهم في الوحدانية قائمة على إبطال التعدد بإبطال لوازمه وآثاره العملية . حسبما أرشد إليه قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله

للفسدتا)^(١) .

أما آية الشورى المذكورة فإنها ناظرة إلى معنى وراء ذلك ينقض فرض التعدد من أساسه ، ويقرر استحالة الذاتية في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار . فكأننا بها نقول لنا : — إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدد والاشتراك والتماثل في مفهومها : كلا ، فإن الذي يقبل ذلك إنما هو الكمال الإضافي الناقص أما الكمال التام المطلق الذي هو لوازم معنى الإلهية فإن حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة والائتسائية ؛ لأنك مهما حققت معنى الإلهية حققت تقدماً على كل شيء وإنشاء لكل شيء : (فاطر السموات والأرض) ، وحققت سلطاناً على كل شيء وعلواً فوق كل شيء : (له مقاليد السموات والأرض) . فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات لتناقضت ؛ إذ تجعل كل واحد منهما سابقاً مسبوقاً ، ومنشئاً منشأ . ومستعياً مستعياً عليه . أو لأحلت الكمال المطلق إلى كمال مقيد فيهما ؛ إذ تجعل كل واحد منهما بالإضافة

(١) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء (٢١) — ونحن نلخص لك هنا وجوه استدلالهم في نسق واحد ، لتبين أنها كلها قائمة على أساس المعنى المستنبط من هذه الآية ، وهو أن تعدد الآلهة المستجسة لشرائط الإلهية يقتضي (إما) عدم وجود شيء من المخلوقات ، وذلك هو فسادها في أن الإيجاد (وإما) وجودها على وجه التفاوت والاختلاف المؤدي إلى فسادها غيب الإيجاد . ذلك أنه (لو) توجهت إرادة الإلهين إلى شيء واحد لتعذر عليها إحداثه ، لاستحالة صدور أثر واحد عن مؤثرين . والقول بصدوره عن قدرة أحدهما مع استوائها في القدرة وفي توجه القصد ترجيح بلا مرجح . و (لو) توجهت إرادة أحدهما إلى شيء وإرادة الآخر إلى نقيضه لم يمكن إحداثها ، وإلا لاجتماع التقيضان . وإحداث أحدهما دون الآخر يلزمه الرجوعان المذكور . و (لو) توجهت إرادة أحدهما إلى بعض المخلوق والآخر إلى بعضه إذا ذهب كل إله بما خلق ، ولكان هنا عالمان مختلفا النظام فلا يليق أن يطغى بعضها على بعض حتى يتأحقا . وكل أولئك باطل بالملاحظة ، إذ ترى العالم قد وجد غير فاسد واستمر غير فاسد ، وتراه يجمع أجزاءه وعلى اختلاف عناصره وأوضاعه علواً وسفلاً وخيراً وشرّاً يؤدي وظيفة جسم واحد تتعاون أعضاؤه بوظائفها المختلفة على تحصيل غرض واحد . وهذه الوحدة في نظام الأفعال دليل على وحدة الفاعل المنظم لها جل شأنه .

إلى صاحبه ليس سابقاً ولا مستعجلاً. فأنتى يكون كل منهما لهما وللإله
المثل الأعلى؟!

أرأيت كم أفدنا من هذه «الكاف» وجوهاً من المعاني كلها شافٍ
كاف؟

فاحفظ هذا المثال وتعرف به دقة الميزان الذي وضع عليه التنظيم
الحكيم حرفاً حرفاً

• • •

«وبعد» فإن سرَّ الإيجاز في القرآن لا يقف عند الحد الذي أشرنا
إليه، من اجتناب الحشو والفضول بته، وانتقاء الألفاظ الجامعة المانعة
التي هي - بطبيعتها اللغوية - أتم تحديداً للغرض، وأعظم اتساعاً لمعانيه
المناسبة. لا بل إنه كثيراً ما يسلك في إيجازه سبيلاً أعز وأعجب.

فلقد تراه يعمد - بعد حذف فضول الكلام وزوائده - إلى حذف
شيء من أصوله وأركانه التي لا يتم الكلام في العادة بدونها، ولا يستقيم
المعنى إلا بها، ولقد يتناول بهذا الحذف كلمات وجملات كثيرة متلاحقة
ومتفرقة في القطعة الواحدة، ثم تراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية
الباقية من اللفظ في تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح، وفي طلاوة وعذوبة.
حتى يخيل إليك من سهولة مسلك^(١) المعنى في لفظة أن لفظه أوسع منه
قليلاً.

فإذا ما طلبت سرَّ ذلك رأيته قد أودع معنى تلك الكلمات أو الجمل

(١) هذه كلمة تمثيلية أردنا بها أن نصور هذا الأثر البياني في مثال من الصناعات اليدوية.
ذلك أنك ترى الخياط الماهر ينتفع باليسير من البز فيجمل منه حلة حسناً. مقدرة على الجسم تقديراً،
بل إنها لسهولة مسلك الأعضاء فيها تحبسها ضافية. بينما غيره لا يحسن الانتفاع بهذا القدر ولا بأكثر
منه فيخرجه لباساً ضيقاً حرجاً. ذلك مثل صناعة الإيجاز القرآني بالقياس إلى كلام الناس.

المطلوبة في كلمة هنا وحرف هناك، ثم أدار الأسلوب إدارة عجيبة
وأمر عليها جندرة البيان بيد صنّاع، فأحكم بها خلقه وسواه. ثم
نفخ فيه من روحه فإذا هو مصقول أملس، وإذا هو نير مشرق، لا
تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطي، ولا بما صار إليه من استغناء
واكتفاء، إلا بعد تأمل وفحص دقيق.

لا نكران أن العرب كانت تعرف شيئاً من الحذف في كلامها،
وترى ذلك من الفضيلة البيانية متى قامت الدلائل اللاتمة على ذلك المحذوف
ولو كان من أجزاء الجملة ومقوماتها. فإذا قيل للعربي: أين أخوك؟
قال: في الدار. وإذا قيل له: من في الدار؟ قال: أخي. ولو قال
أخي في الدار، لعد ذلك منه ضرباً من اللغو والحشو. لكن الشاؤ الذي
بلغه القرآن في هذا الباب - كغيره من أبواب البلاغة - ليس في متناول
الألسنة والأقلام، ولا في متناول الأمانى والأحلام.

خذ لذلك مثلاً قوله تعالى: (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ
بِالْخَيْرِ لَقُبَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ.. فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي
طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)^(١)

الآية مسوقة في شأن منكرو البعث الذي قال لهم النبي: إني رسول
الله إليكم، وإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقالوا متهمين:
(اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من
السماء أو اثبتنا بعذاب أليم)^(٢). فلما لم يجيبهم الله إلى اقتراحهم وأخر
عنهم العذاب إلى ساعته المحدودة أطفاهم طول الأمن والدعة والعافية
الحاضرة حتى نسوا ريب الدهر وأمنوا مكر الله، فاجملوا يستعجلون
بالشر استعجالهم بالخير ويقولون: متى هو؟ وما يحبسهم لو كان آتياً؟

(١) الآية ١١ من سورة يونس «١٠»

(٢) الآية ٣٢ من سورة الأنفال «٨»

أراد القرآن أن يقول في جواب هذا الاستعجال : — لو كانت سنة الله قد مضت بأن يعجل للناس الشر إذا استعجلوه ، كتعجيله لهم الخير إذا استعجلوه ، لتعجله هؤلاء . ولكنه قد جرت سنته التي لا تبدل بأن يعجل الظالمين ويؤخر حسابهم الى أجل مسمى . وعلى وفق هذا النظام المسنون سيرك هؤلاء وشأنهم حتى يجيء وقتهم .

هذا هو الوضع الذي يوضع عليه الكلام في السنة الناس وفي طبيعة اللغة لتأدية المعنى الإجمالي الذي ترمي إليه الآية . فانظر ماذا جرى ؟..

(١) كان الكلام في وضعه العادي مؤلفاً من قضايا ثلاث : اثنتان منها بمثابة المقدمات . والثالثة بمنزلة النتيجة . فاقصر القرآن على الأولى والأخيرة . أما الوسطى وهي الاستدراك — أو الاستثنائية كما يسميها علماء المنطق — فقد طواها طياً .

(٢) وكانت المقدمة الأولى في وضعها الساذج تتألف من أربعة أطراف : تعجيل من الله في الخير وفي الشر ، واستعجال من الناس كذلك . ولكن الكلام هاهنا ليس فيه إلا تعجيل واحد من الله ، واستعجال واحد من الناس .

(٣) وكانت المقابلة في التشبيه بحسب الظاهر إنما هي بين تعجيل وتعجيل . أو بين استعجال واستعجال . فأدبر الكلام في الآية على وجه غريب ، وجعلت المشابهة بين تعجيل واستعجال .

وبعد هذا التصرف كله هل ترى كلاماً مبتوراً أو طريقاً ملتوياً يتعرّض فيه الفهم ؟ أم ترى مغزى الآية لائحاً للعامة والخاصة ، كالبدل ليس دونه سبحانه ؟ .

فارجع إلى طلب شيء من أسرار البيان ، وقل : كيف جاء هذا الإشراف مع هذا الاختصار البليغ ؟

نقول :

(أما الأول) فإنه لم يدع تلك المقدمة المطوية إلا بعد أن رفع لها عكّمين من جانبيها يدلان على مكانها ويوحيان بها إلى النفس من وراء حجاب . فقد أقام عن يمينها كلمة « لو » الامتناعية التي صدر بها المقدمة الأولى ، دلالة على أنه لا يكون منه هذا التعجيل . وعن يسارها حرف التفريع التي صدر به النتيجة في قوله (فنذر) لكي يتم على أن لهذا الفرج أصلاً من جنسه يقال فيه : ولكن شأنه أن يذر الناس . فلذلك يذر هؤلاء

ولما كانت الفاء وحدها ليست نصّاً في المطلوب ؛ لأنها كما تكون للتفريع تكون لمجرد العطف — فربما اتصل القارئ عاطفاً بها على جزء الشرط قبلها ، من قبل أن يتبين له فساد المعنى لو عطف — لم يكشف بالفاء ، بل عزّزها بقوتين أخريين ؛ إذ حوّل صيغة النتيجة من الماضي إلى المضارع ، ثم من الغيبة إلى التكلم ؛ ليكون هذا الانقطاع اللفظي بينها وبين ما قبلها إيذاناً بانقطاعها عنه معنى وإذناً بالوقوف دونها ، حتى لا تقع النفس لحظة ما في أدنى اضطراب أو لبس . ذلك إلى ما في هذا التحويل من الافتنان في الأسلوب تجديداً لنشاط السامع ، ومن إلقاء الرعب في القلوب بصدور نطق الوعيد والاستدراج على لسان الجبروت الملكي نفسه .

(أما الثاني) فإنه لما حذف طرفين من الأطراف الأربعة لم يحذفهما من جنس واحد ، بل أبقى من كل زوجين واحداً هو نظير ما حذفه من صاحبه ، لينبه بالملحوظ على المحذوف . فكانت كلمة « التعجيل » منبهة على نظيرتها في المشبه به ، وكلمة « الاستعجال » منبهة على مقابلتها في المشبه .

(أما الثالث) فإنه نبه به على معنى هو غاية في اللطف ، وهو سر الإمهال ، وحكمة عدم التعجيل من الله . ذلك بأنه صوّر هذا التعجيل

المفروض بصورة تشبه التماس الطالب وحرصه الشديد على إرضاء شهوته وسد حاجته الملحة التي تبعته على استعجاله ، ولا سيما إذا كان يطلب الخير لنفسه . كأنه قيل : إنه تعالى لو عجل لهم ذلك لكان مثله بهذا التعجيل كمثله هؤلاء المستعجلين ، في استفزاز البواعث إياه . وحاش لله .

هذا إلى تصرفات عجيبة أخرى :

(منها) أن كلمة «لو» بحسب وضعها وطبيعتها معناها تتطلب أن يليها فعل ماض . ولكن المطلوب هاهنا ليس هو نفي المضي فحسب بل بيان أن هذا الفعل خلاف سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً . فلو أدى المعنى على هذا الوضع لطال الكلام ، ولقيل : «لو كانت سنة الله المستمرة في خلقه أن يعجل الخ» : فانظر كيف اختصر الكلام في لفظ واحد بإخراج الفعل في صورة المضارع الدال على التكرار والاستمرار ، واكتفى بوضع «لو» قرينة على أن ما بعدها ماض في معناه . وهكذا أدى الغرضين جميعاً في رفق ولين .

(ومنها) أنه كان مقتضى التطابق بين الشرط والجواب أن يوضع الجواب عدلاً له فيقال : (لعجله) . ولكنه عدل إلى ما هو أفخم وأهول ، إذ بين أنه لو عجل للناس الشر لعجل لهؤلاء منه نوعاً خاصاً هم له أهل ، وهو العذاب المستأصل الذي تُقضى به آجالهم .

(ومنها) أنه كان مقتضى الظاهر في تقرير النتيجة أن يقال : «فندرهم» أو «فندر هؤلاء» ولكنه قال : (فندر الذين) لا يرجون لقاءنا) تحصيلاً لغرضين مهمين : أحدهما التنبيه على أن منشأ هذا الاستعجال منهم هو عدم إيمانهم بالبعث ، والثاني التنبيه على أن قاعدة الإمهال من الله قاعدة عامة لهم ولأمثالهم .

(ومنها غير ذلك ...)

قل لنا بربك : لو ظفرت في كلام البشر بواحدة من هذه التصرفات ، ففي أي أسلوب غير أسلوب القرآن تظفر بهذه المجموعة أو بما يدانيها ، في هذا القدر أو في ضعفه من الألفاظ ؟

وإليك مثلاً آخر في المعنى نفسه : - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ؟ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؟ أَلَا أَنْتُمْ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ؟!) (١)

يقول الله تعالى : -

«نَبِّئُونِي عَنْ حَالِكُمْ إِنْ جَاءَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ مَاذَا أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ صَانِعُونَ ؟ إِنْ كُنْتُمْ هُنَاكَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : فإِذَا الْإِصْرَارُ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ الْآنَ مِنْ تَكْذِيبٍ وَاسْتَعْجَالٍ ، وَإِذَا الْإِيمَانُ . فَأَيُّهُمَا تَخْتَارُونَ ؟ أَتَسْتَعْجِلُونَ بِالْعَذَابِ يَوْمَئِذٍ كَمَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ الْيَوْمَ ؟ كَلَّا ، فَإِنَّكُمْ مَجْرُمُونَ ، وَكَيْفَ يَتَشَوَّقُ الْمُجْرِمُ لِرُؤْيَةِ الْعَذَابِ الَّذِي إِنْ جَاءَ فَهُوَ لَا مَحَالَةَ مُوَاقِعُهُ ؟ ثُمَّ نَبِّئُونِي أَيُّ نَوْعٍ مِنْهُ تَسْتَعْجِلُونَ ؟ فَإِنَّهُ لَيْسَ نَوْعاً وَاحِداً بَلْ هُوَ أَلْوَانٌ وَفَنُونَ . «أَمْ» أَنْتُمْ الْيَوْمَ تَكْذِبُونَ ثُمَّ إِذَا وَقَعَ بَعْدَ حِينٍ آمَنْتُمْ بِهِ ؟ أَلَا إِنَّهُ لَنْ يَنْفَعَكُمْ يَوْمَئِذٍ إِيمَانُكُمْ بَعْدَ أَنْ مَاطَلْتُمْ وَسَوَّيْتُمْ حَتَّى ضَيَعْتُمْ الْفُرْصَةَ وَفَاتَكُمْ وَقْتُ التَّدَارُكِ . بَلْ هُنَاكَ يُقَالُ لَكُمْ تَنْدِيماً وَتَحْسِيراً : أَلَا أَنْ تَوْمَنُونَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ وَتَسْتَعْجِلُونَ !!

هذا هو المعنى في ثوبه الطبيعي

فانظر كم من كلمة وكم من جملة طُويت في صدر الكلام وفي شِقْبِهِ ؟ وكيف أنها حين طويت لم يترك شيء منها إلا وقد جعل في اللفظ مصباح يكشف عنه ومفتاح يوصل إليه ؟ فوضع استفهامين متقابلين في الكلام دل على أن هنالك استفهاماً جامعاً لهما مردداً بينهما ، يقال فيه :

(١) الآيات ٥٠ و ٥١ من سورة يونس ١٠٠

ماذا تصنعون ، وأي الطريقين تسلكون ؟ والاستفهام عن الصنف المستعجل به من العذاب دل على استفهام تمهيدي قبله عن حصول أصل الاستعجال . وكلمة « المجرمون » دلت على استحالة هذا الشق من التردد . وكلمة « ثم » العاطفة دلت على المعطوف عليه المطوى بينها وبين الهمزة . ولفظ الظرف « الآن » دل على عامله المقدر . وقس على ذلك سائر المحذوفات .. حتى إن مدة الاستفهام الداخلة على هذا الظرف قد دلت على طول مدة التسويف الذي منع من قبول إيمانهم : لأنهم عمّروا ما يتذكر فيه من تذكر .

فمن ذا الذي يستطيع أن يجرى في هذا المضمار شرفاً أو شرفين ثم لا تضطرب أنفاسه ، ولا تكبو به ركائب البيان وأفراسه ؟ اللهم إن من دون ذلك لشقة بعيدة وسفراً غير قاصد . وإن في دون ذلك لحداء للإعجاز .

- ٢ -

القرآن في سورة سورة منه

« الكثرة » و « الوحدة »

هذا الذي حدثناك عنه من عظمة الثروة المعنوية في أسلوب القرآن على وجازة لفظه ، يُضاف إليه أمر آخر هو زينة تلك الثروة وجمالها . ذلك هو تناسق أوضاعها ، واتئلاف عناصرها ، وأخذ بعضها بحجر بعض ، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها .

وأنت قد تعرف أن الكلام في الشأن الواحد إذا ساء نظمته انحلت وحدة معناه فترق من أجزائها ما كان مجتمعاً ، وانفصل ما كان متصلاً ؛

كما تبدد الصورة الواحدة على المرآة إذا لم يكن سطحها مستوياً . أليس الكلام هو مرآة المعنى ؟ فلا بد إذا لإبراز تلك الوحدة الطبيعية « المعنوية » من إحكام هذه الوحدة الفنية « البيانية » . وذلك بتمام التقريب بين أجزاء البيان والتأليف بين عناصره حتى تماسك وتعايق أشد التماسك والتعايق

ليس ذلك بالأمر الهين كما قد يظنه الجاهل بهذه الصناعة ؛ بل هو مطلب كبير « يحتاج » مهارة وحذقاً ولطف وحس في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء : أيها الحق أن يجعل أصلاً أو تكميلاً ، وأيها الحق أن يبدأ به أو ينتهي أو يتبوأ مكاناً وسطاً ؟ ثم يحتاج « مثل ذلك في اختيار أحسن الطرق لمزجها : بالإسناد ، أو بالتعليق ، أو بالعطف ، أو بغيرها هذا كله بعد التلطف في اختيار تلك الأجزاء أنفسها ، والاطمئنان على صلة كل منها بروح المعنى وأنها نقية من الحشو ، قليلة الاستطراد ، وأن أطرافها وأوساطها تستوي في تراميها إلى الغرض ، ويستوي هو في استهدافه لها ، كما تستوي أبعاد نقط الدائرة بالقياس إلى المركز ويستوي هو بالقياس إلى كل منها .

تلك حال المعنى الواحد الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالاً طبعياً فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها ، المنفصلة بطبيعتها ؟ كم من المهارة والحذق ، بل كم من الاقتدار السحري يتطلبه التأليف بين أمزجتها الغريبة واتجاهاتها المتشعبة ؟ حتى لا يكون الجمع بينها في الحديث كالجمع بين القلم والحذاء والشار والماء ؛ بل حتى يكون لها مزاج واحد واتجاه واحد ، وحتى يكون عن وحدتها الصغرى وحدة جامعة أخرى إنه من أجل عزة هذا المطلب نرى البلغاء وإن أحسنوا وأجادوا إلى حد ما في غرض غرض ، كان منهم الخطأ والإساءة في نظم تلك الأغراض كلاً أو جلاً . « فالشعراء » حينما يبحثون في القصيدة الواحدة بعمان عدة ، أكثر ما يبحثون بها أشتاتاً لا يلوى بعضها على بعض . وقليل

ما يهتدون إلى حسن التخلص من الغرض إلى الغرض ، كما في الانتقال من التسيب إلى المدح . « والكتاب » ربما استعانوا على سد تلك الثغرات باستعمال أدوات التنبيه أو الحديث عن النفس ؛ كقولهم : ألا وإن .. هذا ولكن .. بقی علينا .. ولنتنقل .. نعود .. قلنا .. وسنقول ..

هذا شأن الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد في المجلس الواحد . فكيف لو قد جرى بها في ظروف مختلفة وأزمان متطوالة ؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعاً ، والهوة بينها أعظم اتساعاً ؟

فإن كنت قد أعجبتك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه ، حيث الموضوع واحد بطبيعته ، فهلم إلى النظر في السورة منه حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة ، لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز .

ألم تعلم أن ما امتاز به أسلوب القرآن من اجتناب سبيل الإطالة والتزام جانب الإيجاز - بقدر ما يتسع له جمال اللغة - قد جعله هو أكثر الكلام افتناناً ، نعي أكثره تناولاً لشؤون القول وأسرعه تنقلاً بينها^(١)

(١) والأعجب أنه مع كونه أكثر الكلام افتناناً وتنوعاً في الموضوعات ، هو أكثره افتناناً وتلويناً في الأسلوب في الموضوع الواحد . فهو لا يستمر طويلاً على نمط واحد من التعبير كما أنه لا يستمر طويلاً على هدف واحد من المعاني ألا تراء كما ينتقل في السورة الواحدة من معنى إلى معنى ينتقل في المعنى الواحد بين إنشاء وإخبار ، وإظهار وإضمار ، وإسمية وفعلية ، ومضى وحضور واستقبال وتكلم وغيبية وخطاب ؛ إلى غير ذلك من طرق الأداء ، على نحو من السرعة لا عهد لك بمثل ولا بما يقرب منه في كلام غيره قط . ومع هذه التحولات السريعة المستمرة التي هي مظنة الاختلاج والاضطراب ، بل مظنة الكبوة والعار ، في داخل الموضوع أو في الخروج منه ، تراء لا يضطرب ولا يتعثر ، بل يحتفظ بتلك الطبقة العليا من مائة النظم وجودة السبك سقى يصوغ من هذه الألفاظ الكثيرة منظراً مؤثلاً . فأي امرئ يحسن العربية ويخطر في فطن القرآن هذه النظرة ثم لا يرى فيه من أثر القدرة الباهرة سراً من أسرار التهدي والإعجاز .

وأنت فقد تسع بعض المبتدئين في تدقيق جمال القرآن والبحث عن منابع جماله يستلزلون ؛ ما سرتلك الحال النفسية التي يجدها تال القرآن وسامعه من طراوة وتجدد في نشاطه مع كل مرحلة

من وصف ، إلى قصص ، إلى تشريع ، إلى جدل ، إلى ضروب شتى ، بل جعل الفن الواحد منه ينشعب إلى فنون ، والشأن الواحد فيه تنطوي تحته شؤون وشؤون .

أولست تعلم أن القرآن - في جل أمره - ما كان ينزل بهذه المعاني المختلفة جملة واحدة ، بل كان ينزل بها آحاداً مفرقة على حسب الوقائع والدواعي المتجددة ، وأن هذا الانفصال الزمني بينها ؛ والاختلاف الذاتي بين دواعيها ، كان بطبيعته مستتبعا لانفصال الحديث عنها على ضرب من الاستقلال والاستئناف لا يدع بينها منزعا للتواصل والترابط ؟

ألم يكن هذان السببان قوتين متظاهرتين على تفكيك وحدة الكلام وتقطيع أوصاله إذا أريد نظم طائفة من تلك الأحاديث في سلك واحد تحت اسم سورة واحد ؟

خذ بيدك بضعة متون كاملة من الحديث النبوي كان التحديث بها في أوقات مختلفة ، وتناولت أغراضاً متباينة ؛ أو خذ من كلام من شئت من البلغاء بضعة أحاديث كذلك . وحاول أن نجى بها سرداً لتجعل منها حديثاً واحداً . من غير أن تزيد بينها شيئاً أو تنقص شيئاً . ثم انظر :

منه ، حتى لا يعرف الملل منها أمن السير فيه ؟ فنتبهم أن تلك الظاهرة العجيبة لها في القرآن منابع جمة قد أشير قبل إلى طرف منها (فيما تقدم لنا من الحديث عن خاصة القرآن الصوتية - ص ١٠٩ -) وهذه الخاصة التي تشير إليها فيها منبع آخر أعق وأغزر ، غير أنه لا يقدرها حق قدرها إلا من نظر في كلام البلغاء ووقف على مبلغ افتنانهم في أساليبهم ، ومبلغ افتنانهم في أغراضهم ، ثم جاء ليتدبر هاتين التاحيتين من نظم القرآن . فهناك يرى نفسه أمام نهاية لم يجاوز البلغاء بدايتها ، إذ يرى أنه لا يستقل فيه من خطوة إلى خطوة إلا استعرض في الخطوة التالية من مذاهب المعنى والوان الأسلوب جديداً إثر جديد . فكيف يعرف الملل سبيلا إلى قلبه مع دوام هذه النظرية والتجديد ؟ كل امرئ يستطيع أن يجرب نفسه حين يطول به الوقوف أمام منظر واحد جميل ، هل يجد لديه من هزة الاستحسان في هذا الاستمرار ما يجده لو اعترض سلطة من المناظر الرائعة قد صنفت فيها ضروب الفوائد والمتع ثم جمعت تمر به متنوعة في أبداع تنسيق وأحسن تقويم ؟ اللهم ، لا . فذلك كذلك .

كيف تتناكر معانيها وتتنافر مبانيها في الأسماع والأفهام ! وكيف يبدو عليها من الترقيع والتلفيق والمفارقة ما لا يبدو على القول الواحد المسترسل !

وسبب ثالث كان أجدر أن يزيد نظم السورة تفكيكاً ووحدةً تمزيقاً. ذلك هو الطريقة التي اتبعت في ضم نجوم القرآن بعضها إلى بعض ، وفي تأليف وحدات السور من تلك النجوم . ولإنها لطريقة طريفة سنريك فيها العجيبة الثالثة الكبرى التي خرجت بهذا التأليف القرآني عن طبيعة التأليف الإنساني ، فتعال وانظر !

انظر إلى الإنسان حين يزاول صناعة ما من صناعاته التركيبية . ألا تراه يبدأ عمله دائماً بتعرف أجزاء المركب ومقوماته ، والوقوف على عناصره ومتمماته ، قبل أن يبت الحكم في تحديد موقع كل جزء منها ؟ هاتان مرحلتان تنزل الثانية منهما منزلة الصورة من مادتها . فلا جرم أن عكس القضية فيهما لا يكون إلا سيراً بالعقل البشري في غير سبيله . وإدلاجاً به في منزلة لا قرار للإقدام عليها ، ولا هدى للسالك فيها . وهل رأيت أحداً سلك هذه السبيل الموثقة ثم استقام له الأمر عليها إلى نهايته (١) ؟

(١) نقول : هل رأيت عاقلاً تعجل بالقضاء في تحديد الموقع لجزء جزء من صنعة قبل أن يحيط بسائر أجزائها علماً ؟ وهل تراه لو فعل يكون قضاؤه في هذا الترتيب قضاءً مبرماً ؟ ثم هل تراه لو أصر على هذا الترتيب يتم له ما يشتهي لصنعة من نظام محكم ؟ - كلا إن العاقل لو قام بهذه التجربة في بعض الأجزاء نزولاً على البهية الخاضعة فإنما يتخذها تملةً وقتية ، ريثما يبدو له عنصر آخر أحق بهذه الرتبة أو تلك ، ثم لا يلبث أن يعود إلى الأول ليقيسه عن مكانه قليلاً أو كثيراً ، أو ليفصله عن هذه المجموعة إلى مجموعة أخرى ، أو ليجمعه كلاً قائماً برأسه ... وهكذا لا يزال يقلب وجوه الرأي في فظام تلك المواد ، حتى إذا ما فرغ منها جمعاً وتفصيلاً ، وانكشفت له جملة وتفصيلاً ، فهناك فقط يستطيع أن يفر كل جزء في مستقره الأخير وأن يعطى المركب صيغته النهائية . وكل ترتيب تأخذه الأحاد قبل ذلك فإنه لا يجمعها إلا تلفيقاً ، ولا يعطيها إلا صورة شوهاء . وكذلك كل نظام أقيم على غير أساس العلم المفصل بأجزاء المنظوم فأحر به أن يكون مثلاً للضعف والاختلال . وإن بقي اليوم قائماً لم يلبث أن ينهار غداً .

بل انظر إلى الإنسان حين يأخذ في ترتيب أجزاء المركب بعد جمعها . ألا تراه خاضعاً لسنة السير الطبيعي التي يخضع لها كل سائر إلى غرض ما حسي أو عقلي ؟ فهو إن قطع سبيله خطوات لم يستطع أن يجتاز آخرها قبل أولها ، وإن صعد فيه درجات لم يستطع أن يوتر أسفلها عن أعلاها .

تلك حدود رسمتها قوانين الفطرة العامة ، فلا يستطيع أحد أن يتخطاها . سواء في صناعاته المادية أو المعنوية . فالبناء والحائك والكاتب والشاعر في هذه الحدود سواء .

ونضرب لك مثلاً :

قدّر في نفسك أن رجلاً نزل وادياً فسيحاً ليس عليه بنيان قائم ، وليس به شيء من مواد البناء وأنقاضه ، فما لبث أن أحس برجفة أرضية أو عاصفة سماوية ، وإذا قمة الجبل تنصدع قليلاً فتلقني بجانبه صخراً أو بضعة صخور .. ثم تمضي فترة طويلة أو قصيرة ، وإذا هزة ثانية أو ثالثة تلقى إليه شظييات من الحديد والحُصَم ، أو نُشارات من الفضة والذهب .. أترى أن هذا الرجل أو أن أحداً من العقلاء يستطيع منذ اللحظات الأولى أن يضع تصميمه على إقامة مدينة جامعة من تلك المواد المتناثرة ومما عساه أن يحیی من أمثالها ؟ وأن يبدأ بالعمل في مهمة التخطيط والبناء ؟ فما يدريه لعل هذه الظواهر لا تتكرر أمامه نزلةً أخرى ، ثم ما يدريه أنها إن عادت ثم مرة تعود ، وما نوع المادة التي تتساقط معها في كل مرة ، وكم عِدّة القطع في كل مادة من هذه المواد ، وكم عِدّة الأبنية التي يمكن إقامتها منها ، وما النظام الهندسي الخاص بكل بناء : سعةً وارتفاعاً ونقشاً وزخرفاً ، وما ذرع الفضاء الذي ستشغله هذه الأبنية جملةً ؟ ..

في هذا الجو المملوء غموضاً وإبهاماً لا يجرؤ عاقل أن يفامر بتصميمه في بناء كوخ حقير ، فضلاً عن بلد كبير ، فضلاً عن أن يهب من

فوره لإنتقاد عزمه فيمضي في مهمة البناء منذ وصلت إليه تلك اللبنة الأولى

ولئن افترضت إنساناً غامر هذه المغامرة ، وأن المقادير سارعت في هواه ، وأسعفته بما شاء من مواد البناء الذي تخيله وتمناه ، أترأه يعمد إلى مخاطرة أخرى ؛ فيتخذ له في البناء أسلوباً يُراغم به قانون الطبيعة ، بأن يوئى على نفسه ألا يدع لبنة تصل إلى يديه إلا أنزلها - في ساعة وصولها - منزلها الخلق بها حيث كان ؟ ذلك على حين أن تلك اللبنة لم تتساقط إليه متجانسة مرتبة على ترتيبها في وضعها المنتظر ، بل جعلت تتناثر خفافاً وثقلاً ، مختلفاً ألوانها وأحجامها وعناصرها وطاقاتها ؛ وربما وقعت له الزخارف والشرفات ، قبل أن تقع له بعض القواعد والسافات ، وربما وقعت له على التوالي أجزاء ناقصة لتوضع في أماكن متفرقة ، من أبنية متناثية ، أفلا تراه إن ذهب يضع كل جزء ساعة نزوله في موضعه المعين لم يجد مناصاً من أن يبدد أجزاء البناء هنا وهنا ، على أبعاد غير متساوية ولا متناسبة ، فيقارب بينها طوراً ويباعد طوراً ، ويعلو بها تارة وينزل تارة أخرى حتى لقد يبني أعلى البيت قبل أسفله ويمسك المحمول معلقاً بدون حامله .

فكيف يطبق بشرٌ كائناً من كان أن يضطلع بهذه المهمة ؟ ثم كيف يمضي قدماً في هذا الأمر إلى نهايته ، فلا يعود إلى جزء ما ليزيله عن موضعه الذي أحلّه فيه أوّل مرة ، أو ليلتجئ فيه إلى كسر أو نحت أو حشو أو دعامة ؟ ثم كيف تكون عاقبة أمره أنه في الوقت الذي يضع فيه آخر لبنة على هذا المنهاج يرفع يده عن مدينة منسقة ليس فيها قصر ولا غرفة ولا لبنة ولا جزء صغير ولا كبير إلا وقد نزل منزله الرصين الذي يرتضيه ذوق الفن ، حتى لو تبدل واحد منها مكان غيره لاختل البناء أو ساء النظام ؟ أليس ذلك إن وقع يكون تحدياً للقدرة البشرية جمعاء ؟

ألا فقد وقع مصداق هذا المثل في مسألتنا . وإليك البيان : -

(أما) الرجل فهو هذا النبي الأمي صلوات الله عليه .

(وأما) المدينة الجامعة التي شرع في بنائها منذ وقعت له لبنتها الأولى فذلك الكتاب العزيز الذي أخذ هو منذ وصلت إليه باكورة رسائله يرتب أجزائه ترتيب الواثق المطمئن إلى أن سيكون له منها ديوان تام جامع (وأما) القصور ، والغرفات ، واللبنة ، فهي أجزاء هذا الديوان : من السور ، والنجوم ، والآيات .

(وأما) تلك العوامل الفجائية التي جعلت تستنزل من مختلف معادن الجبال ما ركبت منه هذه القصور المشيدة فتلك هي الأحداث الكونية والاجتماعية ، والمشاكل الدينية والدنيوية التي كانت تعرض الناس آنأ بعد آن في شؤونهم العامة والخاصة ، فكان يتقدم بها المؤمن منهم مستفتياً ومسترشداً ، والمكذب مستشكلاً ومجادلاً ، وكان على وفق ذلك يتنزل الكلام نجماً فنجماً ، بمعان تختلف باختلاف تلك المناسبات والبواعث ، وبمقادير تتفاوت قلة وكثرة ، وعلى طرق تتنوع ليناً وشدة .. ومن هذه النجوم المختلفة المتفرقة صارت تتألف تلك المجاميع المسماة بالسور ؛ لا على أساس التجانس بين أجزاء كل مجموعة منها ، بل على أن يأوى إلى الحظيرة الواحدة ما شئت من فصائل الجنس الواحد والأجناس المتخالفة

(وأما) الطريق العجيب الذي اتبع في تأليف تلك الأبنية من أجزائها - وهو السبب الثالث الذي رفع المسألة من حدّ العسر إلى حدّ الإحالة - فهو أن ذلك الذي نزل عليه الذكر لم يتربص بترتيب نجومه حتى كملت نزولاً ، بل لم يترث بتأليف سورة واحدة منه حتى تمت فصولاً ؛ بل كان كلما ألقى إليه آية أو آيات أمر بوضعها من فوره في مكان مرتب من سورة معينة . على حين أن هذه الآيات والسور لم تتخذ في ورودها التنزيلي سبيلها الذي اتبعته في وضعها الترتيبي ؛ فكمن من سورة

نزلت جميعاً أو أشتاتاً في الفترات بين النجوم من سورة أخرى ، وكم من آية في السورة الواحدة تقدمت فيها نزولاً وتأخرت ترتيباً ، وكم من آية على عكس ذلك .

نعم ، لقد كان للنجوم القرآنية في تنزيلها وترتيبها ظاهرتان مختلفتان ، وسيلان قلماً يلتقيان . ولقد خلّص لنا من بين اختلافهما أكبر العبر في أمر هذا النظم القرآني .

فلو أنك نظرت إلى هذه النجوم عند تنزيلها ، ونظرت إلى ما مهّد لها من أسبابها ، فرأيت كل نجم رهيناً بنزول حاجة مُلّمة ، أو حدوث سبب عام أو خاص ، إذا لرأيت في كل واحد منها ذِكْراً مُحَدّثاً لوقته ، وقولاً مرتجلاً عند باعثه ، لم يتقدم للنفس شعوراً به قبل حدوث سببه . ولرأيت فيه كذلك كلاً قائماً بنفسه لا يرسم نظاماً معيناً يجمعه وغيره في نسق واحد .

ولو أنك نظرت إليها في الوقت نفسه فرأيتها وقد أعدت لكل نجم منها ساعة نزوله سياجٌ خاص يأوي إليه سابقاً أو لاحقاً ؛ وحدّد له مكان معين في داخل ذلك السياج متقدماً أو متأخراً^(١) إذا لرأيت من خلال هذا التوزيع القسري المحدود أن هنالك خطة تفصيلية شاملة قد رُسمت فيها مواقع النجوم كلها من قبل نزولها ، بل من قبل أن تتخلق أسبابها ، بل من قبل أن تبدأ الأطوار الممهّدة لحدوث أسبابها وأن هذه الخطة التي رسمت على أدق الحدود والتفاصيل قد أبرمت بأكده العزم والتصميم : فما من نجم وضع في سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها ، وما

(١) قد يرى هذا النجم مثلاً يؤمر به عند نزوله أن يوضع في ختام سورة كذا ، والنجم الذي بعده يؤمر به أن يجعل في أثناء تلك السورة نفسها على رأس عدد محدود من آياتها . وهذا يجعل صدراً لسورة تأتي بعد حين ، والذي يليه يأخذ جانباً من سورة مضت منذ حين .. وهلم جرا .

من نجم جعل في مكان ما من السورة آخرها أو أولاً ، ثم وجد عنه أهد الدهر مصرفاً ولا متحولاً .

وهنا تقف موقف الحيرة في أمرك ، وتكاد تنكر ما تحت سمعك وبصرك ، ثم ترجع إلى نفسك تسائلها عن وجه الجمع بين ما رأيت وما ترى : - « أليس هذا التنزيل قد سمعته الآن جديداً وليد يومه ، ووحيداً رهين سببه ، فمالى أراه ليس جديداً ولا وحيداً ؟ لكأني به وبالقرآن كله كان ظاهراً على قلب هذا الرجل قبل ظهوره على لسانه وكان على هذه الصورة مؤلفاً في صدره قبل أن يؤلفه ببيانه . وإلا فما باله يؤلف هذا التأليف بين آحاد لا تنداعى إلى الاجتماع بطائعتها ؟ لماذا لم يدرها كما جاءت فرادى منثورة ؟ وهلاً إذ أراد جمعها أدخلها كلها في مجموعة واحدة ؟ أو هلاً قسّمها إلى مجاميع متساوية أو متجانسة ؟ ترى على أي قاعدة بنى توزيعها وتحديد أوضاعها هكذا قبل تمامها أو تمام طائفة منها ؟ هل عسى أن تكون هذه الأوضاع كلها جارية على محض المصادفة والاتفاق ؟ - كلا ، فقد ظهر في كل وضع منها أنه مقصود إليه بعينه ، كما ظهر القصد في كل طائفة أن تنتظم منها وحدة محدودة ذات ترتيب ومقدار بعينه .. أم هل عسى أن تكون هذه الأوضاع - وإن قصدت - ليست وليدة تقدير سابق ، وإنما هي تجربة اختبارية أثمرتها فكرة وقتية ؟ - كلا ، فإن واضعها حين وضعها قد ضربها لضربة لازب ثم لم يكرّ عليها بتبديل ولا تحويل . فعلام إذاً بنى ذلك القصد وهذا التصميم ؟ »

ولن يكون الجواب الذي تسمعه من نفسك لو أصاحت إلى بديهة العقل إلا أن نقول : -

« إنه لا يجرؤ في قرارة الغيب على وضع هذه الخطة المفصلة المصممة إلا أحد اثنين : جاهل جاهل في حضيض الجهل ؛ أو عالم عالم فوق أطوار العقل . لا ثالث . (فأمّا) إن كان فرغ من نظام تأليفها وصورة تركيبها من قبل أن يستحكم له العلم بأسباب ذلك ومقاصده وأدبارهِ وعواقبه ،

ولأنما بنى أمره على الظن والتحسس وعلى التخيل والتمني ، فذلك امرؤ بلغت به الجرأة على نفسه أن أعلن ملك ما لا يملكه وادعى علم ما استكشف الأيام عن جهله . وما عليك إلا أن تتربص به قليلا لترى بطلان أمره وفساد صنعه ، فهيهات أن يلد الجهل نظاماً جارياً ، وإحكاماً باقياً . (وأما) إن كان قد فصلها على علم وبصر ، وأعطى كل جزء منها موقعه بميزان وقدر ، فلا ريب أن سيكون نظامها مثال الإتقان وآية الجمال ؛ ولكن واضعها إذا لا يمكن أن يكون هو هذا الإنسان ؛ إلا أن يكون قد استمدّها من أفق أعلى من أفق نفسه ، ومحيط أوسع من محيط علمه ؛ إذ أتى للإنسان وهو هذا المحكوم بطبيعة الدهر أن يكون عليها متحكماً ؟ أم كيف يتهيأ له وهو في جهله العتيد بمقدمات عمله أن يكون بنتائجها التفصيلية عالماً ؟ أف يكون بالشيء الواحد جاهلاً وعالماً معاً ؟ أم يكون من وجه واحد حاكماً ومحكوماً معاً ؟

« وهل رأيت أو سمعت أن أحداً من الكتاب أو الشعراء استطاع في مفتتح حياته الأدبية أن يحصى كل ما سيجيء على لسانه من جيد الشعر أو النثر في المناسبات المتنوعة إلى آخر عهده بالدنيا ، وأن يضع من أول يوم منهاجاً لديوانه المنتظر ، يفصله تفصيلاً لا يقنع فيه بتقدير أبوابه وفصوله حتى يقدر لكل باب عدة ما يحويه من خطاب أو قصيد ، ويحدد لكل واحد من هذين مكاناً معلوماً لا يستقدم عنه ولا يستأخر ، حتى إذا جاء عند داعيته ردة إلى مكانه غير متلبث ولا متوقف ، ثم ينجح في هذه التجربة نجاحاً مطرداً تنفذ فيه أحكامه وتحقق به أحلامه ، فيستقيم له النسق بين هذه المقطوعات كلها ، من غير أن يقدم فيها شيئاً أو يؤخر شيئاً ، ومن غير أن يزيد بينها أو ينقص شيئاً ؟

« لعمري » لن يصح هذا الفرض في أحد من البشر لصح مثله في نبي القرآن ، ولكن الإنسان هو الإنسان . ومن لم يحط علماً بما سيعترضه في دهره من بواعث القول وفنونه فهو عن الإحاطة بنصوص هذا القول

أبعد ، وهو عن الإحاطة بمراتب هذه النصوص أشد بعداً . بل الإنسان حين تحفزه باعثة القول وترد إليه سائحته لا يعدو فيها إحدى خطتين : فهو « إما » أن يدعها كما هي سائحة منعزلة . وكذلك يفعل في أمثالها ، حتى إذا بلغ الغاية رجع أدراجها فأخذ فيها جمعاً وتفريقاً ، وتبويباً وترتيباً « وإما » أن يأخذ في ضم هذه النصوص ، ولأى على وفق ورودها الأول فالأول . أما الثالثة وهي أن يجعلها هكذا عزيز . ولا يزال يظهرها من قريب وبعيد ، عن أيمانها وعن شمائلها وفي خلاها ، بهذه الطريقة المحددة ، وبهذه الطريقة المشتتة المعقدة ، على أن يجعل المكان الذي أحلّ كل سائحة فيه مكاناً مسجلاً لا تحول عنه ولا تزول . ثم يطمع أن يخرج له بتلك الصنعة ديوان كامل التقسيم والتبويب ، جيد التنسيق والترتيب ، مترابط متماسك في جملته وتفصيله كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ، فتلك أمنية لا يظفر المرء منها إلا بعكس ما تمنى . »

• • •

ها أنت ذا قد عرفت نهج التأليف الإنساني في صنعة البيان وغير البيان . ورأيت بعد ما بينه وبين نهج التأليف في نجوم القرآن . وعرفت ماذا كان يجب أن يحدث في النظم القرآني من جراء هذا النهج العجيب . في أسباب ثلاثة^(١) من شأنها ألا يستقيم بها للكلام طبع . ولا يلتئم له معها شمل .

فانظر الآن هل استطاعت هذه الأسباب على تضافرها أن تنال شيئاً من استقامة النظم في السور المولفة على هذا النهج ؟

أما العرب الذين تحدّاهم القرآن بسورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا في نظم سورة منها مطعماً لطامع ، بله مغمز لغامز ، لكان لهم

(١) عناصر مبنوية مختلفة . ظروف زمانية منفصلة . أوضاع تأليفية صلب ومشتتة .

معه شأن غير شأنهم . وهم هم .

وأما البلغاء من بعدهم فما زلنا نسمعهم يضربون الأمثال في جودة السبك وإحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن إلى فن .

وأما أنت فأقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأي يد وضع بنيانه ؟ وعلى أي عين صنع نظامه ؟ حتى كان كما وصفه الله (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) (١) .

إعبد إلى سورة من تلك السور التي تناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها في القرآن ، فهي جمهرته — وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة ، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدئت ؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعاظمت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأت أولاهها لأخراها ؟ ..

وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البنية في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى . ولسوف تحسب أن السبع الطول (٢) من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة ، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها (٣) قد نزلت نجوماً . أو تقولون إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فلقد كانت في

تنزيلها مفرقة عن جمع ؛ كمثل ببيان كان قائماً على قواعده فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدّرت أبعاده ورقمت لبناته ، ثم فُرق أنقاضاً فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم ، وإذا البنيان قد عاد مرصوفاً يشدّ بعضه بعضاً كهيئته أول مرة .

أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجّمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً ، وأوزاعاً من المباني جُمعت عفواً ؛ فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول ، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول ، وامتدّ من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول : فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حُجرات وأفنية في بنيان واحد قد وُضع رسمه مرة واحدة : لا تُحسّ بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق ، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق ؛ بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة ، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام . كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها ، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه ، يريك المنفصل متصلاً ، والمختلف موثقاً .

ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحُجرات في البنيان ؟ لا . بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان : فبين كل قطعة وجارتها رباطٌ موضعي من أنفسهما ، كما يلتقي العظمَان عند المَفَصِل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كسب ، كما يشبك العضوان بالشرابين والعروق والأعصاب ؛ ومن وراء ذلك كله يسرى في جملة السورة اتجاه معين ، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً ، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً ، ويتعاون بجملة على أداء غرض واحد ، مع اختلاف وظائفه العضوية

(١) الآية ٢٨ من سورة الزمر « ٣٩ »

(٢) وإذا كانت هذه السور على طولها وكثرة نجومها لا يبدو عليها انفصال النظم ، فسا تلك بما دوتها إلى سور المفصل حيث جرى التنجيم حتى في بعض القصار منها ، كالنهي ، واقراً ، والماعون ، التي نزلت كل واحدة منها مفرقة على نجمين .

(٣) هذا التردد ناظر إلى اختلاف المفسرين في سورة الأنعام . ومذهب الجمهور أنها نزلت جملة واحدة . وقد روى الطبراني وغيره ذلك عن ابن عباس موقوفاً عليه ، وروى عن أبي بن كعب مرفوعاً بسند فيه ضعف . على أنه لو صح ما ذهب إليه الجمهور في هذه السورة لكانت من جملة الشواهد على اتحاد طريقة النظم في المتجهات وغيرها . لأن نظام الانتقال بين المعاني في سورة الأنعام مثله في السور المنفك على تنجيها ، سواء .

فيا ليت شعري : إذا كانت كافة الأجزاء والعناصر التي تتألف منها وحدة السور منوطة بأسباب لم تكن كلها واقعة ولا متوقعة ، وكان لا بد لتتام هذه الوحدة من وقوع تلك الأسباب كلها في عصر نزول القرآن ليتناولها ببيانها ، فما الذي أخضع دورة الفلك لنظام هذه الوحدات وجعل هذه النوازل تتوارد بأسرها في إبان التنزيل ؟ لماذا لم يتفق في حادثة واحدة منها أن تخلفت عن عالم الوجود يومئذ لينخرم هذا النظام فتجيء سورة من السور مبتورة في مُفْتَحِهَا أو في مُخْتَمِهَا أو فيما بين ذلك ؟ أليست مطاوعة تلك الأحداث الكونية ، ومعاونتها بدقة دائماً لنظام هذه الوحدات البيانية ، شاهداً واضحاً على أن هذا القول وذاك الفعل كانا يجنيان من طريق واحدة ، وأن الذي صدرت هذه الكلمات عن علمه ، هو نفسه الذي صدرت تلك الكائنات عن مشيئته^(١) ؟

بل ليت شعري لو أن هذا الإنسان الغريب الذي جاء القرآن على لسانه كان قد أحصى ما سوف يلد الزمان من مفاجآت الحوادث المستقبلية صغيرة وكبيرة في مدى دهره ، ثم قدر ما سوف تتطلبه تلك النوازل من تعاليم الفرقان ، فما علمه بالنظام البياني الذي ستوضع عليه صيغة تلك التعاليم ؟ ثم ما علمه أي هذه التعاليم سيكون قرينة لهذا الجزء أو ذاك ؟ ليتأهب لتلك القرائن قبل ورودها فيودع في كل جزء ساعة نزولة عروة لائقة بقرينته المعينة ، حتى إذا قدمت استمسكت بعروتها فازدوجت بقرينها ذلك الازدواج المحكم . ولماذا حين وردت كل قرينة وجدت من قرينها جاراً لا يجور ولا يحار عليه ، ووجدت بجانبه المكان الذي ينتظرها ، لا ضيقاً فيزاحمها ويترجم بها ، ولا واسعاً فتقطع الصلة بينهما ، بل وجدته مقدراً بمقدارها ، حتى لا حاجة إلى الاستدراك على الماضي بمحو حرف ، ولا بزيادة حرف ، ولا بتبديل وضع ، وحتى لا مجال هناك لقول « ليت ... » ولا « لو إن ... »

بل كيف عرف كل جزء من هذه الأجزاء أين مجموعته ، وأين مستقره بينها في رأس أو صدر أو طرف : من قبل أن تتبين سائر الآحاد والفصائل . حتى إذا تم توزيع تلك الأجزاء المنفرقة ، والأشلاء الممزقة ، إذا الستار يرتفع في كل سورة عن دمية حسناء كاملة الأعضاء متناسقة الحل ؟

أي تدبير محكم ، وأي تقدير مبرم ، وأي علم محيط لا يضل ولا ينسى ، ولا يتردد ولا يتمكث ؛ كان قد أعد لهذه المواد المبعثرة نظامها ، وهداها في إبان تشييدها إلى ما قدره لها ، حتى صيغ منها ذلك العقد النظيم ، وسرى بينها هذا المزاج العجيب ؟

سبحان الله ! هل يمتري عاقل في أن هذا العلم البشري ؛ وأن هذا الرأي الأنف البدائي الذي يقول في الشيء : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لقلت أو فعلت ، ولقدمت أو أخرت » لم يك أهلاً لأن يتقدم الزمان ويسبق الحوادث بعجيب هذا التدبير ؟ أليس ذلك وحده آية بينة على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع بشر ، وإنما هو صنع العليم الخبير ؟ بلى ؛ (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)^(١) .

• • •

أما إن طلبت شاهداً من العيان على صحة ما أصلناه في هذا الفصل من نظام الوحدات في السور على كثرة أسباب اختلافها ، وأما إن أحببت أن تُريك نموذجاً من السور المنجمعة كيف التأم منها سلسلة واحدة من الفكر تتلاحق فيها الفصول والحلقات ، ونسق واحد من البيان تتعاقب فيه الجمل والكلمات ، فأني شيء أكبر شهادة وأصدق مثالا من سورة نعرضها عليك هي أطول سور القرآن كافة ، وهي أكثرها جمعاً للمعاني المختلفة ، وهي أكثرها في التنزيل نجوماً ، وهي أبعدها في هذا التنجيم تراخياً .

(١) قل كل من عند الله سبحانه ، لا معقب لحكمه ، ولا مبدل لكلمته .

(١) الآية ٨٢ من سورة النساء .

تلك هي سورة البقرة التي جَمَعَت بضعاً وثمانين ومائتي آية ، وَحَوّت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفاً وثمانين نجماً ، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً^(١) .

. . .

واعلم أنه ليس من ههنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض ، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير . ذلك ولو نشاء لأريناك في القطعة الواحدة منها أسباباً ممدودة عن أيمانها وعن شمالها تُمَتُّ بها إلى الجاردي القربى والجار الجنب ، في شبكة من العلائق يحار الناظر إلى خيوطها . مع أيها يتجه ؟ ولا يدري أيها هو الذي قصد بالقصد الأول وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضاً واحداً نرسم به خط سيرها إلى غايتها ، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها ، لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى بيد أننا قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه نحب أن نقول (كلمة) ساق الحديث إليها : وهي أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه ، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية بين جزء جزء منه — وهي تلك الصلات المبثوثة في مثاني الآيات ومطالعها ومقاطعها — إلا بعد أن يُحْكَمَ النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معاوناً

ففيها ذكر تحويل القبلية ، وذكر صيام رمضان ، وذكر أول قتال وقع في الإسلام فنزل بسببه قوله تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام — الآية ٢١٧) وكل أولئك كان نزولها في أوائل السنة الثانية من الهجرة . وفيها تلك الآية الخاتمة التي نزلت في آخر السنة العاشرة من الهجرة وهي آخر آية نزلت من القرآن بإطلاق (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله — الآية ٢٨١) وفيها ما بين ذلك .

له على السير في تلك التفاصيل عن بينة ؛ فقديماً قال الأئمة^(٢) : « إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله ، وأوله بآخره ، ويرامى بجملة إلى غرض واحد ، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة . وإنه لا غنى لمنهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها ، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية »

وبهذا تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة ، غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها : فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد ؟ وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم ، وهل يكون مثله في ذلك إلا كمثل امرئ عرضت عليه حلة موشية دقيقة الوشئ ليتأمل نقوشها فجعل ينظر فيها خيطاً خيطاً ورقعة ورقعة ، لا يجاوزه ببصره موضع كفه . فلما رآها يتجاور فيها الخيط الأبيض والخيط الأسود وخيوط آخر مختلف ألوانها اختلافاً قريباً أو بعيداً لم يجد فيها من حسن الجوار بين اللون واللون ما يروقه ويموتقه . ولكنه لو مدَّ بصره أبعد من ذلك إلى طرائف من نقوشها لرأى من حسن التشاكل بين الجملة والجملة ، ما لم يره بين الواحد والواحد ، ولتين له من موقع كل لون في مجموعته بإزاء كل لون في المجموعة الأخرى . ما لم يتبين له من قبل . حتى إذا ألقى على الحلة كلها نظرة جامعة تنتظم أطرافها وأوساطها بدا له من تناسق أشكالها ودقة صنعتها ما هو أبهى وأبهر .

(١) كتابي بكر التيسابوري ، وفنر الدين الرازي ، وأبي بكر بن العربي وبرهان الدين البقاعي ، وأبي إسحاق الشاطبي وغيرهم . أما النص المذكور هنا فمستنبط من كلمات الشاطبي في الموافقات ، في المسألة الثالثة عشرة من الكلام على الأدلة تفصيلاً . وقد عرض فيها سورة المؤمنون عرضاً إيجابياً .

فكذلك ينبغي أن يصنع الناظر في تدبره لنظم السورة من سور القرآن .

(وكلمة أخرى) تمس إليها حاجة الباحث في النسق إذا أقبل على تلك المناسبات الموضعية بين أجزاء السورة : وهي أن يعلم أن الصلة بين الجزء والجزء لا تعني اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصلات الجنسية حسب ، كما ظنه بعض الباحثين في المناسبات فجعل فريق منهم يذهب في محاولة هذا النوع من الاتصال مذهباً من التكلف والتعسف . وفريق آخر متى لم يجد هذه الصلة من وجه قريب أسرع إلى القول بأن في الموضع ^(١) اقتضاباً محضاً ، جرياً على عادة العرب في الاقتضاب

ألا أن هذا الرأي بشعبته لأوغل في الخطأ من سابقه ^(٢) ، وإن الأخذ به على عيالاته في القرآن لغفلة شديدة عن مستوى البلاغة التي تميز بها القرآن عن سائر الكلام .

فلو أن ذاهباً ذهب بمحو تلك الفوارق الطبيعية بين المعاني المختلفة التي ينتظمها القرآن في سورة منه إذاً لجرده من أولى خصائصه وهي أنه لا يترسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالاً يردّه إلى الإطالة المملة . كيف وهو الحديث الذي لا يمل ؟ .

(١) بل زعم بعضهم أن الاقتضاب هو الأصل في القرآن كله . نقل السيوطي في الإتقان في بحث المناسبة بين الآيات والسور - عن أبي العلاء محمد بن غانم أن القرآن إنما وقع على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم . وكذلك نقل عن عز الدين بن عبد السلام أن النظر في مناسبة الآية لا يحسن إلا في القضية التي نزلت على سبب واحد أما إذا اختلفت الأسباب فالربط بينها ضرب من التكلف ، لأن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضها ببعض . وقد خالفها الأئمة ووهوها .

(٢) وهو تضييق دائرة البحث في المناسبات بالتأسيها بين المعاني المتجاورة خاصة . فإذا أضيف إلى ذلك التزام طريق معين في المناسبة وهو أن تكون من قبيل التجانس المعنوي زادت المسألة ضيقاً وخروجاً ولذلك أفضى هذا الرأي بأصحابه إلى أحد الطرفين المذمومين : التكلف أو الخروج .

ولو أنه - من أجل المحافظة على استقلال هذه المعاني - ذهب يفرقها ، ويقطع أرحامها ، ويزيل التداعي المعنوي والتنظيمي من بينها ، إذاً لجرده من خاصته الأخرى ، وهي أنه لا ينتقل في حديثه انتقالاً طفيفاً يخرج به إلى حد المفارقات الصبائية التي تجمع شتى الأحاديث على غير نظام . والتي لا تدع نفس السامع تستشرف إلى اختتام كلام وافتتاح كلام . كيف وهو القول الرصين المحكم ؟

كلا ، بل الحديث فيه كما علمت ذو شجون . ولكنه حين يجمع الأجناس المختلفة لا يدعها حتى يبرزها في صورة مؤتلفة ، وحتى يجعل من اختلافها نفسه قواماً لائتلافها . وهذا التأليف بين المختلفات ما زال هو « العقدة » التي يطلب حلها في كل فن وصنعة جميلة ، وهو المقياس الدقيق الذي تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق في تلك الفنون والصناعات فإن تقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر الكثيرة أصعب مراساً وأشدّ عناء منه في أجزاء اللون الواحد والعنصر الواحد .

وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها فيخرج بذلك محاسنها ومساوئها في أجلى مظاهرها . ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحكامها بسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير أو التفريع ، أو الاستشهاد أو الاستنباط . أو التكميل أو الاحتراس ، إلى غير ذلك . وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي . أو تجاور شيئين في الوضع المكاني ، دعامة لاقتراحهما في النظم ، فيحسبه الجاهل بأسباب النزول وطبيعة المكان خروجاً وما هو بخروج ، وإنما هو إجابة لحاجات النفوس التي تنداعى فيها تلك المعاني . فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها ، رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر إما بحسن التخلص

والتمهيد . وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع ^(١) يتلاقى فيه المتباعدان ، ويتصافح به المتناكران .

وهذه كلها وجوه حسنة لو نظر إليها بين آحاد المعاني لأغنى بعضها عن بعض في إقامة النسق .

على أن روعة النظم القرآني كما علمت لا تقوم دائماً على حسن التجاور بين الآحاد ، بل ربما تراه قد أتم طائفة من المعاني ثم عاد إلى طائفة أخرى تقابلها ، فيكون حسن الموقع في التجاور بين الطائفتين موجباً لحسن المقابلة بين الأوائل من كل منهما ، أو بين الأواخر كذلك ، لا بين الأول من هذه والآخر من تلك .

(١) ولقد يعرض في هذا الوجه القوي أسرار دقيقة لو سئل المرء البيان عن وجه الحسن فيها لعجز عن وصفه ، بل لو سئل أين موضع الوصل منها لصعب عليه تحديده بقاعدة علمية . حل أنه لو تناسى تلك الألقاب الاصطلاحية والأسئلة الفضولية وخل نفسه ووجدانها ثم اتصل بهذه المواضيع تلاوة أو استماعاً لما شعر بينها بشيء من الخروج أو الانتقال ينبو عنه الفوق أو يتعثر فيه السمع ، بل يحس بينها بروح الاتصال وحلاوة الانتقال من قبل أن يهتدى لثاحية محدودة أو حلة معينة .

ومن طالت مزاولته لأساليب الكلام وتذوقه لطعومه حتى رسخت فيه ملكة التمييز بين الجيد منه والردى وجد من نفسه أهلية هذا الحكم ، إن لم يكن حل نحو من الاستدلال المنطقي فحل ضرب من الاستحسان الفقهي ، ولا سيما إن كان من بقيت في عروقهم قطرات من الدم العربي . وفي نفوسهم أثار من الحاسة العربية فمن أعطاه وجدان هذا الحسن الإجمالي في موضع ما من القرآن فلا يلومن إلا نفسه ولا يعجل بالحكم قبل أن يأخذ أهيته . وليذكر دائماً أنه بمقياس ما يجده نحو أسلوب القرآن من استحسان أو توقف إنما يختبر ما في مزاجه القوي من حسنة أو اعتلال ، وما في دراسته القوية من نقص أو كمال . وأنه ليس بأذواق القاصرين من المولدين أمثاله تختبر لغة القرآن ، كيف وقد درج أهلها الذين سجدوا لبلاغته . وكان فهم الحكم الذي ترضى حكومته هذا . ولكم وقف علم التشريح عن إدراك سر الخلق في بعض الأعضاء الباطنة لعدم الاهتمام لوظيفتها . فهل وسع أصداء من علماء التشريح إلهيين أو طبيعيين أن يحكموا بخلوها من الحكمة والفائدة ؟ كلا فإنهم لما جهرتهم عجائب الصنعة في سائر أجزاء البدن لم يسمهم في التليل الذي جهلوه إلا أن يعترفوا على الجملة بأن له البتة حكمة لم يكشفها العلم ثم لا يلبث أن يكشفها لمن أماته حمة البحث وأيده التوفيق .

وملاك الأمر في ذلك أن تنظر إلى النظام المجموعي الذي وضعت عليه السورة كلها كما وصيناك به من قبل . ونحن ذاكرون لك الآن نموذجاً منه لو وضعته نصب عينيك واحتديته في سائر السور لكان ذلك نعم الدليل في دراستك . وبالله التوفيق .

(نظام عقد المعاني في سورة البقرة)

لأعلم أن هذه السورة على طولها تتألف وحديثها من : مقدمة ، وأربعة مقاصد ، وخاتمة . على هذا الترتيب :

(المقدمة) في التعريف بشأن هذا القرآن ^(١) وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حداً من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم . وإنما يعرض عنه من لا قلب له ، أو من كان في قلبه مرض .

(المقصد الأول) في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام .

(المقصد الثاني) في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق .

(المقصد الثالث) في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً .

(المقصد الرابع) ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعضم عن مخالفتها .

(الخاتمة) في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد ، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم .

(١) عرفت في رأس البحث الأول أن لفظ القرآن يطلق على كله وعلى بعضه فالإشارة هنا يصح أن تنوجه إلى القرآن جملة ، وأن تنوجه إلى سورة البقرة خاصة . وقد أردنا بقاءها على هذا الاحتمال اقتداء بالنص الكريم : (ذلك الكتاب) ؛ لأن الإشارة فيه على الاحتمال أيضاً .

رغبنا إليك أيها القارئ الكريم حين ندرس معنا تفاصيل هذا النسق أن تستظهر بالمصحف بين يديك لتكون من الموقنين بصحة ما نشير إليه في كل خطوة .

المقدمة في عشرين آية (١ - ٢٠)

(١) بدئت السورة الكريمة بثلاثة أحرف مقطعة لا عهد للعرب بتصدير مثلها في الإنشاء والإنشاد ؛ وإنما عهدوها من القراء الكاتنين في بدء تعليمهم النهجى للناشئين . - (١.ل.م)

ومهما يكن من أمر المعنى الذي قصد إليه بهذه الأحرف ، والسر الذي وضعت هنا من أجله ، فإن تقديمها بين يدي الخطاب مع غرابة نظمها وموقعها من شأنه أن يوقظ الأسماع ويوجه القلوب لما يلي هذا الأسلوب الغريب .

(٢) وألحقت بهذه الأحرف الثلاثة جملاً ثلاث :

أما أولاهن فإعلان للسامع أن ما سيتلى عليه الآن هو خير كتاب أخرج للناس ، وأنه ليس في الوجود ما يصلح أن يسمى كتاباً بالقياس إليه - (ذلك الكتاب) .

وأما الأخريان فيدعيان هذا الحكم بالحجة والبرهان . أليس تفاضل الكتب إنما هو بمقياس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل . أو ليس كمال هذا الحق أن يكون نيراً لا يثير شبهة . أو ليس أكمل الكمال بعد هذا وذاك أن يكون ذلك الحق مما تمس إليه حاجة الناس في إنارة السبيل وإقامة الدليل إذا ما اشتبهت عليهم السبل وتفرقت المسالك . فذلكم القرآن هو جماع هذه الفضائل الثلاث : فهو الحق المحض الذي لا باطل فيه ، بل هو الحق اللاتح الذي لا شبهة باطل فيه ثم هو بعد ذلك الهدى المبين الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور (لا ريب فيه . هدى) .

هكذا كان موقع هذه الجملة الثلاث بعد تلك الأحرف الثلاثة موقع التنويه بالمقصود بعد التنبيه إليه .

وكذلك الرب الصالح « يبدأ » خطابه الجليل الشأن باستنصات الناس واسترعاء أسماعهم « ويثنى » باتخاذ الوسائل المشوقة التي تثير فيهم بواعث الإقبال على طلب الاستفادة .

(٣) أول ما تتشوف إليه النفس بعد سماع هذا الوصف البليغ للقرآن وهدايته هو تعرف الأثر الذي سيحدثه في الناس ومقدار إجابتهم لدعوته . فمست الحاجة إلى أن ينساق الحديث لبيان هذه الحقيقة العجيبة ، وهي انقسام الناس في شأنه إلى فئات ثلاث : فئة تؤمن به ، وأخرى كافرة ، وثالثة مترددة حائرة ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

فكيف تُرى ينتقل من الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن الناس ؟ أيجعل الحديث عنهم حديثاً موثقاً اثباتاً بحتاً ؟ .. أم يسوقه مساق الاستدراك على ما قبله ؟ ..

شيء من ذلك لم يكن . ولكن انظر إليه وقد مزج الحديثين مزجاً عجيباً يدع أدق الناس فطنة لتصريف وجوه القول لا يفتن لما حدث بينهما من الانتقال . ذلك أنه في أول الأمر لم يعرض لذكر الطائفتين الأخيرتين ، بل أعرض عنهما كأن القرآن لم ينزل من أجلهما ، ثم عمد إلى الطائفة الأولى فجعل الحديث عنها من تمام الحديث عن هداية القرآن نفسه قائلاً إنه (هدى) للمتقين الذين يؤمنون .. . فكانت هذه « اللام الجارة » هي المعبرة السرية التي انزلق عليها الكلام وانصب انصباباً واحداً إلى نهاية الحديث عن المؤمنين .

(٤) ولقد كان قصر الانتفاع بهداية القرآن على هذه الطائفة وحدها بعد وصف القرآن بأنه الحق الواضح الذي لا ريب فيه - حريماً في بادىء الرأي أن يعد من المفارقات التي تثير في نفس السامع أشد العجب ، إذ كيف تكون الحقائق القرآنية بهذه المرتبة من الوضوح ثم لا تنفذ إلى قلب كل من يسمعا ؟ !

ومن جهة أخرى فقد كان موقف هذا النبي الرحيم في جِدَّةِ البالغ في دعوة أمته ، وحرصه الشديد على هدايتهم ، مصوراً له في عين من يراه بصورة الطامع في إيمان الناس أجمعين ، الظان أن هذه الأمانة ستصبح في متناول يده متى أخذ في أسبابها العادية ، كأنه يرى أن ليس بينهم وبين هذه الهداية إلا أن يصل صوت القرآن إلى آذانهم فإذا هم مسلمون . ذلك مع أن القرآن يكاد يحدد الآن مهمته ويقول إن الذي سينتفع بهداه إنما هو المتقون . فكان هذا التحديد مظنة لأن يبتهل الرسول إلى ربه قائلاً : سبحانه اللهم ، ولم لا يهتدي به الناس أجمعون !

وجب إذاً أن تقرر الحقيقة بصورة حاسمة لكل طماعية وتردد ، مريحة للنفس من طلب ما لا سبيل إليه ، وأن تبين مع ذلك الموانع الطبيعية من عزم هداية القرآن . بأسلوب ينزه القرآن نفسه عن شائبة القصور ، ويردّ النقص إلى قابلية القابل لا إلى فاعلية الفاعل . وهل يَغُصُّ من مهارة الطبيب أن يُعرض المريض عن تناول الدواء منه فيموت بجَهْلِهِ ؟ وهل يضير الشمس ألا ينتفع بنورها العُصَى أو المتعامون ؟ - (إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذِرهم لا يؤمنون ..)

هكذا انتقل الحديث عن المؤمنين الذين سبقت لهم الحسنَى ، إلى الكافرين الذين حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب ، لا على وجه اقتران الحديثين في القصد من أول الأمر ، إذاً لعُطِفَ أحدهما على الآخر ، بل على وجه يبنى فيه بعض الكلام على بعض ، إجابة لهذا السؤال الذي نطقت به الحال ، وإزالة لذلك التعجب الذي أثاره سابق المقال . وهذا هو ما يسميه علماء البلاغة بالاستئناف البياني .

(٥) وجرى الحديث عن هؤلاء إلى نهايته ، فانضم الشكل إلى شكله ، وعطفت الطائفة الثالثة على أختها ؛ لأنهم في التجاني عن الهدى مشتركون ، تشابه قلوبهم وإن اختلفت ألسنتهم . - (ومن الناس من يقول آمناً

بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ..)

(٦) وارجع الآن قليلاً إلى نظام الأحاديث عن الطوائف الثلاثة ، لترى كيف تقابلت أوضاعها أتم التقابل ؛ فقد اشتمل الحديث في كل طائفة على ثلاثة عناصر مرتبة على هذا النمط : وصف الحقيقة الواقعة ببيان السبب فيها . فالإخبار عن نتيجتها المنتظرة .

« حقيقة » الطائفة الأولى أنهم قوم حصلوا فضيلة التقوى بركنيتها العلمي والعمل . « وسبب ذلك » استمسكهم بالهدى وإمدادهم بالتوفيق من ربهم . « ومآل أمرهم » الفوز والفلاح .

« حقيقة » الطائفة الثانية أنهم مجردون من أساس التقوى وهو الإيمان ، وأنهم مصرون على ذلك إصراراً لا ينفع معه إنذار . « والسبب » عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم ، فلهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . « وعاقبة أمرهم » العذاب العظيم .

« حقيقة » الطائفة الثالثة صفة مركبة من ظاهر خير وباطن سوء . فهم يقولون بألسنتهم أنهم مؤمنون . وليس في قلوبهم من الإيمان شيء . ولكل من الوصفين « سبب » « وجزاء » أما دعواهم الإيمان فبسببها قصد المخادعة ، وجزاء الخداع عائد إليهم . وأما إصرارهم الكفر فبسببه مرض قلوبهم . وجزاؤه زيادة المرض والعذاب الأليم .

وكما بين في الطائفة الثانية أنها بلغت من الإصرار والغباوة مبلغاً لا يجدي معه الإنذار ، بين في الطائفة الثالثة أنها بلغت من الغرور والجهالة المركبة مبلغاً لا ينفع فيه نصيح الناصحين . فهم المفسدون ويزعمون أنهم المصلحون ، وهم السفهاء ويزعمون أنهم الراشدون . ومن لك بشفاء سقيم يعتقد أنه سليم ؟

ثم كما ختم الكلام في شأن الطائفة الأولى بأن سجل لهم وصف الهدى

والفلاح ، ختم الكلام في شأن الطائفتين الآخرين بأن سجل عليهما^(١) وصف الضلالة والخسران .

(٧) على أن هذه الأوصاف التحقيقية للطائفتين لم تكن وحدها لنشفي النفس من العجب في أمرهم ، فالعهد بالناس أنهم إنما يختلفون في الأمور الغامضة لا في الحقائق البينة ، باختلاف هؤلاء في شأن القرآن على وضوحه يعد شاذاً عن العادات الجارية ، محتاجاً إلى وصف تمثيلي يقربه من المشاهد المحس ، حتى يطمئن القلب إلى إمكانه .

لذلك ضرب الله لكلنا^(٢) الطائفتين مثلاً يناسبها .

(١) مضى جمهور المفسرين على أن قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) مشار به إلى أقرب الطائفتين في الذكر ، وهم المنافقون ، ولكن المروي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم أنه راجع إلى الكفار مطلقاً . وهذا هو الذي عولنا عليه لأنه أقمد في المعنى وفي النظم . أما في المعنى فلا واسطة بين الهدى والضلالة (فإذا بدد الحق إلا الضلال) . وإذا كانوا كلهم عن الهدى فأكبرين ، وفي الضلالة مشتركين ، فتخصيص الإشارة بالبعض مع إمكان رجوعها إلى الجميع صريحاً تخصيص بغير موجب . وأما في النظم فلأن تناولها للطائفتين يتم به حسن المقابلة بين الإشارتين في قوله (أولئك على هدى) وقوله (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) . ثم به يتم جبال الصنعة في تفريق الأقسام ثم جمعها ، ثم تفريقها ثم جمعها . فقد رأيت يفرق الطائفتين في أوصافها الخاصة ثم يجمعها في هذا الوصف المشترك . وستره يعود إلى تفريقها في ضرب الأشكال ثم يجمعها مرة أخرى مع سائر العالم في النداء الآتي : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) .

(٢) لعلك ترى هنا شيئاً من المخالفة لكلام المفسرين ، إذ جملوا المثليين كليهما راجعين إلى المنافقين خاصة ، وجعلناها موزعين على الطائفتين ، نشرأ على ترتيب القف . ولكنك إذا رجعت بنفسك إلى أجزاء المثليين ستري معنا أن المثل الأول ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التي ذكرها الله للكافرين وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثاني وحده . فهؤلاء القوم الذين (ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عي فهم لا يرجعون) أليسوا هم أولئك القوم الذين (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) . وهذه الظلمات الثابتة المستقرة التي ليس فيها بصيص من نور وليس فيها قلب ولا تذبذب هل ترى فيها تصويراً للألوان النفاق ووجوهه المختلفة باختلاف الأحوال ؟ إنك لا تجد هذه الصورة إلا في المثل الثاني حيث يتعاقب فيه الظلام والنور والوقوف والمسير . وكذلك ترى في المثل الثاني قوماً لهم أسباع وأبصار =

فضرب مثلاً للمصيرين المختوم على قلوبهم يقوم كانوا يسرون في ظلام الليل فقام فيهم رجل استوقد لهم ناراً يبتدون بضوئها ، فلما أضاءت ما حوله لم يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر ، بل لأمر ما سلبوا نور أبصارهم وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجئة . فذلك مثل النور الذي طلع به محمد^(١) صلى الله عليه وسلم في تلك الأمة الأمية على

= لم يذهب الله بها ولوشاء لذهب . وهذا مناسب لقوله في المنافقين (في قلوبهم مرض) فوصفهم بالمرض ولم يصفهم بالتم الكلي على القلوب والحواس .

نعم يمكن تقرير كلام المفسرين على وجه صحيح إذا فسرنا إليه ضمنية . ذلك بأن نقول إن المثل الأول يصور حال المنافقين في بواطنهم وهو الأمر الذي يشاركون فيه سائر الكفار . والمثل الثاني يصور حالهم في ظواهرهم ، وهو الأمر الذي يتقلب عندهم بتقلب النواحي لأن تقلبهم إنما هو في الظاهر لا الباطن . غير أن هذه الدعوى أيضاً على نظر ، إذ ما يدرينا لعل نوع الكفر الذي يطله المنافق نوع خاص يتقلب فيه قلبه بالشك والتردد ، وأن هذا الاضطراب الذي نشاهده على حركاته الظاهرة في أقواله وأعماله إنما هو صورة الاضطراب النفسي الذي يحس به هو في دخليته بخلاف النوع الأول وهو كفر المجاهرين فهو طبيعة واحدة مصممة ، حسبما تشهد به وسدة آثاره .

(١) وهذا أيضاً غير ما ذكره المفسرون ، فقد جعلوا مستوقد النار مثلاً للمنافق الذي تكلف التعلق بكلمة الإسلام خداعاً ، فلم يستفح بها إلا يسيراً في دنياه ، ثم قضى أجله وأفضى إلى عمله فإذا هو في الظلمات والخسران المبين . هكذا اعتبروا الضمائر المجموعة في قوله (ذهب الله بنورهم - الخ) عائدة إلى الذي استوقده بمراعاة معناه ، بعد أن عادت إليه الضمائر المفردة بمراعاة لفظه .

ونحن لا نزع بطلان هذا التأويل ، ولا فنكر إسافة اللفظ له . ولكن الوجه الذي عرضناه هنا في شرح المثل يجمع إلى صحته العقلية والقوية أنه مستنبط من النظم القرآني نفسه . ونحسب مع ذلك أقرب لأسلوب القرآن وأليق بجزائه . فإن لم يكن فليكن أحد الوجوه التي يحتملها القرآن . أما كيف استنبطنا هذا المعنى من النظم فإليك بيانه : -

لقد نظرنا إلى المثليين فرأينا الأسلوب فيها يتجه اتجاهاً متوازياً ، إذ وجدنا في صدر كل منها حديثاً عن شيء مفرد ، وفي عجز كل منها حديثاً عن جماعة . ثم نظرنا إلى المثل الثاني فرأينا الضمير المجموع فيه ليس راجعاً إلى مرجع الضمير المفرد ، بل هو راجع باتفاق المفسرين إلى أمر مفهوم من ضموي الكلام هو القوم الذين نزل عليهم الصيب (ومعلوم أن هذه التشبيهات المركبة التي ينظر فيها إلى مقابلة المجموع بالمجموع لا يعني فيها بالمقابلة اللفظية الأحادية لأين ما قبل الكاف =

فترة من الرسل ، فتفتحت له البصائر المستنيرة هنا وهناك ، لكنه لم يوافق

= وما يليها على الترتيب : بل ربما يكون الاختلاف بينها كما هنا أمراً مطلوباً للبناء في وجيز الكلام يقصدون به التنبيه من أول الأمر على ما سيحدثون في التشبيه من طي وتقديم وتأخير ، والتنبيه على أن المشبه به ليس هو مدخول الكاف وحده ، وإنما هو قصة متعددة الفصول ، هذا المدخول أحد فصولها . ذلك يبيّن السامع محتفظاً بانتباهه وتشوقه إلى تمام الكلام الذي به يظهر له التطابق بين طرفي التشبيه ، وبه يمكنه رد كل شيء إلى شبهه - هذا الضرب في أسلوب القرآن كثير ، منه قوله تعالى « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق - ١٧١ : ٢ » وقوله « إنما مثل الحياة الدنيا كماء - ٢٤ : ١٠ » وقوله « أو كصيب من السماء - ١٩ : ٢٤ » .

حينئذ عدنا إلى المثل الأول فقلنا هل عسى أن يكون هو أيضاً سائراً على هذا النهج حينما يرشد إليه تعادل الأسلوبين ؟ .. فيكون الضمير المجهول فيه ليس عائداً إلى « الذي استوقد ناراً » بل إلى القوم الذين استوقدوا النار من أجلهم أليس السامع متى انتهى إلى كلمة (ماحول) يزداد شعوراً بأن هناك قوماً مشبهاً بهم ؟ إذ سرعان ما ينتقل الذهن من المكان إلى السكان .. هذه الخطوة الأولى لم تلبث أن لحقتها الخطوات التالية : وهي أن النور الذي ذهب الله به إذا كان هو نور أولئك القوم ، ولم يكن هو ضوء النار التي استوقدها المستوقد فذلك النار إذا لم تطفأ ولم يذهب ضوءها فما يكون مضرب المثل لهذا الضياء الذي بقي هو وذهب غيره ؟ .. ألا يكون هو ضوء الهداية الحقيقية التي أضيء الله بها أن ينهها ولو كره الكافرون . ثم من يكون مضرب المثل بمستوقد النار ؟ .. ألا يكون هو المهادي الأعظم صلوات الله عليه .. فقد استوقد شعلة الهداية الإسلامية ، أي حاليق إيقادها أمام زواجر من الفتن وأعاصير من المقاومات العتيقة ، فلما أوقدها وأضاءت ما حوله رغبت بها أنوف أعداء الحق ، الذين أكل الجهل والحسد قلوبهم ، فانطلمست بصائرهم ، وكانوا كلما ازدادت هي تألفاً وإشراقاً ، ازدادوا هم ظلمة وانتكاساً .

عند هذا الحد تمت أركان التشبيه ، واستقام هذا المعنى الجديد على أنه احتمال يمكن فهم الآية عليه بحسب اللغة والعقل وبحسب معهود القرآن أيضاً في غزبه النور والضياء مثلاً للهدى والإيمان والظلمة والعمى مثلاً للجهل والكفران بيد أن اتفاق التفسير التي بأيدينا على جعل مستوقد النار مثلاً للنافقين جعلنا تنهيب تأدياً أن نضربه مثلاً للرسول الأمين ، من غير شاهد يؤيد ذلك من الكتاب أو السنة .. وما برحت هذه المخالفة التي تحيك في الصدر وتبعد اطمئنان القلب إلى هذا المعنى حتى ظفرنا بشاهده الصريح الصحيح في حديث النبي عن نفسه ، حيث يقول صلى الله عليه وسلم : « إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار تقع فيها فجعل ينزعهن ويقلبهن فيقتحمهن فيها . فأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها . رواه الشيخان » . نعم التشثيل به في الحديث من وجه غير الوجه الذي في الآية ولكن هذا لا يضير ، إذ المثل الواحد يضرب لمعان متعددة باعتبارات مختلفة والذي يعيننا إنما هو وقوع =

أهواء المستكبرين الذين ألفوا العيش في ظلام الجاهلية ، فلم يرقعوا له رأساً بل نكسوا على رؤوسهم ولم يفتحوا له عينا بل خروا عليه صمّاً وعمياناً (قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء . والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرّ وهو عليهم عسى) (١)

وضرب مثلاً للمترددين المخادعين بقوم جادتهم السماء بغيث منهم في ليلة ذات رعود وبروق . فأما الغيث فلم يلقوا له بالاً ، ولم ينالوا منه نبلاً . فلا شربوا منه قطرة ، ولا استنبتوا به ثمرة ، ولا سقوا به زرعاً ولا ضرعاً . وأما تلك التقلبات الجوية من الظلمات والرعد والبرق فكانت هي مثار اهتمامهم ، ومناط تفكيرهم ، ولذلك جعلوا يترصدونها : ويدبرون أمورهم على وفقها ، لاسبين لكل حال لبسوها : سيراً تارة ، ووقوفاً تارة ، واختفاء تارة أخرى .

ذلك مثل القرآن الذي أنزله الله غيثاً تحيا به القلوب ، وتنبت به ثمرات الأخلاق الزكية والأعمال الصالحة ، ثم ابتلى فيه المؤمنين بالجهاد والصبر وجعل لهم الأيام دُولاً بين السلم والحرب ، وبين القلب والنصر . فما كان حظ بعض الناس منه إلا أن لبسوا شعاره على جلودهم دون أن يشربوا حبه في قلوبهم أو يتذوقوا ما فيه من غذاء الأرواح والعقول ، بل أهمتهم

= التشثيل به للنبي الكريم ، وهو صريح في صدر الحديث كما نرى . فبذلك ازدادت النفس ركناً إلى صحتها .

وبعد فما بنا - علم الله - حب الخلاف ولا شهوة الاغراب ، ولكنها أمانة العلم والنصيحة لكتاب الله تعالى حملتنا على أن نقول فيه أحسن ما نعلم ؟ ثم شجعنا على أن نسجل بالقلم هذا الذي قلناه بالسم ، لنعرضه في الطرس على أنظار القارئ ، كما عرضناه في الدرس على أسباع الطالبين ، لعل هؤلاء واجدون فيه من مواضع النقد والتحجيص ما لم يجدوه أولئك . وهذا الباب من أبواب البحث والاستنباط الذي لا يسر أصلاً من أصول الدين ولا يحل حراماً أو يحرم حلالاً لن يزال مفتوحاً لكل مسلم أعطاه الله فيها في كتابه ، على شريطة القصد والأناة في سير العقل ، ومع الاستضاءة في هذا السير بمصباحين من اللغة والشرع ، على الحد الذي وصفنا ، والمنهج الذي رسمنا . وبالله التوفيق .

(١) الآية ٤٤ من سورة النساء « ٤١ »

أنفسهم وشغلتهم حظوظهم العاجلة فحصرُوا كل تفكيرهم فيما قد يحيط به من مغامٍ يحشون إليها ، أو مغارم يتقونها ، أو مآزق تقفهم منه موقف الروية والانتظار وهكذا ساروا في الدين به سيراً متعرجاً متقلباً مبنياً على قاعدة الربح والخسر والسلامة الدنيوية :

فكانوا إذا رأوا عَرَضاً قريباً وسفراً قاصداً وبرقت لهم (بروق) الأمل في الغنيمة ساروا مع المؤمنين جنباً إلى جنب ، وإذا دارت رحا الحرب وانقضت (صواعقها) منذرة بالموت والمزيمة أخذوا حذرهم وفروا من وجه العدو قائلين (إن بيوتنا عورة) أو رجعوا من بعض الطريق قائلين (لو نعلم قتالاً لاتبعناكم) . حتى إذا كانت الثالثة فلم يلمسوا من الآمال بارقة ولم يتوقعوا من الآلام صاعقة بل اشتبهت عليهم الأمور وتلبد الجو بالغيوم فهناك يقفون متربصين لا يتقدمون ولا يتأخرون ولكن يلزمون شقة الحيات ريثما تنقش سحابة الشك (فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين)^(١) (وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن - كأن لم تكن بينكم وبينه مودة - يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً)^(٢) .

ذلك أبداً دأب المنافقين في كل أمرهم : إن توقعوا ربحاً عاجلاً التمسوه في أي صف وجدوه ، وإن توقعوا أذى كذلك تنكروا للفئة التي ينالهم في سبيلها شيء من المكروه . وإذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيداً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، أما الذي يؤمن بالله واليوم الآخر فإن له قبة واحدة بولى وجهه شطرها ، هي قبة الحق لا يخشى فيها لومة لائم .

(١) الآية ١٤١ من سورة النساء " ٤ "

(٢) الآيتان ٧٢ و ٧٣ من البقرة نفسها

وليس يبالي حين يقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعه

...

هنا تمت المقدمة بعد أن وصفت القرآن بما هو أهله ، ووصفت متبعيه ومخالفيه كلاً بما يستحقه . ولا مرة أن وصف هذه الطوائف جميعها راجع في المسأل إلى الثناء على القرآن ؛ فإن الشيء الذي يكون متبعوه هم أهل الهدى والقلاح ، ومخالفوه هم أهل الضلالة والخسر لا يكون إلا حقاً واضحاً لا ريب فيه .

فما هو ذلك الحق الذي لا يتبعه إلا مهتد مفلح ، ولا يعرض عنه إلا ضال خاسر ؟ بل ما هو ذلك الحق الذي ضربت له الأمثال بالضياء الباهر والغيث الكثير ؟

لا شك أن هذا كله تشويق أي تشويق لسماع الحقائق التي يدعو القرآن الناس إليها . فانظر على أي نحو ساق بيانها .

لقد كان ظاهر السياق يقضي بأن يقال : أن هذه الحقائق هي أن يعبدوا ربهم وحده ويؤمنوا بكتابه ونبيه (الخ) جرياً على أسلوب الغيبة الذي جرى عليه في وصف الكتاب ، وفي وصف الناس ، ولكنه حوّل مجرى الحديث من الأخبار والغيبة إلى النداء والمخاطبة قائلاً : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم .. »

أتعرف شيئاً من سر هذا التحويل ؟

إن ذلك الوصف الدقيق الذي وصف القرآن به الطوائف الثلاث « متقين وكافرين ومخادعين » قد نقلهم عند السامع من حال إلى حال فبعد أن كانوا غُيْباً في مبدأ الحديث عنهم أصبحوا الآن بعد ذلك الوصف الشافي حاضرين في خيال السامع كأنهم رأي عين ، وفي مكان ينادون منه . فاستحقوا أن يوجه الحديث إليهم كما يوجه إلى الحاضرين في المحس

والمشاهدة . هذا من الناحية العامة . وأما من الناحية الأخرى فإن هذه الأمثال البليغة التي ضربت في شأن المعرضين خاصة قد أبرزتهم أمام السامع في صورة محزنة تبعث في نفسه أقوى البواعث لنصحهم وتحذيرهم . حتى أنه لا يشفى صدره إلا أن يناديهم أو يسمع من يناديهم : أن افتحوا أعينكم أيها القوم وتعالوا إلى طريق النجاة . وهكذا استعدت النفس آمم استعداد لسماع هذا النداء . (يأيها الناس اعبدوا ربكم) الآيات إلى آخر المقصد الأول »

• • •

المقصد الأول من مقاصد السورة : في خمس آيات (٢١ - ٢٥)

في هذه الآيات الخمس تسمع نداءً قوياً موجهاً إلى العالم كله بثلاثة مطالب

- (١) أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئاً .
- (٢) أن آمنوا بكتابه الذي نزل على عبده .
- (٣) أن اتقوا أليم عذابه ، وابتغوا جزيل ثوابه .

هذه المطالب الثلاثة هي الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية تراها قد بسطت مرتبة على ترتيبها الطبيعي . من المبدأ ، إلى الواسطة إلى الغاية . وترى بكل واحد من الركبتين الأولين قد أقيم على أساس من البرهان العقلي القاطع لكل شبهة . أما الركن الثالث فقد جيء به مجرداً عن هذا النوع من البرهان ، ولكنه نفخ فيه من روح الإلهاب وتحريك الوجدان بالتحذير والتبشير ما يسد في موضعه مسد البرهان .

على أنك إذا أنعمت النظر في هذا الركن وجدته في غنى عن برهان جديد بعد تقرير سابقه ، إذ هو منهما بمنزلة النتيجة المنطقية من مقدماتها أرايت لو أن ملكاً عظيم السلطان نافذ الحكم وجه إليك سفيراً يحمل

رسالة منه ، وأيقنت أن الذي بيد السفير هو كتاب الملك المختوم بخاتمه ، أكان يعوزك برهان جديد لتحقيق ما يحويه الكتاب من عجيب الأنباء والنذر ، بعدما وقر في نفسك من العلم بأنه كلام من إذا قال صدق وإذا وعد أنجز ؟

فكذلك ترى الحديث هنا عن السمعيات جيء به مفرعاً على ما تقرر في أمر النبوات ، وبضرب من التخلص هو غاية في الحسن والبراعة . (فإن لم تفعلوا .. فأتقوا النار .)

• • •

عود على بدء : في أربع عشرة آية (٢٦ - ٣٩)

(١) بدأ الكلام في السورة - كما علمت - بوصف القرآن بما فيه من الهدى لإجمالاً : فكان من الحق أن يعود إلى وصف طريقة القرآن في هذه الهداية ، ليقول إنها هداية كاملة بالبيان الوافي الشامل لكل شيء ، فانظر كيف مهّد لهذا الانتقال تمهيداً يتصل من أول السورة إلى هذا الموضوع :

أما المقدمة فقد وصف فيها الفرق الثلاث وصفاً شافياً ضرب للناس أمثالهم ، وحقق أن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .

وأما المقصود فقد بين فيه أن الله وحده المثل الأعلى الذي لا يشاركه فيه شيء من الأنداد ، ثم وضع فيه الفيصل بين النبي والمتنبئ بتلك المعجزة العالمية التي لا يستطيع أحد من دون الله أن يأتي بمثلها ، ثم ذكر مثل النار التي أعدت للكافرين ، ومثل الجنة التي وعد المتقون .

فراه قد تناول في هذه الأمثال ضرباً شتى من الحقائق علوية وسفلية ، مادية ومعنوية ... حتى كانت نهاية الحديث أن عرض ما في الجنة من

أنواع المتع واللذائذ الشخصية والجنسية ، تلك المعاني التي قد يستحي المرء من ذكرها ، وقد يخالها الجاهل نافية عن سنن الخطاب الإلهي الأعظم ، غافلاً عن أنه الحق الذي لا يستحي من الحق ، وأنه الرحيم الذي يتنزل برحمته إلى مستوى العقول البشرية فيبين لهم كل ما يحتاجون إلى بيانه مما يحبون أو يكرهون ، ومما يرجون أو يحذرون .

وهكذا انساق الحديث من ذكر هذه النماذج المتفاوتة إلى استنباط القاعدة الكلية منها ، ببيان أن هذه هي طريقة القرآن في هدايته ، فهو يضرب الأمثال كلها ويبين الحقائق حلولها ومرها ، واضعاً كل شيء في موضعه ، مسمى له باسمه ، لا يبالي أن يتناول في بيانه جلائل الأمور أو محقراتها (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ، بعوضة فما فوقها) حقاً إن شأن هذا الكتاب في تفصيل الحق والباطل والضر والنافع شأن كتاب الأعمال في تفصيل الحسنات والسيئات . كلاهما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وكما أن وصف القرآن بالهدى إجمالاً قد جر هناك إلى ذكر انقسام الناس في قبول هدايته ، وإلى النعي على من أعرض عنه ، كذلك وصف طريقته في الهداية قد جرها هنا إلى مثل هذا التقسيم : (يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً) وإلى النعي على الضالين بذكر مساوئهم وتفصيل نقائصهم (وما يضل به إلا الفاسقين ..)

وكما أن بيان أوصافهم هناك قد جلاهم أمام السامع في صورة تحرك داعيته لسماع ندائهم بالنصح والتعليم ، كذلك بيان أوصافهم هنا قد استفز النفوس إلى سماع مخاطبتهم بالتعجيب والإنكار . (كيف تكفرون بالله - الآيات)

(٢) وكذلك عاد الكلام إلى المقصد الأول بأركانه الثلاثة . ولكن

في ثوب جديد :

(أما في الركن الأول) فقد سمعته هناك يأمر بعبادة الله ، وتسمعه هنا ينهي عن الكفر بالله .

وهناك ذكرهم بنعمة إيجادهم مجملة ، وهنا يذكرهم بها مفصلة متممة وهناك عرفهم بنعمة تسخير الأرض والسماء لهم ، وهنا يعرفهم بذلك في شيء من التفصيل .

(وأما في الركن الثاني) فقد ذكر هناك نبوة هذا النبي الخاتم ، وهنا يذكر نبوة ذلك النبي الأول آدم ، لنعلم أن نبينا لم يكن بدءاً من الرسل ، وأن أمر التشريع والنبوات أمر قديم يتصل بنشأة الإنسان . وقد مهد لهذا البيان بذكر تاريخ تلك النشأة العجيبة وما جرى في شأنها من الحديث مع الملائكة ، ذلك الحديث الدال على مزيد العناية الإلهية بهذا النوع البشري ، إذ اختاره الله لخلافة الأرض وآثره على سائر الخلق بفضيلة العلم . ليكون الامتتان بذلك جاريين مع الامتتان بالنعم المذكورة في الركن الأول على أحسن نسق - ثم اتصل من هذا التفصيل إلى شرح ما نشأ عنه من حسد إبليس وعداوته القديمة للإنسان الأول ومخادعته إياه بوساوسه . وما انتهى إليه أمر الخادع والمخدوع من ابتلائهما وابتلاء ذريتهما بالتكاليف . وهو - كما ترى - حديث يطلب بعضه بعضاً ، وبأخذ بعضه بأعناق بعض .

(وأما في الركن الثالث) فقد رأيت هناك يصف الجنة والنار بما لهما من وصف رائع أو مروع . وتراه هنا يكتفي عن وصفهما بذكر اسمهما وتعيين أهلها نازلاً وضع الأجزية مع وضع التكاليف في سلك واحد . ومتخلصاً أحسن تخلص من أحدهما إلى الآخر ، بتقرير أن اتباع التكاليف أو عدم اتباعها هو مناط السعادة أو الشقاوة في العقبى .

ولقد ختم الكلام هنا - كما ختمه في المقدمة - بشأن المخالفين تمهيداً للانتقال مرة أخرى إلى نداء فريق منهم ودعوتهم إلى الإسلام وهو المقصد الثاني

• • •

المقصد الثاني من مقاصد السورة : في ثلاث وعشرين ومائة آية
(٤٠ - ١٦٢) :

بحسبك أن تعلم أن هذه السورة هي غرة السور المدنية ، وأن المدينة كان يسكنها أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، وأكثرهم جدالاً في دينهم بما أوتوه من العلم قبلهم . بحسبك أن تعلم هذا وذلك لتعرف سر تلك العناية الموفورة بهذا الجانب من الدعوة ، نعني دعوة بني إسرائيل خاصة بعد دعوة الناس عامة ولتعلم حكمة ذلك التبسط في الحديث معهم تارة ، والحديث عنهم تارة أخرى ، بألوان تختلف هجوماً ، ودفاعاً ، واستمالة ، واستطالة ، إلى ما بعد نصف السورة .

وسترى حين تنتقل في هذه الأحاديث مرحلة مرحلة ما يملك قلبك من جمال نظامها ودقة تقسيمها .

(بدأ) الكلام معهم بآية فذة (٤٠) هي على قلة كلماتها جامعة لأغراض الحديث كله : ففيها يناديهم بأحب أسمائهم وأشرف أنسابهم ويذكرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالاً ، ويبني على ذلك دعوتهم إلى الوفاء بعهدهم ، ويرغبهم ويرهبهم .

(ثم) رجع إلى هذه الأغراض يفصلها على تدرج وبقدر معلوم فشرح العهد الذي طلب منهم الوفاء به ، في ست آيات (٤١ - ٤٦) - وبين مقدار النعمة التي امتن بها عليهم في آية (٤٧) ومقدار المخافة التي خوفهم منها في آية أخرى (٤٨) .

(ثم) قسم الحديث إلى أربعة أقسام :

(القسم الأول) يذكر فيه سالفة اليهود منذ بعث فيهم موسى عليه السلام .

(القسم الثاني) يذكر فيه أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية .

(القسم الثالث) يذكر فيه أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام
(القسم الرابع) يذكر فيه حاضر المسلمين في وقت البعثة .

ذكر سالفة اليهود (٤٩ - ٧٤)

استهل الخطاب في هذا القسم بشماني آيات بعرف فيها بني إسرائيل بتفاصيل المن التي امتن بها عليهم مرة بعد مرة . وهي تلك النعم التاريخية القديمة التي اتصل أثرها وسرى نفعها من الأصول إلى الفروع ، فجعل يذكرهم بأيام الله فيهم يوم أنجاهم من آل فرعون ، ويوم أنجاهم من اليم وأغرق أعداءهم فيه ، ويوم واعداهم بإزالة الكتاب عليهم . ويوم حقق وعده بإزالته ، ويوم قبل توبتهم عن الردة والشرك بالله . ويوم قبل توبتهم عن التمرد على نبيهم واقتراح العظام عليه . وإمتان لنعم جليلة « سابقة للذنوب ولاحقة » تلين ذكراها القلوب وتحرك انفسهم لشكر المنعم وامثال أمره .

وقبل أن ينتقل من تذكيرهم بتلك النعم الجليلة المطمعة للشاكرين في المزيد . إلى تذكيرهم بخرايمهم وما حاق بهم من ضروب النكال الموجبة للامثال والاعتبار جعل بين الحديثين برزخاً مزج فيه ذكر بعض النعم بذكر ما قابلوها به . بعد أن أعد النفس للسير على هذا البرزخ بالتفاته يسيرة ، فيها رمز الإغراض وعدم الرضا . فبين أنه تعالى متعمم فوق هذا كله متاعاً حسناً إذ ظلل عليهم الغمام . ورزقهم من الطعام والشراب رزقاً هنيئاً من حيث لا يحتسبون . ومن حيث لا كد ولا نصب . ففعلوا أنفسهم وبطروا تلك النعمة وحرفوا كلمة الشكر بتبديلها هزواً ولعباً ، واقترحوا بدل ذلك الرزق الناعم عيشة الكدح والعناء ، فألزمهم الله ما ألزموا وضرب عليه الذلة والمسكنة .

وهنا محض الحديث لذكر المخالفات والعقوبات ، فذكر أنهم باءوا بغضب من الله لأنهم كفروا بآيات الله وقتلوا النبيين (غير أنه استثنى المؤمنين منهم من هذا الغضب) وتمردوا على أوامر التوراة جملة حتى

أرغموا عليها ، ثم تولوا عنها بعد ذلك حتى صاروا جديرين بأن ينزل بهم ما نزل بأهل السبت لولا فضل الله عليهم ؛ وأنهم تباطؤوا في تنفيذ أمر نبيهم وبلغ بهم الجهل بمقام نبوته أن ظنوا في بعض تبليغه عن ربه أنه هازل فيه غير جاد ..

حلقة الاتصال بين القسمين الأول والثاني (٧٤)

وأراد القرآن أن يصل حاضرهم بماضيهم فانظر كيف وضع بينهما حلقة الاتصال في هذه الآية التي ختم بها القسم الأول . (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) فقلوه (من بعد ذلك) كلمة حددت مبدأ تاريخ القسوة ولم تحدد نهايته . كأنها بذلك وضعت عليه طابع الاستمرار وتركتة يتخطى العصور والأجيال في خيال السامع حتى يظن أن الحديث قد أشرف به على العصر الحاضر ثم لم يلبث هذا الظن أن ازداد قوة . بصيغة الجملة الاسمية في قوله (فهي كالحجارة) دون أن يقول : فكانت كالحجارة .

ثم انظر كيف كان انتهاؤه إلى وصف قلوبهم بهذا الوصف توطئة لتغيير الأسلوب فيهم . فإن من يبلغ قلبه هذا الحد من القسوة التي لا لين فيها يصبح استمرار الخطاب معه نايياً عن الحكمة ، ويصير جديراً بصرف الخطاب عنه إلى غيره ممن له قلب سليم . وهكذا سينتقل الكلام من الحديث معهم في شأن سلفهم إلى الحديث معنا في شأنهم أنفسهم .

٢- ذكر اليهود المعاصرين للبعثة (٧٥ - ١٢١) .

افتتح الكلام في هذا القسم بجملة طريفة ليست على سنن ما قبلها وما بعدها من السرد الإخباري ، جملة استفهامية يكتنفها حرفان عجيبان « أحدهما » يعيد إلى الذاكرة كل ما مضى من وقائع القسم الأول « والآخر » يفتح الباب لكل ما يأتي من حوادث هذا القسم . وتقع هي

بين التاريخين القديم والحديث موقع العبرة المستنبطة والنتيجة المقررة ، بين أسباب مضت وأسباب تأتي (أفنظّمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم)

فهذه الفاه تقول لنا : أبعد كل ما قصصناه يطمع طامع في إيمان هؤلاء القوم وهم الوارثون لذلك التاريخ الملوّث ؟ وهذه الواو تقول : « هذا . ولهم أعمال من دون ذلك هم لما عاملون .. »

ويعود السرد الإخباري إلى مجراه التفصيلي . فيقص علينا من مساوئ أوصاف الحاضرين منهم ومنكرات أفعالهم وأقوالهم زهاء عشرين سبيلاً لا تبقى مطمعاً لطامع في إيمانهم . سواء منها ما كان مختصاً بهم وما كان يشاركهم فيه غيرهم من أسلافهم أو من النصارى أو الوثنيين . ثم لا يدع زعماً من مزاعمهم إلا قفى عليه بما يليق به من الرد والتفنيد .

(وقد بدأ هذا الوصف) بتقسيمهم إلى فريقين . علماء يحرفون كلام الله ويتواصون بكتمان ما عندهم من العلم لكلا يكون حجة عليهم . وجهلاء أميين هم أسارى الأمانى والأوهام . وضحايا التضليل والتلبيس الذي يأتيه علماءهم . فمن ذا الذي يطمع في صلاح أمة جاهلها مضلل مخدوع يأخذ باسم الدين ما ليس بدين . وعالمها مضلل خادع يكتب الكتاب بيده ويقول هذا من عند الله .

(وثنى) ببيان منشأ اجترائهم على كل موبقة . ألا وهو غرورهم بزعمهم أن النار لن تمسهم إلا ألباماً معدودة . ولقد أمر النبي أن يوسع هذا الزعم دحضاً وإبطالاً ، وأن يتدرج معهم في هذه المجادلة على درجات المنطق السليم والبحث المستقيم فيبدأ بمطالبتهم البرهان على ما زعموا . ثم ينقضه ببيان مخالفته لقانون العدل الإلهي الذي لا يعرف شيئاً من الظلم ولا المحاباة لأحد ، بل الخلق أمامه سواء : كل امرئ رهين بعمله . ومن يعمل سوءاً أو حسناً يجزيه ، ثم يعارضه بقلب القضية عليهم مبيناً

لهم أنهم من أولئك الذين كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيئاتهم : ألم يؤخذ عليكم الميثاق بتقوى الله والإحسان إلى الناس فتوليتهم ؟ ألم يؤخذ عليكم الميثاق بترك الإثم والعدوان فاعتديتم ؟ ثم آمنتكم ببعض الكتاب وكفرتكم ببعض ، وحكمتكم أهواءكم في الشرائع فكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم .

(ثم أتبع ذلك سائر هتاتهم) فذكر - ١ - نصامتهم عن سماع الحق بدعوى أن قلوبهم مغلقة - ٢ - كفرهم بالكتاب الجديد لأنه أنزل على غيرهم ، بعد أن كانت أعناقهم مشرقة إليه ينتظرون ظهوره على يد نبي ينصرهم على المشركين - ٣ - دعواهم القيام بواجبهم وهو الإيمان بما أنزل عليهم وكفى . مع أنهم كافرون حتى بما أنزل عليهم . وتلك شنتهم منذ عبدوا العجل وأشربوا حبه في قلوبهم - ٤ - زعمهم أن لهم الدار الآخرة خالصة ، ثم مناقضتهم أنفسهم في ذلك بكراهم الموت وشدة حرصهم على الحياة - ٥ - عداوتهم للبريل لأنه أنزل الكتاب على غيرهم ، مع أنه إنما أنزل بعلم الله - ٦ - تكرر نبذهم للعهد - ٧ - اشتغالهم بكتب السحر وترك كتب الله ورأه ظهورهم - ٨ - ليهم ألسنتهم في خطاب الرسول بكلمة^(١) تنطوي على الاستهزاء

(١) هي قول « راعنا » وهي كلمة ظاهرها الأدب ، ولكنها في العربية لها معان أخرى حمقاء . وفي العبرانية كلمة شتم قريبة منها ؛ فإن لفظ (راع) عند اليهود معناه شتم شرير . ولفظ (راع) معناه الشر والشقاوة فإذا أضيف إلى ضمير المتكلمين صار بلسانهم « راعيناه » ومعناه في الخطاب أنت ضربنا وشقوتنا ... ولعلمهم والله أعلم كانوا يلون ألسنتهم في التلطف بها ليقربوها من الصيغة العربية شتماً لئلا يكتفوا بالرمز المفهوم فيما بينهم . فأمر الله المؤمنين أن يحاطبوا الرسول بقول (انظرونا) حتى لا يجد المناقون سبيلاً إلى التلاعب بلفظ ذي وجهين . أو أيضاً فإن (راعنا) كلمة يقولها السائل المستقصي يطلب بها إصغاء المسئول إليه حتى يفرغ هو من أسئلته . وتلك عادة اليهود عند إكثارهم من السؤال . فأمر الله المؤمنين أن يحافظوا على حسن الاستماع حتى لا يحتاجوا إلى السؤال ، وأن يقولوا (انظرونا) وهي كلمة يقولها المتعلم إذا أراد التثبت مما يقال له لا الزيادة عليه .

به والطمع في دينه وإن كان ظاهرها التعظيم له ، أو يراد منها إحراجها بكثرة الأسئلة والمقترحات كما سئل موسى من قبل (وقد سبق هذا في قالب تحذير المؤمنين من أن يقولوا تلك الكلمة) - ٩ - حقدهم وأثرهم هم وسائر المخالفين من أهل الكتاب والمشركين وكراهميتهم أن ينزل الوحي على غيرهم ، مع أن الله أن يختص بنبوته من يشاء ، وله أن ينسخ شريعة ويأتي بشريعة أخرى مثلها أو خير منها - ١٠ - رغبة كثير منهم في أن يردوا المؤمنين كفاراً . - ١١ - زعم كل من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة غيرهم . أماني يتمنونها بغير برهان - ١٢ - طعن كلنا الطائفتين في أختها بقول اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقول النصارى : ليست اليهود على شيء ، وطعن المشركين في كليتهما - ١٣ - اشتراك الطوائف الثلاث في السعي لإخلاء المساجد من ذكر الله - ١٤ - اشتراكهم في الجهل بالله ونسبتهم الولد إليه - ١٥ - اشتراكهم في التوقف عن الإيمان بالرسول حتى يكلمهم الله بغير واسطة أو ينزل عليهم آية ملجئة .

(ثم ختم هذه الخانات) بأدعائها إلى اليأس من إيمانهم ، وهو أنهم يطمعون في تحويل الرسول نفسه إلى اتباع أهوائهم ، فكيف يقطع هو في استباعتهم إلى هداية ؟ كلا ولكن حسبه أن الراسخين في العلم منهم وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته يؤمنون بهذا الهدى الذي جاء به والكافرون هم الخاسرون .

٣ - ذكر قدامى المسلمين من لدن إبراهيم (١٢٢ - ١٣٤)

شأن المصلح الحكيم في دعوته شأن الزارع ، يبدأ بالأرض فيقتلع أشواكها وينقيها من حشائشها الضارة قبل أن يلقي فيها البذور الصالحة أو يغرس فيها الأشجار النافعة ، وكذلك الداعي الحكيم يبدأ بالنفوس فيلويها عن الباطل والفساد ثم يوجهها إلى طريق الحق والهدى . فهذان

دوران يقوم في أحدهما بالتطهير والتخلية ، وفي الثاني بالتكميل والتخلية وأنت قد رأيت الكلام في دعوة بني إسرائيل قد مضى إلى هذا الحد في بيان عوج الطريق الذي يسلكونه ورأيت قد أوسع البيان في ذلك حتى أتى على نهاية الدور الأول : أليس من الحق إذاً أن يبدأ الدور الثاني فيبين الطريق السوي الذي يجب أن يسلكوه ؟

ثم رأيت كيف اختتم البيان السابق بذكر هدى الله والعلم الذي علمه لنبيه وذكر الفريق الذي يرجى إيمانهم به من أهل الكتاب ، وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته . أليس هذا الاختتام نفسه مطلعاً تشرف النفس منه على هذا الافتتاح ؟

ثم رأيت الحديث في الدور الأول منقسماً إلى قسمين : قسم يتحدث فيه عن ماضي اليهود وقسم يتحدث فيه عن حاضريهم . ألا يكون من حسن التقابل أن يقسم الحديث الثاني إلى القسمين . عن ماضي المسلمين وعن حاضريهم ؟

ذلك هو ما تراه فيما يلي :

بل سرى ما هو أتم مقابلة ومشاكلة ، فسيجري الكلام في القسم الأول هنا على سنن الخطاب مع بني إسرائيل ، والكلام في القسم الثاني على سنن التحدث عنهم ، كما جرى هنالك في القسمين سواء .

وأكبر من هذا كله أنك ترى الآيتين الكريمتين اللتين صدر بهما أول الحديث هناك قد صدر بهما أول الحديث هنا . ليدعوهم إلى اعتناق الحق بمثل ما دعاهم به إلى اجتناب الباطل ، ولينقرر في نفس السامع من أول الأمر أن الحديث سيعود كما بدأ ، ولكن في طريق يقابل ذلك الطريق ، وبمعنى جديد هو عدلٌ لذلك المعنى القديم (يا بني إسرائيل أذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأنتي فضلتكم على العالمين وانقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس ولا يقبل منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعة

ولا هم ينصرون . وإذا ابتلى إبراهيمَ ربهُ بكلماتٍ ..)

وهكذا أنشأ يدعو بني إسرائيل إلى طريق السلف الصالح ، لا بأسلوب الأمر والتحريض الذي جرب من قبل فلم ينجع فيهم ، بل بأسلوب قصصي جذاب يعرض فيه ذلك التاريخ المجيد لإبراهيم عليه السلام وأبنائه وأحفاده في العصور الذهبية التي لا يختلف أحد من أهل الكتاب ولا المشركين في تعظيمهما ومحبتها ومحبة الانتساب إليها (مكرراً على لسانهم جميعاً تلك الكلمة العذبة التي تركها إبراهيم باقية في عقبه فتوارثها أبنائه وأحفاده بوصي كل منهم بها بنيه ، كلمة « الإسلام لله رب العالمين » وتراه في أثناء عرضه لتاريخ إبراهيم عليه السلام وإمامته للناس لا ينسى أن يحكي كلماته التي دعا به ربه أن يجعل من ذريته إماماً للناس كما جعله هو .

ثم تراه حين يروي قيام إبراهيم وابنه اسماعيل ببناء البيت المعظم الذي جعله الله حراماً آمناً ومثابة للناس وقبلة لصلاتهم ، لا ينسى أن يحكي تضرعهما إلى الله أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة وأن يبعث فيهم رسولاً منهم يعلمهم ويركبهم .

ممهّداً بهذا وذاك لتقرير تلك الصلة التاريخية المثينة التي تربط هذا النبي وأمة بدينك النبيين الجليلين . لا صلة البتة النسبية فحسب ، بل صلة المبدأ ورابطة الوحدة الدينية أيضاً ، فهم من ذريتهما ، ووجودهم تحقيق لقبول دعوتيهما ، وملتهم ملتتهما ، وقبلتهم قبلتهما ومثابتهما في حجهم مثابتهما .

ومقررراً في الوقت نفسه انقطاع مثل هذه النسبة المشرفة عن اليهود الذين ينتسبون بالبنوة لإبراهيم ويعقوب وهم عن ملتتهما منحرفون ولوصيتهما مخالفون . فماذا يغني النسب عن الأدب ؟ ومن بطأ به عمله لم

يسرع به نسيه (تلك أمة " قد خلت لها ما كسبت ولکم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) .

٤ - ذكر حاضر المسلمين وقت البعثة (١٣٥ - ١٦٢)

واتصل ذكر الخلف بذكر السلف : وخرج الكلام من التلويح إلى التصريح ، فأقبل يقرر - في جلاء - صلة هذه الأمة المسلمة بتلك الأمة الصالحة في أصول ملتها وفي أهم فروعها ، ويقص علينا ما يحاوله سفهاء الأحلام من بني إسرائيل وغيرهم لحرمان المسلمين من تلك الصلة ، وذلك بدعوتهم المسلمين إلى اتباع ملتهم تارة ، وبالظن في قبلتهم تارة أخرى ويكر على كلتا المحاولتين الهدم والاستئصال .

وقد رأيت الحديث الآنف كيف امتزج فيه ذكر ملة إبراهيم بذكر قبلته فانظر كيف كان ذلك تأسيساً قوياً لما يبني عليه هنا من ذكر ملة المسلمين وذكر قبلتهم .

قال في شأن الملة : إن أهل الكتاب يدعونكم - بعد هذا البيان - أن تكونوا هوداً أو نصارى . فقولوا لهم : بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً وعرفوهم جليلة الأمر في هذه الملة الحنيفية وأنها إيمان بالله وإيمان بكل ما أنزل على النبيين لا تفرق بين أحد منهم هذه عقيدتنا بيضاء ناصعة فأبي ركنيها تنقمون منا . وفي أيها تخاصموننا ؟ أفي الله وهو ربنا وربكم ، أم في إبراهيم وبنيه وهم كانوا هوداً أو نصارى (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولکم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) .

وكان هذا الترديد وحده كافياً لإفحامهم وإغلاق الباب في وجوههم من هذه الناحية ، إذ تبين أن أصول هذه الملة أجمع من أن تقبل الجدال في شيء منها .

فانتقل عنها وشيكا إلى إبطال محاولتهم الأخرى في مسألة (الكعبة المعظمة) التي عليها يدور العمل بشعيرتين هما أعظم شعائر الإسلام وأظهرها (الصلاة والحج) ، والتي قد تقرر ما لها من الأصل الأصل

في الدين باتخاذ إبراهيم وإسماعيل إياها مثابة ومصلى . ولكن هذا لم يكن كافياً لإسكات المجادلين الذين اتخذوا من تحول المسلمين إليها وتركهم القلة التي كانوا عليها مطعناً على النبوة فتنوا به بعض ضعفاء المؤمنين ، فمست الحاجة إلى مزيد بسط في شأنها تنقرر به الحجة وتدحض به الشبهة . ولذلك تراه يوجه إليها أكبر الشطرين من عنايته :

فيأمر النبي باديء ذي بدء أن يجيب المتسائلين عن حكمة هذا التحويل جواب عزة وإباء يرد الأمر فيه إلى من لا يسأل عما يفعل ، قائلاً لهم : إن الجهات كلها سواء يوجهنا الله منها إلى ما يشاء وهو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم .

ثم أخذ يأمر النبي تارة ، والمؤمنين تارة ويأمرهما معاً تارة أخرى ، في أسلوب مؤكد مفصل أن يثبتوا على هذه القبلة حيث هم وفي كل مكان يقيمون فيه حضراً وفي كل مكان يخرجون منه سفراً .

وظفق ينثر في تضاعيف هذه الأوامر المؤكدة ما شاء من تعريف بأسرار التشريع القديم والجديد . فيقول إن تشريع تلك القبلة الوقتية ما كان إلا اختباراً لإيمان المهاجرين ليثبت من تتبع الرسول ممن يتقلب على عقبيه ، وأما تشريع هذه القبلة الباقية فإنه ينطوي على الحكم البالغة والمقاصد الجليلة ، فهي القبلة الوسطى التي تليق بكم أيها الأمة الوسطى وهي القبلة التي ترضاه بأبيها النبي والتي طالما قلبت وجهك في السماء مستشرفاً إلى الوحي بها ، وهي القبلة التي يعلم أهل الكتاب أنها الحق من ربهم وإن كانوا يكتُمون ذلك حسداً وعناداً ، وهي القبلة التي يشهد الله بأنها الحق من عنده ، وأخيراً هي القبلة التي لا يبقى لأحد من المتصفين حجة عليكم أما الظالمون فلن ينقطع جداولهم في شأنها ما بقيت عدواتهم لكم : ولكن لا تخشوهم ، بل وطنوا أنفسكم على التضحية في سبيل الله ، واصبروا ولا تحزنوا على من سيقول منكم في هذه السبيل فإن الموت فيها هو الحياة الباقية

ثم أوماً إلى أن الجدل في هذه القبة ليس صدأً عن الشعائر التي في داخل المسجد الحرام فحسب ، بل هو كذلك صد عما حوله من الشعائر (إن-الصفة والمروة من شعائر الله) .

ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين على نحو ما أكد أمر القبة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعلمون أصلهما في تاريخ إبراهيم ؛ ولكنهم يكتنمون ما أنزله الله من البينات وهم يعلمون .

• • •

أريت هذه المراحل الأربع التي سلكها القرآن في دعوة بني إسرائيل كيف رتبها مرحلة مرحلة وكيف سار في كل مرحلة منها خطوة خطوة . فارجع البصر كرة أخرى إلى هذه المرحلة الأخيرة منها ، لننظر كيف استخدم موقعها هذا لتحقيق غرضين مختلفين ، وجعلها حلقة اتصال بين مقصدين متناهيين . فهي في جملتها مناجات من الله للنبي والمؤمنين في خاصة شأنهم وفيما يعينهم من أمر دينهم ، ولكنه جعل هذه النجوى طرفين ، لو أن كل طرف منها بلون المقصد الذي يتصل به ، فالتقى المقصدان فيها على أمر قد قدر .

ألم تر كيف بدأها بأن قص على المؤمنين مقالة أعدائهم في بعض حقائق الإسلام ، وعمد إلى هذه الحقائق التي تماروا فيها فجعل يمسح غبار الشبهة عن وجهها حتى جلاها بيضاء للناظرين . فكانت هذه البداية كما ترى نهاية لتلك المعارك الطويلة التي حورب فيها الباطل في كل ميدان ثم رأيت كيف ساق الحديث فجعل يثبت أقدام المؤمنين على تلك الحقائق النظرية والعملية ، ويحرضهم على الاستمسك بها في غير ما آية .. أفلا تكون هذه النهاية بداية لمقصد جديد بعدها يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصلة ؟

بلى .. إن ذلك هو ما توحى به سياقة هذه النجوى المتواصلة : التي

مدت في خطاب المؤمنين مدأ ، وحولت مجرى الحديث معهم رويداً رويداً ، حتى صار كل من ألقى سمعه إليها ملياً ، يسمع في طيها نداء خفياً : أن قد فرغنا اليوم من الأعداء جهاداً ، وأقبلنا على الأولياء تعليمًا وإرشاداً ، وأن قد طوينا كتاب الفجار . وجئنا تفتتح كتاب الأبرار . وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوة بني إسرائيل لم تكن إلا طليعة من كتائب الحق . تنبئ أن سيتلوها جيشه الجرار . أو شعاعة من فجر الهدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار . ألا ترى الميدان قد أصبح خالياً من تلك الأشباح الإسرائيلية التي كانت تترأى لك في ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك . هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ؟ .

أو لا ترى هذه الأشعة الأولى من شمس الشريعة الإسلامية قد انبعثت يسوق بعضها بعضاً . أصول جامعة نظرية . تتبعها طائفة من فروعها الكبرى العملية .. ألم يأن لسائر القروع أن تنجى من خلقها حتى تبلغ الشمس ضحاها ..

هكذا تفتحت الآذان لسماع شرائع الإسلام مفصلة . فلو أنها أقبلت علينا الآن عدأً وسرداً ما حسبنا الحديث عنها حديثاً مقتضباً .

لكن القرآن ، وقد وضع على أدق الموازين البيانية وأرففها بحاجات النفوس ، لم يشأ أن يهجم على المقصود مكتفياً بهذا التمهيد بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك الشر البعيد . وتأخذ أهبته لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد . فانظر فيما يلي :

المدخل إلى المقصد الثالث : في خمس عشرة آية (١٦٣-١٧٧)

نيف وعشر من الآيات الكريمة . هي بمثابة الدهلز بين الباب والدار يقطعها السائر في خطوات ثلاث : (الخطوة الأولى) تقرير وحدة الخالق المعبود (الخطوة الثانية) تقرير وحدة الأمر المطاع (الخطوة الثالثة)

فهرس إجمالي للأوامر والطاعات المطلوبة .

(الخطوة الأولى) تقرير وحدة الخالق المعبود .

لقد جاءت هذه الخطوة في أشد أوقات الحاجة إليها بين سابقها ولاحقها ، فإن ما مضى من تعظيم أمر الكعبة والمقام والصفة والمروة كان من شأنه أن يلقى في روع الحديث العهد بالإسلام معنى من معاني الوثنية الأولى في تعظيم الأحجار والمواد ، ولا سيما وهذه الأماكن المقدسة كانت يومئذ مباءة للأصنام والأنصاب من حولها ومن فوقها فوجب ألا يترك هذا التعظيم دون تحديد وتقييد ، وألا نترك هذه الخلجات النفسية دون دفع وإبعاد ، حتى لا يبقى شك في أن قيام المصلين عند مقام إبراهيم وتوجيه وجوههم نحو الكعبة ، وتمسح الطائفتين بأركانها ، وطواف الحجاج والمعتمرين بين الصفا والمروة ، كل أولئك لا يقصد به الإسلام توجيه القلوب إلى هذه الأحجار والآثار ترفلاً بعبادتها أو رجاء لرحمتها أو طلباً لشفاعتها وإنما يقصد تعظيم الإله الحق وامثال أمره بعبادته في مواطن رحمته ومظان بركته ، التي تنزلت فيها على عباده الصالحين من قبل ، ثم تجديد ذكرى أولئك الصالحين في النفوس ، وتمكين محبتهم في القلوب ، باقتناء آثارهم ، والتأسي بحركاتهم وسكناتهم ، حتى يتصل حاضر الأمة بماضيها ، وحتى تنتظم منها أمة واحدة تدور حول محور واحد ، وتتجه إلى مقصد واحد هو أعلى المقاصد وأسمائها (وللحكم إله واحد لا إله إلا هو) أتدرون من هو .. ؟ إنه ليس الكعبة وليس الصفا والمروة ، ليس إبراهيم ولا مقام إبراهيم ، ولكنه (الرحمن الرحيم) الذي وسع كل شيء رحمة ونعمة (إن في خلق السموات والأرض .. آيات لقوم يعقلون) والذي بيده القوة كلها والبأس كله : لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب) .

هذا من جانب المقصد الذي وقع الفراغ منه .

وأما من جانب المقصد الذي أقبلنا عليه فإن هذه الخطوة كانت أساساً وتقدمة لا بد منها قبل الشروع في تفصيل الأحكام العملية ، لتكون توجيهاً للأنظار إلى الناحية التي ينبغي أن يتلقى منها الخطاب في شأن تلك الأحكام . ذلك أن المرء إذا عرف له سيداً واحداً وأسلم وجهه إليه وجب ألا يصدر إلا عن أمره ولا يأخذ التشريع إلا من يده . ومن كانت له أرباب متفرقون ، وتنازعت فيه شركاء متشاكسون تقاضاه كل واحد منهم نصيبه من طاعته ، وكثرت عليه مصادر الأمر المطاع . فأمر للآباء والعشيرة . وأمر للعرف والعوائد الموروثة والمستحدثة ، وأمر للسادة والكبراء وأمر للشياطين والأهواء .. ولذلك عززها بالخطوة الثانية .

(الخطوة الثانية) تقرير وحدة الأمر المطاع .

وهي ركن من عقيدة التوحيد في الإسلام ، فكما أن من أصل التوحيد ألا تتخذ في عبادتك إلهاً من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق والضر والنفع ، كذلك من أصل التوحيد ألا تجعل لغيره حكماً في سائر تصرفاتك ، بل تعتقد أن لا حكم إلا له ، وأن بيده وحده الأمر والنهي والحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرّمه الله ، ومن استحل حرامه أو حرم حلاله فقد كفر . وكما أنه لا يليق أن يكون هو الخالق ويعبد غيره والرازق ويشكر غيره ، لا يليق أن يكون هو الحاكم ويطاع غيره .

(يا أيّها النّاس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان) .

ولقد سلك في تقرير هذه الوحدة التشريعية نحوه من مسلكه في تقرير وحدة الإلهية .

« فبدأها » بأن تعرف إلى الناس بنعمة الله الشاملة ورحمته الكاملة في سهولة الشريعة وملاءمتها للفطرة ، إذ أنه في سعة الاختيار لم يحرم عليهم من الطعام إلا أربعة أشياء كلها رجس خبيث ، وأحلّ لهم ما وراء ذلك

أن ينتفعوا بسائر ما في الأرض من الحلال الطيب ، وفي ضيق الاضطرار جعل المحظورات كلها تنقلب مباحات مرفوعاً عنها الحرج (فمن اضطرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه إن الله غفور رحيم . وناهيك بهذا الأسلوب تلييناً للقلوب وحملًا لها على الخضوع لأمر هذا الرب الرعوف بعباده . أفمن يحل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث أحق أن يطاع . أم من (بأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) ؟ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع . أم من (لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) .

(ثم ختمها) بتعريفهم مبلغ غضبه وانتقامه ممن يكتم أمر نبيه ويبدلها بغير ما أمر ونهي ويأخذ على ذلك الرشا والسحت (أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيمة ولا يزيكهم ولم عذاب أليم) .

والناظر في منهج هذا التقرير إذا تأمل في وجه اختيار حديث المطاعم والمكاسب من بين ضروب الحلال والحرام يرى من لطائف موقعه هنا ما يعرف به أنه هو العروة الوثقى التي شد بها وثاق البيان ، وسدت بها الفروج بين خطواته السابقة واللاحقة .

فهو من الوجهة العملية أحد تلك الفروع التي سينتقل إليها الحديث عما قريب فذكره ها هنا يعد إشعاراً بقرب الشروع في المقصد الجديد ثم هو من الجهة الاعتقادية يتصل اتصالاً تاريخياً وثيقاً بعقيدة التوحيد التي هو بصدد ها ، ذلك أن أهل الجاهلية من وثنيين وكتائبيين لما اتبعوا خطوات الشيطان فأزلهم عن توحيد المعبود حتى اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله لم يطل عليهم الأمد حتى فتح لهم باب التشريك في التشريع بعد التشريك في العبادة . فجعلوا يحرمون من الحرث والأنعام حلالها ويحلون حرامها ، بل جعلوا عند ذبح أنعامهم يهلون بها لغير الله - يهتفون بأسماء آلهتهم - ويستحلون طعمتها بذلك ، فجمعوا فيها بين مفسد

ثلاث العصبية والبدعة والشرك الأكبر .

• كأن باب التحريم والتحليل في المطاعم والمكاسب كان هو أول باب فتح في الجاهلية للتشريع بغير إذن الله . ولذلك كان هو أول باب سده القرآن بعد باب الشرك الأكبر . فترى النهي عنه والنص عليه وبيان الحق فيه تالياً لذكر العقائد حتى في السور المكية كسورة (الأنعام . والأعراف . ويونس . والنحل . وغيرها .

ومما زاد موقعه هنا حسناً أن مجيئه في سياق ذكر التوحيد وقع عدلاً لمجيء حكم القبلة في سياق ذكر ملة إبراهيم . فكلاهما فرع عظيم يتصل بأصل عظيم . ألا ترى كيف ختم الكلام في شأنه بمثل ما ختم به هناك من وعيد المعاندين (الذين يكتمون ما أنزل الله) ؟ أو لا ترى كيف أن الإسلام جعل مسألتي القبلة والذبائح كليهما من الشعائر التي يتميز بها المسلم عن غيره . كما يتميز بالشهادة والصلاة « من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا . وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله .

على أن بدعة التحريم بالرأي في هذا الباب لم تقتصر على الفئة الخارجة عن الملة . بل إن بعض المسلمين في عصر النبوة كادت تصيبهم عدوى الأمم قبلهم . إذ هموا أن يترهبوا . ويحرموا على أنفسهم الطيبات من الطعام وغيره . لا تحريماً لما أحل الله منها ؟ بل زهادة فيها وحملًا للنفس على الصبر عنها بضرب من النذر أو اليمين أو العزيمة المصممة . فرد عليهم القرآن هذا الابتداع وأغلق بابيه إغلاقاً ، حتى لا يكون مدرجة لما وراءه .

(١) قرأ في سورة الأنعام سبعاً وعشرين آية أولها قوله (وجعلوا لله ما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً - الآيات ١٢٦ - ١٥٢) وفي سورة الأعراف قوله (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده الآيتين (٣١ و ٣٢) وقوله (فخلف من بعدهم خلت ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى - الآية ٣٦٩) وفي سورة يونس قوله (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً - الآيتين ٥٩ (٦٠) وفي سورة النحل قوله (ولا تشربوا بهمة الله ثمناً قليلاً - الآية ٩٥) وقوله (إنما حرم عليكم الميتة والدم - الآيتين ١١٥ ، ١١٦) .

ونبههم إلى أن من قضية توحيدهم لله أن ينزلوا على حكمه فيما أحل لهم ، قياماً فيه بشريعة الشكر ، كما نزلوا على حكمه فيما حرم عليهم قياماً فيه ، بشريعة الصبر : (يا أيها الذين آمنوا آمنوا كلوا من طيبات ما رزقكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون)

فانظر كيف كان خطاب الناس عامة بهذا الأصل ولو أحقه توطئة لخطاب المؤمنين خاصة به وبما سيتلوه من الأحكام ، كما أن خطاب الناس عامة بأركان الإسلام في صدر السورة كان توطئة لما تلاه من خطاب بني إسرائيل خاصة بدعوتهم إلى الدخول فيه قلباً وقالباً . هل ترى أحسن من هذا النسق المتقابل المتبادل ؟

والآن وقد أخذت النفس أهبته لتلقى سائر الأوامر والنواهي انظر كيف خطا إليها الخطوة الثالثة والأخيرة :
(الخطوة الأخيرة) لإجمال الشرائع الدينية وترى فيها عجائب من صنعة النسق :

(١) انظر إلى حسن التخلص في ربطه بين المقصد القديم ، والمقصد الجديد على وجه به يتصلان لفظاً ، وبه ينفصلان حكماً .. فهو في جمعها لفظاً كأنه يضع إحدى قدميك عند آخر الماضي ، وثانيتها عند أول المستقبل . ولكنه في تفريقها حكماً بأدائي النفي والاستدراك كأنما يحول قدميك جميعاً إلى الأمام . (ليس البر أن تؤكوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن ..)

يقول : إن مسألة تعيين الأماكن والجهات في مظاهر العبادات — تلك المسألة التي شغلت بال المخالفين والموافقين نقداً ورداً — ليست هي كل ما يطلب الاشتغال به من أمر البر ، بل هي شعبة واحدة من جملة الشعب التي تشتمل عليها خصلة واحدة من جملة خصاله . وإنما البر كلمة جامعة لخصال الخير كلها ، نظرية وعملية ، في معاملة المخلوق ، وعبادة الخلق ، وتركية الأخلاق ، فبتلك الخصال جميعها فلتشغل المؤمنون المصادقون .

«٢» ثم انظر إليه حين أقدم على تفصيل تلك الخصال كيف أنه لم يقبل عليها دفعة واحدة ، بل أخذ يتدرج إليها في رفق ولين ، فتقدم بكلمة فوق الإجمال ودون التفصيل هي بمثابة فهرس لقواعد الإيمان . ولشرائع الإسلام « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه .. »

«٣» وانظر إلى سرد قواعد الإيمان هنا كيف عدل بها عن ترتيبها المطبوع الذي راعاه في صدر السورة غير مرة فقرأ هنا يجمع بين الطرفين « الإيمان بالله واليوم الآخر » وختم بالواسطة « الإيمان بالملائكة والكتب والنبيين » . ذلك لأن من هذه الوسائط تعرف الأحكام الشرعية ، وعن يدها تؤخذ فأخرها لتتصل بها تلك الأحكام حتى لا يحول بين الأصل وفرعه حائل ولذلك راعي ترتيب أركان هذه الواسطة فيما بينها . فصدر بالملائكة وهم حملة الوحي ، وثني بالكتاب وهو الوحي المحمول . وثالث بالنبيين وهم مهبط الوحي . ومن هناك اتصل ببيان تلك الشرائع التي وصلت إلينا عن طريق النبوة

...

المقصد الثالث من مقاصد السورة : في ست ومائة آية (١٧٨ — ٢٨٣)

بعد إرساء الأساس ، تكون إقامة البنيان ، وبعد الاطمئنان على سلامة الخارج ، يحجى دور البناء والإنشاء في الداخل ..

نعم ، لقد تم (إصلاح العقيدة) التي هي روح الدين وجوهره ، فليبدأ (تفصيل الشريعة) التي هي مظهر الدين وهيكله .. لقد أزيلت شبه المعاندين ، وأقيمت الحججة عليهم ، فلم يبق إلا إنارة السبيل للسالكين ، وإيضاح المحجة بين يديهم .. كانت العناية من قبل ، موجهة إلى بيان (حقائق الإيمان) فلتتوجه الآن ، إلى بسط (شرائع الإسلام) .

وأنت فقد رأيت كيف مهّدت السورة لهذا التحول ، إذ وضعت

برزخاً يربط أطراف الحديث ، ويلتقي فيه سباقها وسياقها .. ولو أنك تكلّفت الآن التفاتة يسيرة إلى جانبك ، لرأيت أدنى هذا البرزخ إليك تلك الآية الجامعة (آية البر) التي انتظمت أصول الدعوة بشطريها : النظري ، والعملية ؛ ولرأيت أدنى هذين الشطرين إليك ، هو هذا الشطر العملي .

فاعلم الآن . أن هذا الشطر العملي . الذي لمحتاه من قبل مطوياً في فهرس موجز ، ستره فيما يلي . مبسوطاً في بيان مفصل .

ففي نيف ومائة آية : سنرى فتناً جديداً من المعاني . مهمته رسم نظام العمل للمؤمنين ، وتفصيل الواجب والحرام والحلال لهم في شتى مناحي الحياة : في شأن الفرد ، وفي شأن الأسرة . وفي شأن الأمة .. بياناً موثقاً نارة ، وجواباً عن سؤال نارة أخرى . متناولاً في جملته عشرات من شعب الأحكام ..

هذه الحكمة العامة : في تأخير إقامة البيان . ريشما أرسيت قواعده وفي تأجيل الفروع حتى أحكمت أصولها . سنبذو من ورأها حكمم جزئية . وأسرار دقيقة ، لمن أقبل على هذه الفروع ينظر إلى تلاصق لبناتها في بنيتها ، وتناسق حياتها في قلاذتها . ثم رجع ينظر في وجه التقابل بين ذلك الإجمال السابق ، وهذا التفصيل اللاحق ..

فلنأخذ في استعراض الحلقات الرئيسية لهذه السلسلة الجديدة :

لقد ختمت آية البر كما رأيت . بخصلة من خصال البر . ميّزت في إعرابها تمييزاً ، فكان ذلك تنويهاً بشأنها أي تنويه .. تلك هي خلة الصبر ، التي شعبتها الآية المذكورة إلى ثلاث شعب : الصبر في البأساء والصبر في الضراء ، والصبر حين البأس .. فهل تعلم أنه الآن وقد بدى دور التفصيل ، ستكون هذه الخصلة بشعبها الثلاث ، أول ما تعنى السورة بنشره من تلك الخصال ، وأنها ستنشرها نشرأ مرتباً ترتيبياً تصاعدياً على عكس ترتيب الطي : الصبر حين البأس ، ثم الصبر في الضراء ، ثم الصبر

في البأساء .. وهل تعلم أن هذا النظام التصاعدي نفسه سيتبع في سائر الحصال : الوفاء بالعهود والعقود ، ثم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والبذل والتضحية في سبيل الله ؟ .. إليك البيان مفصلاً :

الصبر حين البأس

لا تحسبه هنا صبراً على الخروج والتروح في الحرب . فذلك معنى سلبي استسلامي : ولا تحسبه صبراً في البطش والفتك بالأعداء . فذلك جهد عملي إيجابي حقاً . ولكن مرده إلى قوة العضل والعصب . لا إلى قوة الخلق والأدب « ليس الشديد بالصرعة . ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب » .. هكذا سيختار الله لنا من مثل الصبر أمثلها . ومن موازينه أوزنها في معايير القيم : ذلك هو ضبط النفس حين البأس . كفاً لها عن الاندفاع وراء باعثة الانتقام . وردعاً لها عن الإسراف في القتل . ووقوفاً بها عند حد التماثل والتكافؤ العادل (القصاص ١٧٨ - ١٧٩) .. وإذا كانت تداعى المعاني يسوقنا من الحديث عن القتل ، إلى الحديث عن هم بشرف الموت . فاسب تنميم الكلام ببيان ما يجب على المحتضر من الوصية لأقاربه برأ بهم (الوصية ١٨٠ - ١٨٢) .

الصبر في الضراء

وكذلك سيختار الله لنا من أبواب الصبر في الضراء أعلاها : ليس الصبر على الأمراض والآلام بإطلاق . ولكنه الصبر على الظماً والمخمصة في طاعة الله (الصوم ١٨٣ - ١٨٧) .. وينساق الحديث من الصوم المؤقت عن بعض الحلال ، إلى الصوم الدائم عن السحت والحرام (١٨٨) .

الصبر في البأساء

وعلى هذا النمط نفسه ، سنرى الصبر في البأساء هنا ليس هو ذلك الصبر الاضطرابي على الفقر والأزمات المالية والجوائح السماوية ،

ولكنه الصبر الاختياري على التضحية بالأموال إنفاقاً لها في سبيل الله .
والمثال الذي يختاره التزليل الحكيم هنا مثال مزدوج^(١) ، ينتظم الصبر
في البأساء والضراء جميعاً ؛ إذ يجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال
(الحج إلى بيت الله ١٨٩-٢٠٢) ولا تنس ها هنا أن تنظر إلى
المعبرة اللطيفة التي انتقل بها الحديث من الصوم إلى الحج .. تلك هي مسألة
الأهله التي جعلها الله مواقيت للصوم وللحج جميعاً (١٨٩).

ولنقف بك ها هنا وقفة يسيرة ؛ نشير فيها إلى أن شأن عجيب من
شؤون النسق القرآني في هذا الموضع :

ذلك أنه حين بدىء بذكر الحج ، لم تتصل به أحكامه ولاء . بل
فصل بين اسمه وحكمه بست آيات في أحكام الجهاد بالنفس والمال في
قتال الأعداء (١٩-١٩٥) .. فاصلة يحسبها الجاهل رقعة غريبة في ثوب
المعنى الجديد .. ولكن الذي يعرف تاريخ الإسلام وأسباب نزول
القرآن . يعرف ما لهذه الفاصلة من شرف الموقع وإصابة المحز ؛ لا لمجرد
الاقتران الزماني بين تشريع الحج وبين غزوة الحديبية في السنة السادسة
من الهجرة ؛ ولكن لأن أداء المناسك في ذلك العام كان عزمًا لم ينفذ .
وأملًا لم يتحقق ؛ إذ أحصر المسلمون يومئذ عن البيت . وهموا أن
يبطشوا بأعدائهم الذين صدوهم عنه ؛ لولا أن الله نهاهم عن البدء بالعدوان
وأمرهم ألا يقاتلوا في المسجد الحرام إلا من قاتلهم فيه . فأنصرفوا راجعين .
مستسلمين لأمر الله . منتظرين تحقيق وعد الله .. فكذلك فلينصرف القارئ
أو المستمع ها هنا وهو متعطش لإتمام حديث الحج على أن يعود إليه بعد
فاصل . كما انصرف المسلمون إذ ذاك عن مكة وهم إليها متعطشون ،
على أن يعودوا إليها من عام قابل .. هكذا كانت هذه الآيات الفاصلة

(١) بل إن شئت قلت إنه مثلك الألوان ؛ لأنه سيدخل في ثنائه الصبر حين البأس في
جادة أعداء الله (١٩٠-١٩٥).

تذكراً خالداً لتلك الأحداث الأولى .. وهكذا كان القرآن الحكيم مرآة
صافية نطالع فيها صور الحقائق من كل لون ، نفتسبها طوراً من تصريح
تعبيره ، وطوراً من نهجه وأسلوبه في تعجيل البيان أو تأخيرها . ثم كانت
هذه الآيات الفاصلة في الوقت نفسه درساً عملياً في صبر المتعلم على أسناذه ،
لا يعجله بالسؤال عن أمر في أثناء حديثه ؛ ولكن يتلبث قليلاً حتى يحدث
له منه ذكراً في ساعته الموقوتة .. وهكذا لن يطول بنا الانتظار حتى نرى
أحكام الحج والعمرة تجيء في إثر ذلك على شوق وظمأ ، فتشيع وتروى
بالبيان الشافي الوافي (١٩٦-٢٠٣) . وبتمام هذا البيان تم الحلقة الأولى
من الأحكام أعني فريضة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس .

استجماعة (٢٠٤-٢١٤)

وشاءت حكمة الله وتلطفه بنا في تربية نفوسنا على طاعة أمره ، ألا
يصعد بنا إلى الحلقة الثانية من فورنا هذا . ولكن بعد استراحة فيها شيء
من الموعظة العامة . يثبت بها القلوب على ما مضى ، ويوطيء لها السبيل
إلى ما بقى .. وكان من حسن الموقع لهذه الموعظة العامة ؛ أنها اتصلت
بالموعظة الخاصة التي ختم بها حديث الحج ، والتي قسمت الناس من حيث
آمالهم ومطامعهم إلى فريقين : فريق يطلب خير الدنيا ولا يفكر في أمر
الآخرة . وفريق لا تنسبه دنياه مصالح أخراه (٢٠٠-٢٠٢) فجاءت
الموعظة العامة تقسم الناس من حيث ما فيهم من خلق الأثرة أو الإيثار
إلى فئتين : فئة لا تبالي أن تضحي في سبيل أهوائها بحياة العباد ، و عمران
البلاد . وفئة على العكس من ذلك لا تضن أن تضحي بنفسها في سبيل
مرضاة الله (٢٠٤-٢٠٧) وتخلص الآيات الحكيمة من هذا التقسيم ،
إلى توجيه النصح للمؤمنين بأن يخلصوا نفوسهم من شوائب الهوى ،
ويستسلموا بكليتهم لأوامر الله ، دون تفريق بين بعضها وبعض ؛ محذرة
ليأهم من الزلل عنها بعد أن هدوا إليها ووقفوا عليها ، معزية لهم عما قد

يصيبهم من البأساء والضراء في سبيل إقامتها ، ضاربة لهم المثل في ذلك بسنة السلف الصالح من الأمم السابقة (٢٠٨ - ٢١٤) .

هنا تمت الاستراحة بالموعظة العامة .

وستكون الحلقة التالية في تفصيل الخصلة الثانية من الحاصل العملية التي أجملت في آية البر . وهي الوفاء بالعهود والعقود ؛ وستختار من بين هذه العقود أحقتها بالعناية والرعاية : عقدة الزواج وما يدور حول محورها من شؤون الأسرة . أليست الأسرة هي المجال الأول للتدريب على حسن العشرة . وعلى التنزه من رذيلة الأنانية والأثرة ؟ ثم أليست الأمور متى استقامت في هذا المجتمع الصغير . استقامت بالتدرج في المجتمع الكبير . ثم في المجتمع الأكبر ؟ ..

ترى كيف سيكون الانتقال إلى هذه الحلقة الثانية ؟ هل يصعد القرآن بنا توطأ إلى تفصيل هذه الشؤون المنزلية المشتبكة المشعبة ؟ كلا إن هذا البيان الربوبي الحكيم لن يهجم بنا عليها دفعة ، ولكنه سيتلطف في الوصول بنا إليها على معراج من الأسئلة والأجوبة ، تتصل أوائلها (١) بالأحكام الماضية : الإنفاق والجهاد (٢١٥ - ٢١٨) وتتصل أواخرها (٢) بالأحكام التالية : مخالطة اليتامى . وشرائط المصاهرة ، وموانع المباشرة (٢٢٠ - ٢٢٢) .. وهكذا نصل في رفق ولين ، دون اقتضاب ولا ابتسار ، إلى صميم الحلقة الثانية (٢٢٣ - ٢٣٧) حيث نتلقى في شأن الحياة الزوجية دستوراً حكيماً . مؤلفاً من شطرين ، شطره الأول يعالج شؤون الأسرة

(١) و (٢) ارجع البصر كرتين إلى هذا النظام الهندسي في البيان ... ثم سل نفسك هل كان في الإمكان أن يأنثف عقد نظامه لو لم تقع الأحداث التي اتخذت منها مادته ، أو لو وقع بعضها وتخلف بعضها ، أو لو وقعت كلها ولم تنبث في روع القوم باعثة السؤال عن أحكامها .. ؟ لقد كسان القدر يسير إذا في ركاب هذا التنظيم ، فأثار مادة حوادثه ، وبعث حاجات النفوس إلى طلب بيانها ... ولم يبق إلا أن تقول مي : آمنت أن الذي بيده تصريف الزمان ، هو هو الذي بيده تنزيل القرآن ... ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين .

في أثناء اتصالها (٢٢٣ - ٢٣٢) وشطره الأخير يعالج شؤونها في حال انحلالها وانفصالها (٢٣٣ - ٢٣٧) .

فخذ هذه الحلقة الجديدة من السورة الكريمة ، وتعرف أسباب نزولها وانظر كيف كانت كل قضية منها فتياً في حادثة معينة منفصلة عن أخواتها ؛ ثم عد لتتأمل في أسلوبها البياني جملة ؛ وحاول أن ترى عليه مسحة انفصال أو انتقال . أو أن تحس فيه أثراً لصنعه لصق . أو تكلف لحام ... واعلم منذ الآن أنك ستحاول عبثاً ؛ فإنك لن تجد أمامك إلا سبيكة واحدة يطرد فيها عرق واحد . ويجري فيها ماء واحد . على رغم أنها جمعت من معادن شتى ..

تأمل أول كل شيء في خط سير المعاني :

أنظر كيف استهل الحديث بإرساء الأساس ، وذلك بتقرير حق العشرة والمخالطة الزوجية (٢٢٣) ثم انظر كيف تلاه النهي عن إدخال اليمين في أمثال هذه الحقوق المقدسة ، سواء بالحلف على منع البر عن مستحقه ، أو على قطع ما أمر الله به أن يوصل (٢٢٤ - ٢٢٥) وكيف عقبه بحكم فرع من فروع هذا المبدأ متصل بالعلاقة الزوجية . وهو حكم من حلف على الامتناع عن زوجته (٢٢٦ - ٢٢٧) وكيف اتصل من هنا بأحكام الطلاق وما يتبع الطلاق من حقوق وواجبات (٢٢٨ ..) فإذا أعجبك هذا التسلسل المعنوي . وهذا التدرج المنطقي ، في شؤون كانت متفرقة ، ارتجلتها الحوادث ارتجالاً ، فتعال معي لأضع يدك في هذه القطعة على حرف واحد تلمس فيه مبلغ الإحكام في التأليف بين هذه المتفرقات ، حتى صارت شأنًا واحداً ذا نسق واحد :

ذلك هو موضع النقطة من فتيا الإيلاء ، إلى فتيا الطلاق : « وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم .. والمطلقات يتربصن ... » ألا ترى كيف أدير الأسلوب في حكم الإيلاء على وجه معين ، يطل القارئ منه على

أفق متبلد ينذر باحتمال الفراق ؛ فلما جاء بعده الحديث عن أحكام الفراق لم يكن غريباً ، بل وجد مكانه مهياً له من قبل ؛ كأن خاتمة حكم الإيلاء كانت بمثابة عروة مفتوحة ، تستشرف إلى عروة أخرى تشبكت معها ؛ فلما جاءت فتياً الطلاق في إبانها كانت هي تلك العروة المنتظرة . وما هو إلا أن التقت العروتان حتى اعتنقنا وكانت منهما حلقة مفرغة لا يدري أين طرفاها . وهكذا أصبح الحديثان حديثاً واحداً .

ترى من علم محمداً — لو كان القرآن من عنده — أنه سوف يُستفقى يوماً ما في تلك التفاصيل الدقيقة لأحكام الطلاق ؟ ومن علمه أنه سيجد لهذا السؤال جواباً ، وأن هذا الجواب سيوضع في نسق مع حكم الإيلاء ، وأنه ينبغي لاستقامة النسق كله أن يساق حكم الإيلاء ، الذي وقع الاستثناء فيه الآن ، على وجه يجعل آخر شقيه هو أدناهما إلى حديث الطلاق الذي سوف يسأل عنه بعد حين ؛ لكي ينضم الشكل إلى شكله متى جاء وقت بيانه .. هيهات أن يحوم علم البشر حول هذا الأفق الأعلى ؛ فإنما ذلك شأن عالم الغيب الشهادة ، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ... وتمضي السورة في هذا النمط الحديد ، مفصلة آثار الطلاق وتوابعه كلها : عدة ، ورجعة ، وخلعاً ، ورضاعاً ، واسترضاعاً ، وخطبة ، وصداقاً ، ومتعة ... إلى تمام هذه الحلقة الثانية (٢٣٧) .

وهناك تبدأ الحلقة الثالثة « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ... » (٢٣٨ — ٢٧٤) .

فلنتظر : كيف تمت النقلة بين هاتين الحقتين ؟

إننا بمقدار ما رأينا من التلبث والتمكث ، والاستجمام والتنفس بين الحلقة الأولى والثانية ، سرى على عكس ذلك بين الحلقة الثانية والثالثة ، نقلة شبه خاطفة بل لفظة جِدَّ مباغتة ، قد يحسبها الناظر اقتضاباً ؛ وما هي باقتضاب إلا في حكم النظر السطحي .. أما من تابع معنا سير قافلة

المعاني منذ بدايتها ، وقطع معنا ثلثي الطريق الذي رسمته آية البر : من الوفاء بالعهود ، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس ، فإنه لا ريب سوف يستشرف معنا إلى ثلثه الباقي : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وبذل المال على حبه في سبيل الله ؛ وسوف يرى أن هذه الحلقة الثالثة قد جاءت هنا في رتبته وفي موضعها المقدر لها . وفق ترتيبها في الآية الجامعة .

سيقول قائل : نعم ، لقد جاءت في موضعها ورتبتها ؛ ولكن الانتقال إليها قد تم دون إعداد نفسي ، ولا تمهيد بياني .

نقول : بل كان هذا الإعداد والتمهيد ، في الآية الكريمة التي ختمت بها الحلقة السابقة : « وأن تغفرو أقرب للتقوى . ولا تنسوا الفضل بينكم . إن الله بما تعملون بصير » .. فهذه لو تدبرت معبرة ذهبية وضعت في وقت الحاجة إليها بعد أن استطال الحديث في تفصيل الحقوق والواجبات المنزلية ؛ معبرة جيء بها لتقلنا من ضوضاء المحاسبة والمخاصمة ، إلى سكون المسامحة والمكارمة ؛ فكانت معراجاً وسطاً صعد بنا إلى أفق أعلى ، تمهيداً للعروج بنا فيما يلي إلى الأفق الأعلى .. ألا تسمع إلى هذه الكلمات : « ولا تنسوا الفضل بينكم » لا تنسوا . الفضل .. بينكم . إن كل حرف في هذه الكلمات ينادي بأنها كلمات حبيب مودع ، كان قد أقام بيننا فترة ما ، ليفصل في شؤوننا ؛ ثم أخذ الآن بطوى صحيفة أحكامه ، ليتحول بنا عنها إلى ما هو أهم منها ؛ فقال لنا وهو يطويها : دعوا المشادة في هذه الشؤون الجزئية الصغرى ؛ سووها فيما بينكم بقانون البر والفضل ، الذي هو أسمى من قانون الحق والعدل ؛ وحولوا أبصاركم معي إلى الشؤون الكلية الكبرى ، التي هي أحق بأن يتوفر عليها العزم والقصد ، وأحرى أن يشغل بها العقل والقلب ... نعم ، نعم . لقد كفناكم هذا حديثاً عن حقوق الزوج والولد ، فاستمعوا الآن إلى الحديث عن حقوق الله والوطن : حافظوا على الصلاة ... أنفقوا في سبيل الله ... جاهدوا في سبيل الله ..

« وبعد » فهل حديث الصلاة هنا يعتبر مقصداً أصلياً مستقلاً ، أم هو جزء من مقصد آخر .

لكي نحسن الجواب عن هذا السؤال ، يجمل بنا أن نرجع البصر كرة أخرى ، لننظر في جملة الخصال التي جمعت في آية البر ، والتي فصلت في الآيات من بعدها إلى قرب آخر السورة ، ولنقارن بين حظوظها من عناية الذكر الحكيم . فماذا نرى ؟ .

نرى التنويه بفضيلتي الإنفاق والجهد في سبيل الله ، لا يزال يعاد ويردد في مطالع الحديث ومقاطعته ، في إجماله وفي تفصيله ، ترديداً ينادى بأنه هو المقصود الأهم . والمهدف الأعظم . من التشريع في هذه السورة .. فلو أننا ، في ضوء هذا الأسلوب ، تمثلنا تلك البيئة وأحداثها وتمثلنا القوم وهم تتلى عليهم شرائع هذه السورة وأحكامها : لتمثلنا معسكراً ثابتاً للجهاد المزدوج ، المالي و البدني ، ولتمثلنا على رأس هذا المعسكر قائداً يقظاً حريصاً ، لا يعزب عنه شأن من شئون جنوده ، خاصتها وعامها ، ولا يفتأ يلقي عليهم أوامره وإرشاداته في مختلف تلك الشئون كلما فرغ من إفتائهم في نوازلهم العارضة الوقتية ، رجع بالحديث إلى مجراه العتيق . في شأن مهمتهم الرئيسية ..

ضع هذه اللوحة الجندية أمام عينيك ... فلن يكون عندك عجباً أن ترى الحديث في شأن الجهاد يبرز الآن على إثر تلك الشئون ؛ ذلك أن بساطه كان أبداً منشوراً ، وأن داعيته كانت دائماً قائمة ؛ فإذا عاد ذكره بعد أن زال ما حوله من الشواغل الوقتية ، فإتما يحىء على أصله وسجيته ؛ فلا يسأل عن علته ...

ماذا نقول ؟ .. شأن الجهاد !! أليس الحديث سيفتتح الآن بشأن الصلاة ، وعدة الوفاة ، لا بشأن الجهاد ؟

بل نقول ، ونحن نعني ما نقول : إن الحديث يعود الآن إلى شأن

الجهاد ، وإن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يتوجه إلى المجاهدين من حيث هم مجاهدون ، ليحل المشاكل التي يثيرها موقف الجهاد نفسه ، قبل أن يوجه إليهم الأمر الصريح بالقتال .. فأول هذه المشاكل مشكلة الصلاة في الحرب : ألا يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله ؟

يجيبنا الكتاب العزيز : لا رخصة في ترك الصلاة ولا في تأجيلها ، لا في سلم ولا في حرب . لا في أمن ولا في خوف : « حافظوا على الصلوات » (٢٣٨) وإنما الرخصة عند الخوف في شيء واحد : في صفات الصلاة وهيئاتها : « فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا . فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » (٢٣٩) . والصلاة كما نعلم قوة معنوية على العدو ، وعدة من عدد النصر^(١) . لا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين ، قبل أن يؤمروا بالقتال أمراً صريحاً . والصلاة في الوقت نفسه طهرة للنفس من مساوئ الأخلاق ، تنقيها من دنس الشح والحرص على حطام الدنيا^(٢) . لا جرم كان من الحكمة كذلك جعلها دعامة للوصية الآتية . التي أمرتنا بالتسامح والتكامل في المعاملات .. هكذا كان وضع حديث الصلاة مزدوج الفائدة : دواء وغذاء معاً ، ينظر إلى الأمام وإلى الوراء جميعاً . بل قل إنه مثلث الفائدة ؛ لأنه في نظره إلى الخلف لا ينظر إلى الآية الآتية وحدها ، بل ينظر كذلك إلى الآية الجامعة ، ليفصل إجمالها في هذا الجانب ..^(٣)

(١) هكذا قال الله : « واستعينوا بالصبر والصلاة » .

(٢) وهكذا قال الله في وصف الإنسان : « وإذا منه الخير متوعا ، إلا المصلين ... »

(٣) إذا فهمت حسن هذا التلطف ، في الانتقال من المعنى القديم إلى المعنى الجديد ، وأدركت جمال هذه الأرض الهندسية ، التي تناسقت بها المعاني السابقة واللاحقة ، فقد زالت عنك شبهة الاقتضاب هنا في الانتقال إلى حديث الصلاة .. غير أننا إذا قسنا هذه النقطة إلى النقطة السابقة بين الخلقين الأول والثانية ، ألسنا نرى هذا التمهيد قصيراً ، وهذا التحول سريعاً ؟ أليس النفس في سيرها هنا تدركها رجة خفيفة لهذا التحول السريع الذي تفرضه عليها حركة قائدها ؟ =

والجندي في الحرب تشغله على الأقل مخافتان : مخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه ، من أخطار الموت أو الهزيمة ، ومخافة على أهله من الضياع والعبث لو قتل ... لذلك انساق البيان الكريم يطرد عن قلبه كلتا المخافتين . أما أهله فقد وصى الله للزوجة ، إذا مات زوجها ، بأن تمتنع حولا^(١) كاملاً في بيته ، وكذلك مطلقته سيتقرر لها حق في المتعة لا ينسى . فليقر عيناً من هذه الناحية (٢٤٠ - ٢٤٢) وأما خوف الموت فليعلم أن الذي يطلب الموت قد توهب له الحياة : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ؟ فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » (٢٤٣) . وأما خوف الهزيمة ، فإن النصر بيد الله « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » وتلك سنة الله في المرسلين (٢٤٦ - ٢٥٣) .

هكذا أبعدت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين ، بعد أن زودت أرواحهم بيزاد التقوى ، وهكذا أصبحوا على استعداد نفسي كامل ، لتلقي الأوامر العليا ، فليصدر إليهم الأمر صريحاً بالجهاد في سبيل الله

— ألا فاعلم ، علمك الله ، أن هذه سرعة مقصودة ، وأن من الحسير لنا أن نحس بهذه الرجة الخفيفة من أثر ذلك التحول السريع ؛ فإنا لذلك مغزى عميقاً في تربية النفوس المؤمنة ... إن هذه النقلة تصور لنا ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، إذا سعى نداء الواجب الروحي وهو منهك في معركة الحياة . فكأننا بهذا الأسلوب الحكيم ينادينا : إنه ليس شأن المؤمن أن يحتاج إلى كبير معالجة للتسامي بروحه فوق مشاغل الأهل والولد ، وإنما شأنه أن يشتغل نفسه من غيرتها وانتشالا فورياً ، ليسرع إلى تلبية ذلك النداء الأقدس ، قائلاً للدنيا كلها : « دعني أتبع لربي ! » . نعم هذا شأن المؤمنين « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطعناً » .

(١) للمفسرين في هذه الآية قولان مشهوران : أحدهما أنها وصية مندوبة لا واجبة . الثاني أنها كانت واجبة في صدر الإسلام ثم نسخت بالآية السابقة (٢٣٤) التي توجب تربية أربعة أشهر وعشر لا أكثر ... ووضح أن كلا القولين سبي على أن آية الحول يصرى حكمها أصل الأزواج عامة ... ولكن السياق الحكيم أوحى إلينا هذا المعنى الجديد : وهو أن تربية الحول الكامل كان خصوصية فضلت بها زوجات المجاهدين على زوجات القاهدين . والله أعلم .

بأموالهم وأنفسهم (٢٤٤ - ٢٤٥)^(٢) ولتفصل لهم العبر التاريخية ، التي تثبت أقدامهم حين البأس ، والتي تزيدهم أملاً في النصر (٢٤٦ - ٢٥٣) . والجهاد كما قلنا جهادان : جهاد بالنفس ، وجهاد بالمال ، وليس الجهاد بالمال وفقاً على شؤون الحرب ، بل هو بذله في كل ما يرفه عن الأمة ، ويقوى شوكة الدولة ، ويحمي حمى الملة ..

ولقد أخذ الجهاد بالنفس حظه من الدعوة في آية قصيرة (٢٤٤) ثم في آيات كثيرة (٢٤٦ - ٢٥٣) . وأخذ الجهاد بالمال بعض حظه في آية قصيرة (٢٥٥) فمن العدل أن يأخذ تمام حظه في آيات كثيرة كذلك . وهكذا نرى الدعوة إليه تأخذ الآن قسطها ، مطبوعاً بطابع الشدة تارة (٢٥٤ - ٢٦٠)^(٣) وطابع اللين تارة (٢٦١) وطابع التعليم المفصل

(١) من الطرائف البيانية في أسلوب القرآن هنا أن النتيجة فيه تقع من المقدمات موقع المركز من الدائرة ، لا موقع الطرف من الخط كما هو شأن الأسلوب التعليمي المشهور . ألا ترى هذا الأمر بالقتال في سبيل الله (٢٤٤) قد أحيط من جانبيه كليهما بدعائه وبواعثه ، إيجاباً قبل ، وتفصيلاً بعد ... على أن هذا المنهج الطريف لا يخص هذا الموضع من القرآن ؛ فإنك ستجد شواهد مبثوثة في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز .. تدبر قوله تعالى في سورة المائدة : « اليوم أكملت لكم دينكم » فإن كمال الدين الإسلامي باشتاله مادياً وروحياً على كل النظم الكفيلة بإصلاح الفرد ، والأسرة ، والجماعة ، والدولة ، والإنسانية العامة ، لم يذكر من دلائله قبل إلا طرف يسير . أما بقية البرهان فقد نثرت حباته على أثر ذلك إل تمام الآية العاشرة من السورة المذكورة ... وانظر قوله تعالى في سورة النحل : « لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد » فقد جاء وسطاً بين دلائل الوحدانية في التدبير ، ودلائل الوحدانية في الإنعام والإحسان ... وتأمل قوله في السورة نفسها « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » . فقد جاء بعد تبين أصول العقيدة ، وقبل تبين أصول الغضبية العملية . ومن جملة السابق واللاحق ، يتألف البرهان على صدق هذه القضية ، وهي أن الكتاب تبيان لكل شيء ...

(٢) في هذه الآيات السبع تحذير شديد للبخلاء من يوم لا يبذل فيه فداء ، ولا ينقذ فيه خليل عن خليله ، ولا تنفع فيه شفاعات الشافعين ؛ ثم تأكيد لهذا المعنى بمحو كل شبهة يتعلق بها من يشتد على الشفاعة ، ونفي كل سلطان ونفوذ لغير الله ، ورفع كل ريبة عن حقيقة يوم الدين ... وذلك كله ليكون البذل عن إيمان وعقيدة سليمة ، لا رياء ولا زلفى لأحد ، ولكن ابتغاء لوجه الله الواحد الأحد .

لآداب البذل تارة أخرى (٢٦٢ - ٢٧٤)

ثم ينساق الحديث من فضيلة التضحية والإيثار ، التي هي أسمى الفضائل الاجتماعية ، إلى رذيلة الجشع والاستئثار ، التي هي في الطرف المقابل . أحط أنواع المعاملات البشرية (أعني رذيلة الربا ، التي تستغل فيها حاجة الضعيف ، ويتقاضى فيها المحسن ثمن المعروف الذي يبذله) (٢٧٥ - ٢٧٩) وكان هذا الاقتران بينهما في البيان إبرازاً لمدى الافتراق بين قيمتهما في حكم الضمائر الحية .

وبين هذين الطرفين المتباعين ، يقيم القرآن ميزان القسط في الحد الأوسط ، جاعلاً لصاحب الحق سلطاناً في المطالبة برأس ماله كله لا ينتقص منه شيء « لا تظلمون ولا تظلمون » . غير أنه يحذرننا من سوء استعمال هذا الحق بإزاء المعسرين ؛ فيأمرنا أن نتخذ فيهم لإحدى الحسينين : إما الانتظار إلى الميسرة ، وإما التنازل لهم نهائياً عن الدين . وهذه أكرم وأفضل « وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » (٢٨٠ - ٢٨١) .

ولما كان الطابع البارز في هذا التشريع القرآني ، وهو طابع القناعة والسماحة ، قد يوحى إلى النفوس شيئاً من التهاون في أمر المال ، وربما مال بها إلى التفريط في حفظه وتثمينه . جاءت آيتا الدين والرهان (١) (٢٨٢ - ٢٨٣) تدفعان عن نفوسنا هذا التوهم ، وتصوغان للمؤمنين دستوراً هو أدق الدساتير المدنية . في حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل . تمهيداً لإنفاقيها في أحسن الوجوه .. فمن لم يجد سبيلاً إلى التوثيق بوثيقة ما ، ولم يبق أمامه إلا أن يكل عمله إلى ذمته وأمانته « فليؤد الذي أوثمن أمانته » .

وهكذا ختم الشطر العملي من السورة ، بهذه القاعدة المثلى . التي هي

(١) وآية الدين هي أطول آية في القرآن

أساس كل معاملة شريفة ، أعني قاعدة الصدق والأمانة ، جعلنا الله من أهل الصدق والأمانة .. آمين .

المقصد الرابع من مقاصد السورة : في آية واحدة (٢٩٤)

في الآية السابقة . انتهت مهمة الأحكام التفصيلية . عند الحد الذي أراد الله بيانه في هذه السورة ؛ وبها ختم الشطر الثاني من الحقيقة الدينية . وهو شطرها العملي ؛ بعد أن أرسى شطرها الاعتقادي في الآي ١٢٢ وما بعدها .

وهكذا تناول البيان حتى الآن : ١ - حقائق الإيمان - ٢ - شرائع الإسلام ... هل بقي في بنيان الدين شيء فوق هذه الأركان ؟

نعم : لقد بقيت ذروته العليا ، وحليته الكبرى ..

بعد الإيمان .. والإسلام .. بقي الإحسان ؛ وهو كما فسرهُ صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه ، أن تراقب الله في كل شأنك ، وأن تستشعر مشاهدته لك في شرك وإعلانك ، وأن تستعد لمحاسبته لك ، حتى على ذات صدرك ، ودخيلة نفسك .. مطلب عزيز لا يطبق الوفاء به كل مؤمن . ولا كل مسلم ؛ وإنما يحوم حول حماه صفوة الصفوة من المتقين .. وكأنه لعزة هذا المطلب ونفاسته صان الله درته اليتيمة في هذه الآية الواحدة ، التي نوج بها هامة السورة : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » (٢٨٤) .

• • •

الخاتمة : في آيتين اثنتين (٢٨٥ - ٢٨٦) :

والآن وقد تناول البيان أركان الدين كلها ، وألم بعناصره جميعها ؛ الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ؛ لم يبق بعد تمام الحديث إلا طي صحيفته ، وإعلان ختامه ؟

فهل تعرف كيف طويت صحيفة هذه السورة ، وكيف أعلن ختامها ؟
لنعد بذاكرتنا إلى الآيات الخمس التي افتتحت بها سورة البقرة ؛
لنرى كيف تتجاوب تلك المقدمة مع هذه الخاتمة ؛ ثم كيف يتعانق الطرفان
هكذا يلتحم من قوسيهما سور محكم يحيط بهذه السورة ، فإذا هي سورة
حقاً ، أي بنية محبوكة مسورة ..

ألم يكن مطلع السورة وعداً كريماً لمن سيؤمن بها ويطيع أمرها بأنهم
أهل الهدى وأهل الفلاح ؟

السنة نرقب الآن صدى هذا الوعد ؟ بلى ؛ إننا ننتظر الآن أن تحدثنا
السورة : هل آمن بها أحد ، وهل اتبع هداها أحد ، ثم ننتظر منها إن
كان ذلك قد وقع ، أن تحدثنا عن جزاء من استمع واتبع ..
وهكذا سيكون مقطع السورة :

(١) بلاغاً عن نجاح دعوتها : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه
والمؤمنون ... وقالوا سمعنا وأطعنا » .

(٢) وفاء بوعدها لكل نفس بذلت وسعها في اتباعها : « لما ما
كسبت وعليها ما اكتسبت » .

(٣) فتحاً لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين . فليسطوا
إذا أكفهم مبتهلين : « ربنا .. ربنا .. ربنا .. أنت مولانا فانصرنا على
القوم الكافرين » .

...

تلك هي سورة البقرة .. أرأيت وحدتها في كثرتها : أعرفت اتجاه
خطوطها في لوحاتها ؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها ،
وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها ؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها
وصدرها وأحشائها وأطرافها ، لا أقول أحسن دمية ، بل أجمل صورة

حية . كل ذرة في خلقتها ، وكل خلية في عضوها ، وكل عضو في جهازه ،
وكل جهاز في جسمه ، ينادى بأنه قد أخذ مكانه المقسوم ، وفقاً لخط
جامع مرسوم ، رسمه مربّي النفوس ومزكّيها ، ومنور العقول وهاديها ،
ومرشد الأرواح وحاديها .. فتالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام
نزولها ، لكان جمع أشأتها على هذه الصورة معجزة ، فكيف وكل نجم
منها - كسائر النجوم في سائر السور - كان يوضع في رتبته من فور
نزوله ، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظاراً لحلوله ؛ وهكذا كان ما لم ينزل
منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل ؟ . ثم كيف وقد اختصت
من بين السور المتجمة بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو
بعض عام ، بل بتسعة أعوام ؟ .

لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات ، وفي أساليب
تربيته معجزات ، وفي نبوءاته الصادقة معجزات ، وفي تشريعاته الخالدة
معجزات ، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية (معجزات)
ومعجزات ، لعمري إنه في ترتيب آية على هذا الوجه هو معجزة المعجزات !

...